رواية

فواصل الشوق

عباس مدحت البياتى

فواصل الشوق

فهرسة أثناء النشر
دار الزيتونة للنشر والتوزيع
3025 / 2 / 1914-ق

الزيلعي، عباس مدحت محمد

فراسل الدوري: عباس مدحت محمد الزيلعي - صاحب دار الزيتونة للنشر والتوزيع 3025

ص ؛ ؛ ؛

ر ؛ ؛ 978-9923-68-872-3

فراسلات / الزيتونة للنشر / الأدب العربي / الشعر الأمريكي / الشعراء / الشعر الأمريكي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن المحتوى المقدم ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دار الزيتونة للنشر ، أو تعهد بتبنيه أو تحمل

Copyright ©
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9923-68-872-3

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المصنف أو تخزينه في أي نظام يمكن من استعادته بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلافه دون الحصول على إذن كتابي مسبق

عباس مدحت محمد الزيلعي
مدير التحرير: عباس مدحت محمد الزيلعي
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

إهداء

أهدي روايتي الجميلة إلى زوجتي الغالية وإلى كل مغترب ومهاجر وإلى القارئ العزيز.

ملاحظة: هذه الرواية لا تمت للواقع بصلة، إنها محض خيال ليس إلا.

المؤلف : عباس مدحت البياتي

1- العقدة

كان الصمت قد خيّم على الأفواه بشكل مرعب ومفاجئ، لغاية أن أوعز الظرف إلى انفجار بوتقة الصبر دون سابق إنذار، لمغالاته وشجونه التي لم تعد تحتمل. كبالونة لم تحتمل لهيب الشمس، لم نحتمل الناس وهج الواقع الذي تناثر سخطه كغبارٍ في الأعين.

عندها طنت ذبابة فكرة الهجرة في أذنيَّ، جاءني هاجس من الأعماق يحثني على الحركة، على تغيير المكان والمسار والقدر قبل أن تفلت دقائق العمر من بين الأصابع. زرعت الفكرة قدرةً في جوارحي، دفعتني إلى التمادي، إلى المبادرة، إلى رفع سقف المطالب، بالبحث عن الأمن والسلام في أرضٍ غير أرضي، دون تخطيطٍ أو برمجة. كلٌ سعى حسب رؤيته وتحليله للواقع، فركبت موج الفكرة دون تفكير، باحثٍ عن مخرجٍ للسلام، عن لسعة هربٍ قد أندم عليها، وقد أنجح في صيانة الذات من العبثٍ الدائر في محيطي.

بصبرٍ وخمول، تبعت تلك الإشارة الكهرومغناطيسية التي دغدغت خاصرة الفكرة، ولمعت في ذهني كوميضٍ يوحي بضرورة الإسراع في تغيير منهج الحياة، وفضّ كيس الصمت الذي امتلأ بطقطقة الوجل. تمسكت بالفكرة كفقاعة

نجاة، أقنعت نفسي بالتحرر، بالسلام، بالحرية، خلف حلمٍ كنت أصبو إليه في وطني.

بدأت العقد تتشكل مع احتلال العراق في 9 نيسان 2003، حين سقط تمثال الرئيس في ساحة الفردوس، معلنًا بداية حقبةٍ بغيضة. منذ ذلك اليوم، بدأت الأمور تتشنج، انحدرت حياة العراقيين نحو الدرك الأسفل. لم تكن الفرص متاحة أمامنا لإصلاح الشأن، فجارينا القدر كيفما يشاء وكلنا أمل أن يتحسن الوضع مع تغير النظام، لكن الرياح جرت بما لا تشتهي النوايا. تفاقمت الفتن، وتكاثرت الأحزاب والميليشيات كالبكتيريا، تتصارع على كعكة العراق، غير آبهةٍ بالشعب المنكوب.

في ظل هذا الانحدار، قررت الهجرة إلى الإمارات في 12 شباط 2006، هاربًا من لسعة الطائفية المغيظة، منتظرًا على رصيف الصبر أن تمر قاطرة السلام دون أن تمر. أوضاع الوطن لم تهدأ، ولم تنتهِ الحقبة المظلمة. عندها جددت الفكرة في رأسي، بعد أن يئست من إصلاح الشأن، إذ بات الخراب يزحف على الجدران والمزارع والمصانع، فسادت الفوضى، وعمّ الدمار والخراب، حيث خرجت الأمور عن السيطرة.

في تلك الظروف القسرية عانينا من الإذلال، ومن فقدان الهوية، ومن التشتت والخوف، في ظل وجع غال علينا شفائه. منذ دخول المحتل والعبثية تتفاقم في جميع مجالات

الحياة. صرنا نعيش على الهامش، كالدجاج المعد للذبح، في وطنٍ مشلولٍ بعُقَد الطائفية والشعارات الزائفة، وطمع الدول القريبة والبعيدة بخيراته. لقد تكبلنا بشكل عام بالجذب والخوف والتشتت والإرهاق، حيث ابتدأت تلك المنغصات مع دخول المحتل باحة الوطن. بقينا مكتوفي الأيدي، لم نستطع رفع الأغلال عن أعناقنا، ولا النقم عن قدرنا، ولا أن نبجل الوطن بشأن بين الأمم.

في ظل الظرف الموارب الذي غال بسخطه، شرعت أتبع رنة الصوت القادم من الأعماق دون أن أدرك مصدره وأبعاده، وأنا فاقدًا زمام أمري داخل أروقة الوطن، بثق قرار الهجرة من عمق الحاجة، بحثًا عن قدرٍ يرفع من شأني في البقاع الغريبة، تحركت بعد أن غلبني اليأس والعجز في مقاومة المد الهيولي المقيت، رغم الغصة التي بقيت عالقة بأفواهنا.. مع ذلك بت أسف نفسي خلف الأمر على ضوء المثل القائل "شجابرك على المر، غير الأمر منه"، ذلك ما كان يدفعنا أن نرتقي بالحالة الظرفية إلى الهدوء وإلى سمو الذات.

على تلك الشاكلة من التناقضات الفكرية بقي الذهن يسن عجزه في بوتقة الزمن دون أن تستقر هواجسنا على بارقة قرار يفضي إلى إفراد الذات عن مجمع العُقَد، دون أن نتمكن من إثراء أنفسنا بأحلامنا، أو نرفع آثار القيود عن أعناقنا.

حين تجد نفسك في دوامة من المتاهة والتخبط، تشعر أنك تعيش في معمعة بين المطرقة والسندان، فتبحث عن منفذٍ يقيك شر البلية، وأن تهرب من الوجوه المرعوبة التي على شاكلتك وهم يترنحون كالسكارى في تلك المتاهة تلك التي تنظر إليك كسلم للنجاة. الهرب من المجذورين الطامعين والمتنفذين، ومن سلطان الوحدة والتوحد والأقدار المبهمة، خوفا أن تنفجر دمامل العقد في الجسد دون أن نستطيع معالجة أمرها.

كنت أهجس بذاتي واقفًا على جرفٍ هار، بين السقوط في هوة الرعب، وبين أن تجرفني الأقدار، فاخترت الفرار قبل أن تحل الطامة. لشعوري التام بالعجز من فك أحجية العقد التي غرزت اشوكها في جسد الوطن.

صارت أصواتنا في سوح النداء ناشزة، لا يُسمع لها صدى، وانتُزعت منا الكرامة والمكانة والإمكانات لصالح قوى غاشمة، حلت بيننا من حيث ندري ولا ندري. أضحى الفرد منا يبحث عن ذاته بين الوجوه الدخيلة، دون أن يدرك أنه أصبح جزءًا من المعضلة الجديدة، دون أن يجد فيها نية قبول أو رضا توافق تطلعاته.

اختلطت علينا الأوراق، وضاعت حلقات أحلامنا البسيطة بين زحمة الأقدام والألوان العبثية. كنا نتنفس الصعداء من منافذ ضئيلة، للضيق الذي صار يتبعنا، صرنا نرتدي البؤس رداءً، والوهم وشاحًا، والعناء قناعًا. أضحينا كتلاميذ

المدارس، نتوشح بزي الحزن زيًا موحدًا، مع استمرار زحف الأهوال والمصاعب إلى الأزقة والشوارع العامة. طفحت أرواحنا من ننشر غسيل همومنا على غارب الحبل.

التباين الطائفي، والاعتلالات الجانحة، أعطت صفة إضافية لقرار الهجرة، فصلت بين الوصوليين والوطنيين، أخرست ألسن العدالة مقابل صدح أصوات الجريمة. دخلنا في عنق الزجاجة عنوة، تحت وقع السوط، بحيث تجردنا من قيمنا وعفتنا في ظل الظلم والفوضى... صارت المناصب تُمنح لمن لا يستحق، حسب المحسوبية والانتماء الطائفي، فحين ترى تدهور الوطن مستمر، تشعر بغصة، قد تودي بك في لحظة غفلة.

في ظل تلك الصيرورة صار الحرامي شريفًا، والقواد محترمًا، والحارس وزيرًا، والجندي قائدًا. لم يعد الفرد يأمن على نفسه وأطفاله من الجار والقريب، ومن شلة العصابات الدائرة في الوسط المتمثلة بالغريب والدخيل.

ذلك ما جعل البعض ينآى بنفسه ليتجنب حالة الانحلال والتفسخ الحاصلة في جسد الوطن، ليتجنب الفكر الناطس الدائر في الأزقة والشوارع وفي نفوس الضعفاء المغرر بهم، حيث بقى القلب يخفق في سره بحب الوطن في ظل وعثاء اصابت واقعنا.

لا أدري كيف دخل طائر العنقاء سماء الوطن، ذلك الذي ولد من نفس طائفي عقيم، نفذ للوسط من البراكين الخاملة كالدخان، من تلكم الكواء انبعثت أشرابا من طيور الفينيق إلى سموات الحب وفضاءات الفكر، انقضت على كل شيء جميل، وعلى كل فكرة ناصعة بيضاء.

مع دخول المحتل صار العمر يجري بنا في خطوط محددة وبخطوات أسرع من المألوف وبلهجة لا تجاري الحاجة التي نبحث عنها بين زوايا الحلم. صار الظرف يبز سخطه في كأس المساكين، ينقشه على الجدران والوجوه كرعشات زجلة لا توافق حس الفرد.

مع مرور الأيام ضاقت بنا مجالات الحياة، بحيث بتنا نتحسر على الأيام السالفة. صارت الأحلام تزت في طريق عمياء لا منفذ لها، محصورة بين شفق الغايات وطبق المصالح المتنفذة، فأما أن تنفذ وأما أن تنفذ، كما يقول المثل، تريد أرنب خذ أرنب، تريد غزال خذ أرنب، لا مجال للاختيار.

في تلك الظروف الجانحة، الملموسة وغير الملموسة، المحسوسة وغير المحسوسة، الفجائية والمتوقعة والواقعة والغوغائية، تلك التي بها نض الوطن مخزونه من الهدوء والسكينة بشيء من العتاهة والقنوط، طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، لم تعد لدينا القدرة على مجاراة النزف الحاصل في جسد الوطن، بعد أن فقصت بيوض الفساد وتكاثرت في مجاري الحياة كغزار البعوض والذباب، غزت النفوس

وأفشت السموم في الأسر والابدان. عندها كنت قد ركبت الموجة الغادية، بعد أن تكدرت الأمور وانقرضت أسس الرجاء في مقابل العجز المستفحل في كافة مجالات الحياة. تاركين الوطن يأن تحت سوط الاحتلال وعبث الأحزاب المستحدثة.

بدأ الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق في 2003/3/19 ، مع مرور الايام تفاقمت العقد، مع ارتجاج سقف الطائفية سافرتُ للإمارات، بقيت أعاني من غربة النفس ومن لسعات العناكب والعقارب الدخيلة بين صفوف الشعب؛ حتى لاك المحتل سمومه بصحن الوطن، بافتعال الطائفية والقومية. وبالذات بعد فساد داعش في سنة 2013- 2014 الذي زاد الغلة، حينها كنت قد هاجرت لأروبا، لتتبلور الفكرة في ذهني بشكل قطعي، بعد أن وجدت الحياة قد انحسرت منافذها في منافذ الهرب.

يقول جيفارا في استياءه وتبرمه من الخونة:....

" أذا استطعت أن تقنع الذبابة بأن الزهور أفضل من القمامة، ممكن أن تقنع الخونة بأن الوطن أغلى من المال".

ذلك ما جعل الفكر ينحدر في غييه خلف فكرة تغيير المكان، بعدما غاب التميز بين بسطة المثقف وعقدة الجاهل، بل صارت المناصب تتكيف مع عروة الجاهل على حساب قيافة المثقف. لم يعد هناك فاصل جاد بين العيث والشذوذ، بين

التسويف والعبث، بين التجرد والمصالح الذاتية، حيث تلاشى دور أصحاب الشهادات، وغُيّب صوتهم في إدارة شؤون الوطن.

أصبحت لوحة الوطن مهموزة، مشوهة في أعين الجميع، غجرية، مبهمة، مشوبة بالشك، ماجنة بين الطابع السريالي والكولاجي، لا تفيض بشيء من الواقعية أو الرومانسية التي كنا نعيشها قبل أن يدنس المحتل أرضنا. باتت صورة الإنسان العراقي تتعدد وتتشظى في بورتريهات متداخلة وغامضة، تعكس شذوذه وانفصاله عن ذاته.

تلك الجوانب نمّت في أعماق الذات شبكة من العقد، افضت إلى الوجود ليس له وجود حقيقي داخل الوطن، صار الحفاظ على قدسية النفس هو السبيل الوحيد لصون قدسية الوطن. لذلك تخطيت الحدود المفلجة، حفاظًا على صورة الوطن الحقيقية في داخلي، من أن تُلوث بألوان العبث.

أمام تلك التحديات، بتُ أبحث عن وصفة تنجي النفس، تجليه، تكيله لغاية أخرى خارج نطاق العبودية والإذلال، لأعالج الوحدة التي تأسرني وأنا بين أسرتي، أن أكسر قيد الفزع الذي تسلل إلى جلدي وعقلي كبكتيريا العفن، وأنا أعيش بأحضان وطنٍ لم يعد يحتضن أحد.

صرت أبحث عن الميرة التي أشتاق إليها، عن صرة الأحلام التي ترفع من شأني، لأحافظ على وجودي ومكانتي كإنسان

حـر فـوق هـذا الكوكـب. أصـبحت كمـن يرتـق ويـرف تمزقـات ثيابـه بـالحججِ الواهيـة، متبعـا قائمـة الصـمت والسـلوك العـام فـي لوحـة الـوطن المخرومـة، قانطًـا فـي موضـعٍ بـين سـدادة الفرضـة والشـعيرة، أتأمـل أن تتحـرر الـذات مـن عبـث الظـرف قبـل أن يُجهز علينا.

فـي تلـك الظـروف، قـررت أن أمـنح نفسـي فرصـة للتجـرد والتصـالح مـع الـذات، بعـدما تجـاوزت العقـد حـدود المنطـق. صـرت أبحـث فـي لوحـة الـوطن عـن منفـذٍ أنقـذ بـه نفسـي وعـائلتي مـن دوامـة الفوضـى، تلـك التـي خلخلـت النفـوس أكثـر ممـا لاح الوطن من تجرد وإهما

2- القرار

أصل الحكاية... حين قررت الهجرة

مـا إن تـداولت قـرار الهجـرة مـع زوجتـي، بحثًـا عـن صـيغة جديـدة للحيـاة، خاصـة بعـد أن عـاث المحتـل خرابًـا فـي الـبلاد، حتـى انفرجـت أسـاريري. طرحـت حينهـا فكـرة التصـالح مـع الـذات والـوطن، وسـط تناقضـات وتجاذبـات لـم ينتـهِ نزفهـا بعـد. رسـت الأمـور علـى جدولـة جديـدة لحياتنـا، فأتخمـت الرغبـة بالرغبـة، وأطّـرت الهـدف بالأمنيـة، وزكّيـت الـذات بالرجـاء، باحثًـا عـن أفـقٍ يتكفـل مسـتقبلنا، ينقلنـا إلـى نقطـة خـارج قوقعـة العقـد وتجاذبات الأحداث.

تمسكت بالفكرة، بتُ أدور حولها كدبور يبحث عن مصل الغاية لنفسه. احتد الجدل في داخلي، ارتقيت أفق الظن، تبلورت الفكرة في الذهن، أضحت كشمس تضيء ظنوني، فتراءى لي الهدف قريب المنال، كاللحظة المارقة بين الرمش والعين.

لم أكن على يقين من نجاح المهمة، لكنها كانت محاولة لإنقاذ ما تبقى من حلم. لذا تركت قرار الهجرة معلقًا على غابر الزمن، تجلده الأيام والشموس، حتى استوت الفكرة.

لم يكن القرار سوى خرفة أحلام طرأت على نافذة البال، حينها سجى القلب على بساط الشوق، في خضم مدارات الخيال. عندها ركبت مركب الجنون والمحال، تاركًا خلفي سارية القدر تعبث بها ريح الأهواء، متأملًا أن أجد ملاذًا آمنًا خارج متاهة الوطن.

كانت الحياة قد خرفت وتقرّحت فأصفرت أوراقها داخل سور الوطن. فالمساند التي كنا نستند إليها صدأت وتآكلت، لم تعد لها دور في بلورة الحياة، ولم أفكر بأوداج السفر إلا بعد أن لسعت النار أصابع القدم. بدت الفكرة كندبة طفحت في وجه الحياة، شوّهت صورة الغد في ذهني. شرعت اسير خلفها بصمت وقناعة، وأنا مكبّل بصبرٍ مرير يشقيني.

من تلك اللحظة، صرت أنظر إلى الومضة المتخفية خلف السدم بأمل ويقين، عسى أن تعيد لي ولعائلتي الابتسامة

الدافئة. لقد فاض عنادي حتى فاق طاقتي، ولم أجد عناءً في مركب الإبحار يشكمني، سوى فراق زوجتي الحبيبة والوطن.

كنت أجلد الفكرة بالفكر، والشك باليقين، حتى أبيضّت صفحة الغد في نظري، وغدا لونها قريبًا من لون الحلم الذي أبتغيه. هجست بقرب ولوج الصبح. عندها دعكت الصبر بالصبر حتى رقّ ملمسه، صارت الفكرة تحاصرني من كل الجوانب. أحيانًا أهجس بها طينًا لازبًا تحت قدمي، وأحيانًا مسامير صدئة في ذاكرتي، كأنني أخطأت في اختيار القرار.

كانت عملية الفراق والشوق معقّدة، أضحت بالنسبة لي أشبه بعملية التركيب الضوئي للنبتة. حيث ولّد الفراق فراغًا فكريًا وعاطفيًا بيني وبين زوجتي، كما ولّد الشوق فواصلا حاصرتني في زاوية الغربة، وكأن الكون كله يقف على وتد تلك العلاقة التي تجمعني بها.

هكذا تدحرجت حلقة الزمن أمامي، وأنا أتبع استقرارها دون أن تستقر، ودون أن أمسك بتلابيب اليقين. يومًا بعد يوم، ازدادت تقرّحات شكي بالقرار، وكأن المسافة اتسعت بين الحلم والواقع. صارت تزداد شسوعًا مع اللحظة المارقة، فتزداد غموضًا مع شروع الخطوة في تطبيق فكرة الهجرة. ومع تداول الأيام، دخلت الأمور في نفق الحرج، حتى اسودّت صفحات الزمن في نظري.

وإليكم أصل الحكاية... مع الأيام.

3- قصة السفر

كنتُ قد أنهيتُ لتوّي إجراءات تصديق جواز خروجي من مطار أبوظبي، وذلك بختم الجواز بختم إذن المغادرة، صادف ذلك اليوم السبت 2015/9/20. اتجهتُ إلى صالة الانتظار وجلستُ في أحد جوانبها على كرسيٍ خشبيٍ منفرد، منجّدٍ بأجود الخامات، منتظرًا لحظة ولوجي إلى داخل الطائرة. وما إن مرت الدقائق، حتى اكتظت الصالة الواسعة بالمسافرين، ولشدة الزحام امتلأت الكنبات والكراسي عن بكرة أبيها، بحيث نادرًا ما تجد فيها كرسيًا أو مقعدًا شاغرًا.

كان المنظر، إلى جانب السجدة الأخيرة التي يختلج بها السفر، هميمًا من وجهة نظري، دبقًا، ثقيلًا، تراخى فيه صمتٌ مدقع، أوطن مخالب الشك في أدمة الذاكرة، وأصاب رقائق الصبر بصدى العناء والملل، نتيجة فراقي لغاليتي، حبيبتي، وزوجتي.

لحظات صمتٍ وسكونٍ حملت في أسفارها الكثير من الغيض والفيض، اهتز لها العقل والبدن، بحيث شطّت الروح عن الفكرة، صرتُ أهجس بذاتي تهرب من ذاتي إلى حيث التيه والخواء، تحتضر، وفي ظني وضميري يخفق هاجس غياب الحبيبة. حينها سهوتُ في أتون الفكرة التي أبغي تطبيقها دون إرادة مني، ألا وهي البحث عن مأوى جديرٍ يلمّنا، عن استقرارٍ حميم في جوف الغربة...

بتُّ أعيش صراعًا بين واقعي التعيس وحلمي الرغيد الذي أتأمله، وقد وجدتُ دوافع داخلية تشجعني على تجاوز عقدة السفر بشيءٍ من التضحية والنسيان وعدم المبالاة، لتأمين خط المستقبل الذي أراه قد انقطع دابره في وطني، وأضحى خطًا أجوفا، دميمًا، لذا بتُّ أبحث عن بديلٍ له في جوف غابةٍ مجهولة.

وأنا في تلك الحيرة من أمري، كان قد شطّ الذهن بين تلك الوجوه المارقة أمامي ووجه زوجتي التي كنتُ قد فارقتها قبل سويعاتٍ فقط، إذعانًا لصوت الغد الذي بات يصرخ في

دواخلنا، إضافةً إلى القلق الذي اعترى ذهني من عدم إمكانية العودة للوطن مستقبلا، على الأقل في الزمن القريب الآتي.

ذلك القلق أرعبني، أصبح له مخالب ذعر، صار كجرس الجداء معلّقٍ في عنقي، يذكرني بأمسي وبمجهولية غدي، دون أن يهدأ ضجيجه... هكذا لاعت أذنيّ جلجلة صداه، صار لذلك الصوت لثغة في النفس واللسان، أغشاني بالوعثاء والعناء والقلق وعدم الاستقرار، حتى وأنا جانحٌ خارج حدود الوطن.

حينها كنتُ قد حجزتُ تذكرة سفرٍ على متن طائرة الإيرباص إلى إسطنبول، والمحددة كرسيها بمقعدٍ برقم 23 من المقاعد العامة، والذي موضعه يتوسط الطائرة، قرب النافذة من جهة القلب.

خلال فترة الانتظار في القاعة، لمحت سيدة ثلاثينية، رشيقة، فاتنة، جذابة، تتنقل بخفة بين أرجاء الصالة، تهجس بها شبقة، غرة، مغنجة بالسحر من رأسها حتى أخمص قدميها. بمفاتنها، هجست بها نسخة كربونية طبق الأصل من زوجتي.

بـ طلتها ومفاتنها، ضاهت فتنة زوجتي من حيث الشكل والقوام، فلفتت انتباهي من بين جميع النسوة اللاتي دخلن الصالة دون قصد. لأناقتها وحسن قوامها، استقطبت أنظار الجميع؛ حتى خلتها زوجتي، لما بينهما من شبه كبير وتناسق مبهر في الهيئة واللباس، وحتى في قسمات الوجه والسن، وكأنها توأمتها.

شغلت تلك السيدة كرسياً قبالتي، فحفزت في نفسي شعوراً بالاهتمام بها، وكأنها الوحيدة التي ستسافر معي في الطائرة. مما جعلتني أصب جام همي وقلقي وولعي في كأس فتنتها، حتى أوهمت مشاعري بأنها زوجتي، فزادني ذلك إرباكاً ووهناً وإلحاحاً في معرفة هويتها. أغدقت في متابعة سطوع ذلك الألق بتركيز مفعم بزهدٍ مبالغ فيه، حتى حفظت جلّ ملامحها وثراء مفاتنها عن ظهر قلب.

هجست بذاتي قد ارتقيت سلم مشاعرها وهي تتصفح صحفها المغنجة بالفتنة، وبشيء من الرغبة والتأمل. ومع إلحاحي السليط، شَدتُ انتباهها، وكأنها رقت لملاطفتي ومشاكستي، وكأنها التقت نظيرها، جراء الوحدة والغربة التي شغلتنا. فباتت بين الحين والآخر تمحقني بنظرات خجولة، فيها "إنَّ".

من أول وهلة، مع دخولها الصالة، سحرتني بمفاتنها، وجعلتني أقارنها بقرينتي. خلتها هي ذاتها التي تركتها في البيت، قابعة بين جدران الوحدة والتأمل قبيل سويعات من الآن. للشبه الكبير الذي تطابق في اللبس والأناقة وتقاسيم الجسد والجاذبية المنبثة من قوامها الرشيق، حيث تملكت مشاعري دون غيرها من النسوة، ودون إرادة مني.

خلتها ذاتها جاءت تتعقب هوسي لتودعني، وكأن روحها تقمصت روح هذه الفاتنة لتتجسس على سلوكي وطيشي ونزواتي حتى وأنا بعيدٌ عنها. هجست بها قرينة زوجتي، تلبستها كجنية، تلك التي صورتها لا تفارق مخيلتي حتى وأنا

أدور بمرافق الوجوه التي أقابلها، حيث المرأة تبقى مرآة ذاتها وكيانها معلقة بروح زوجها وإن غاب عنها زمناً ما.

هكذا بدت لي روحها هفهافة تدور حولي، وأنا أحاول قضم تفاحة فتنتها المعلقة بشجرة ذاكرتي وهوسي ومخيلتي، لتخرجني من لجاجة غروري وزنقة حماقتي إلى جنتها الواسعة... هكذا وسوس لي الشيطان، وعسى أن تأخذ بيدي تلك الفاتنة إلى باحة جنتها الشيطانية، تعوضني فقدان زوجتي.

خلتها سمكة ترغ في شطآن صمتي، وعلى مرأى من عيني، وبمحيط قلبي، فتتبعت مسارها علني أصطادها، وعلها تنقذني من تهيؤاتي وتيهاني وانشغالي بفكرة الحلم والسفر والذي أبغي نيله.

هجست بها جاءت تعاقبني على وخم قراري، كطير استقرت على رأسي، لتسرق مني نزاهتي ووجاهتي إلى عالمها الداني، حيث تركتني أتطفل على أغصان مفاتنها، وأدور في فلاة سحرها، كقشة تلاعبت بها ريح عصفها. اشتطني من بين مخالب ذاتي، من ثنايا وخبايا جوائها وأشواكها، وبما لي من قيمة ورجولة ودين. كأني بذلك أدلق الود في أحضان زوجتي.

مالت نيتي لمحاولة جمع ثروة مفاتن تلك الجميلة من جهة، والحفاظ على الكيان العائلي المبجل من جهة أخرى، علني أعبر مجاز الغربة والعُقد، بحثاً عن وهدة استقرار وراحة بال تجمعني بزوجتي.

مـا إن جلسـت قبـالتي، حتـى هيجـت مواجـع القلـب بفـراق الحبيبـة، وجنحـت الـروح إلـى أتـون الـذاكرة، إلـى مهـاجع الـود والطيبـة، إلــى الشــهقة واللهفــة، إلــى تنهـدات الــروح ونبـذ عقـد الــوطن. أثـارت فـي الوسـط المشـحون ريـح الـود، تريـق مـؤثرات فتنهـا فـي صـحن الانتمـاء، ماسـت بهـا هـاجس الأسـرة بشـكل مباشـر، سـواء أبينا أم رضينا.

عنـدها جنحـت لتلـك الأماسـي مـن الصـمت والهـدوء والرجـاء التــي جمعتنــا علــى ســفرة الألفــة والــوداد، إلــى الضــحكة والنكتــة والنـزوة والشـك والعنـاد والعكـرات؛ نتيجـة ولعـي وجنـوني بهـا، وتعلقـي بسـر تلـك الأصـفاد مـن السـحر والأوتـاد التـي جمعتنـا، حتــى فــي مشــاكلنا ونزاعاتنــا وعراكنــا. أهجــس بهــا متجــذرة بأنفاســي، متعشــقة فــي مســامات جســدي وذاكرتــي، ذائبــة بروحي، لن تفارق وجدي إطلاقاً ولو قيدتنا الشدائد.

ذلـك مـا دفعنـي أن ألـوك ملعقـة الـود بكـأس رغـاء تلـك الفاتنـة، وجـدت روحـي تمـتط إلـى روحهـا، تتمـدد نحوهـا، وكـأني أُهـامس روح زوجتـي بملاطفتهـا. بـدت النظـرات تنغـرز كسـهام بسـحر مفاتنهـا، يـدي تحـيط خصـرها، دخلـت فـي متاهـة الشـك والعنـاء وأنـا امتطـي صـهوة الخيـال، بـل هجسـت بهـا قـد دخلـت فـي صـلب أحلامـي، طافـت فـي مـدار فكـري، بـتُّ أتبعهـا كطفـل يتبـع فراشـة فــي جنينــة، متــأملا أن أجــد فــي فتنتهــا حــلاوة فــاتنتي، أن أوقــد فتائـل صـبابتها ببريـق مـن قـبس وجـدي، لأرتـع بعذوبـة غنجهـا

وديباج أهوائها وقفطان قوامها، بتُّ أعرك ذاتي في خضم تلك الوقائع التي جذبتني لسرائرها.

وأنا أحاول أن أرغ ولعي بكأس فتنتها، كانت قد أصابت وجدي بسهامها، هجست بها تلاحقني سرًا بمفاتنها قبل أن أخطو خطوةً تجاهها. من خلال نظراتها التي أزفّت تحوك غايتها بين أحداقها، التمست مقصدها، وكأن روح زوجتي هي التي تتبعني بعد أن غشيت بثنايا روحها، أطرقت أذنيّ بصخب ذلك الصمت الدائر بيننا.

بذلك العناء المقسوم بيننا، جعلتني أسرح في فيض ذلك الألق المشع من وجهها، وبالجاذبية المراقة في ملامحها، والمراءة في تقاسيم الجسد والوجه بشيء من العجب والتحدي. للتناص الواضح والتوافق الحاصل بين فتنتها وفتنة زوجتي، وبذات القياس والبهاء، حتى أني هجست بذاتي مأسورًا بفتنة زوجتي دون شك.

وددت التقرب من تلك القطة الشيرازية الأليفة، النادرة، المشبعة بالأنوثة وجميل الطلة، بتّ أبحث عن فرصة تقربني منها، تقحمني في مجرى أهوائها ومحادثتها، لغرض تسليك الوقت القادم، والبحث عن سر لغز الشبه الحاصل بينها وبين زوجتي من جهة، ودرجة انحراف مؤشر عقربة ذهني لمتاهة تلك الفاتنة من جهة أخرى. رغم شرود فكري، تحزمت بآيات من القرآن الكريم، علّني أتخطى أزمة مشوار التلاقي معها بسلام.

ودون أخطارها بغايتي، تركت عيني تتلصص محيطها، وبما يمكن أن يشغلها، تركتها تستقطب الفرص المتدحرجة والمنفلتة من قبضتها، وبشيء من الرغبة والأناقة والعبثية. فلست ربيب تجارب، ولا حاذقًا بما يكفي لأتملص من قبضة أعين المتلصصين بها، لكني دخلت الميدان بشيء من البلاهة والحماقة التي ركبتني، متأملا أن تسنح لي فرصة حقيقية للتعرف عليها، لأعَشّق غايتي بتلابيب ديباجها.

كانت تجلس إلى جانبها امرأة عجوز شمطاء من جهة الشمال، ورجل أربعيني أصلع، يرتدي بدلة رمادية ونظارات سوداء يقبع يمينها، كأنه رجل مصدور.

لم أجد أية صلة تربطها بهم، لذا تركت أحداقي تحلق في فضاء تلك الفاتنة كيفما تشاء. ولكسر حاجز الجمود الحائل بيننا، خزرت ملامحها بجرأة، صرت أفاضل بين قسمات جسدها ووجهها بشيء من الشراسة والعبث دون حياء، حتى أني تعجبت كثيرًا من جرأتي ولجاجتي في تخطي الحدود المسموح بها، كريح ماجت في حقل مفاتنها صرت أعبث بتلك الأغصان دون أن أعير اهتمامًا لمحيطي من البشر.

وأنا في تلك الدوامة من العناء التي شاقتني، خلتها شمسًا تدور في فلكي، لما فيها من حيوية وبهاء والق، وكأنها صهرت ملامحها وصفاتها بملامح وصفاة زوجتي. خلتها جنينة ترتع بخواء أرض نضرة، كزهرة تجذبني لدفئها.

كـان علـيّ تتبـع حيثيـات مخارجهـا حتـى أدرك غـايتي، صـرت أدور حولهـا بتلـك النوايـا الخبيثـة وبشـيء مـن العنـاد والتطفـل، علَّنِـي أجـد لـديها مـا يعيننـي علـى تجـاوز حـدود الصـبر والوحـدة، علهـا تسـاعدني علـى عبـور حـواجز الـروتين وحقـول الشـك المائجة في حدقي.

فـي خـاطري اعتبرتهـا كتابًـا جديـدًا للولـه والفـتن بـتُ أتصـفحه بـنهم، لأسـرق منـه متعـة تغيثنـي بـاقي الطريـق، وتلمـع فكـرة الهجـرة فـي ذاتـي، لـذا صـرت أتبـع سـرها بشـغف ورغبـة وأنـا أسـير خلـف ذلـك الشـك مـن الغـي دون إدراك. ولكثـرة المعجبـين بهـا؛ اعتبرتهـا زهـرة توليـب تسـتقطب الفراشـات الحـائرة، فيمـا بـتُ أدور حولهـا كـدبور غلـس، لأزيـح تلـك الفراشـات ولأمـتص شيئا من رحيقها وأشم العطر المضاع.

ذلـك مـا كـان ظـاهرًا أمـام المـلأ، دون أن ينتبـه أحـدا مـنهم إلـى اللغـز الـدائر بيننـا والسـر الغـافي فـي جعبنـا، وعمـا يكمـن فـي نظرتهـا مـن مخاتلـة ظـن وشراسـة نمـرة، وهـي تتبـع مـآربي بـذات الكيفيـة التـي اتبعهـا، اهجـس بـذاتي المكبلـة بسـجنها يمامـة مسجورة بتلك الفتنة.

تلـك الحالـة مـن الطمأنينـة راغـت فـي داخلـي، جالـت فـي خـواطري، دعتنـي أجـدل الرغبـة بفتائـل عينيهـا الملظتـان، رغـم صـرير الفـزع والريبـة المـرّة التـي تصـدح مـا بينـي وبـين حبيبتـي، كهـاجس ازدراء وامتهـان للـذات يخنقنـي، لعـدم إيفـائي بالعهـد الذي قطعته أمامها على نفسي...

تلك القطة جعلتني أنسى ذاتي المتغطرسة، المدانة بمعاني العزة والعزلة، لأتعقب خطوط سحرها بذاتي المذعنة، الخسيسة، الملظة جوارحها أمام وجه ومعالم تلك الحورية، محاولًا اقتفاء أثر جنوحي في أنوثتها بأثر جنوحها في رجولتي.

هكذا جعلتني أنشغل بها، صرت أتبعها دون يقين، بتوافق رغبتها مع رغبتي، محاولًا إسناد ذاتي بذوات أخرى نائمة بداخلي أو متلبسة بها. أحيانًا أشعر أنني مركّب من عدة شخصيات، أينما وضعت نفسي تلبست الحالة والشخصية الجديدة. فهي جديرة بتقمص الحالة الطارئة كيفما تكون، تصلح لتمثيل الأدوار بجدية عالية.

أظنني بارع في مجال التمثيل، أتمكن من تقمص كل الأدوار وتقليد كل الشخصيات بحرفية. أجد في ذاتي تكمن شخصية الأستاذ والطالب والمتسول والمخمور والعاطل والمخبول والراقص والسياسي والمثقف والراقي والطفل والمرأة، كلها مجتمعة في نفسي الواحدة. فأنا ممثل بارع، أستحق جائزة الأوسكار. لذا كانت زوجتي تحتار في تشخيص شخصيتي المتقلبة، ذلك ما جعلني أطاوع هوى الظرف والأدوار المناطة إليّ، مع التحكم بتفاصيل الغاية المراد تصريفها، حتى أصل بذاتي إلى شاطئ الغاية برفقة من أهوى، دون كلل أو ملل.

لا أدري إن كنت مميزًا في هذا المجال بين البشر، أم أنها حالة اعتيادية تفسر خصائصي، أم حالة اعتباطية، غثيثة، مقموط

بهـا دون إرادتـي. ومـا تلـك التـي تعلقـت بهـا سـوى وسوسـة شـيطان، ذكّرتنـي بجنـوني وولعـي وهيـامي وغرامـي بزوجتـي، لـذا تماديـت فـي غيـي تجـاه تلـك القطـة التـي لا أسـتطيع فـك أنشـوطة عقـدها عـن سـاقيّ، لأنهـا تحمـل فـي غيّهـا جمـرات غـنج حبيبتـي، وكـل ظنـي أن أكـون جـديرًا بهـا، أن أستكشـف أسـرار تلك الفتنة وما يخفق خارج حدود فتنة زوجتي.

ذلـك الشـيطان القـابع فـي داخلـي، ذكّرنـي بلـون الشـبق الـذي لا تنطفـئ نـار جمـره فـي صـدري وحـدقي تجـاه حبيبتـي. لـم يكـن فراقـي لهـا فـراق وداع، قـدر فـراق حلـم وأنـاة ولقـاء، فـراق ذهـول وصـمت ورجـاء يغـويني. حيـث مـا فارقتهـا إلا لتجديـد لقائهـا، لأحتضـنها بشـبق يفـوق الـذي أكنـه لهـا، لأعـود إليهـا باشـتياق وسـحر يرفـأ جنـوني بهـا، لأعـيش بقيـة عمـري بـين خافقيهـا كـالحلم بـين الجفـن والحـدق، لأشـنّف أذنيهـا بخُلـدٍ مـن الـود والهيام والشبق.

كنـت قـد تركـت زوجتـي تعمـل فـي وظيفتهـا كشـعلة لا تنطفـئ، منشـغلة بفتـرة الإعـداد والتكـوين الفكـري للتلاميـذ، فتـرة حرجـة مـن التوافـق والترتيـب، لا بـد لهـا مـن أن تـتمم مشـوار ألقهـا التعليمـي، حيـث لا ينبغـي أن تتـرك فراغًـا فـي أذهـان التلاميـذ والإدارة لتكـون برفقتـي. لأن المبـدأ مصـون، والغايـة لا نـود أن نشـيح عنهـا لغايـة. حينهـا تركتهـا عصـية علـى الـزمن، حتـى يعـود بنا الزمن إلى أبجدية الحياة بروح جديدة.

تلك القطة كانت ترتدي نظارة شمسية صفراء اللون، وما إن رفعتها عن عينيها العسليتين، حتى فاضت بواحة سحرها على محيط الوجنتين، رفلت فضاء وجهها بفتنة غاية في الألق والجمال، كإسهاب فتنة عيني حبيبتي حين توضِئ وجهها بفيض السحر وأنا في كنفها.

عيناها المشعتان، طفقتا تلمعان في وجهها بسحرٍ غريب، أضاءتا مساحة الحسن من الوجه. تلك العينان تراءتا كقمرين انبثقتا من خلف سحب جفنيها، سهدتا معالم الوجه بفتنتيهما، ذلك الوجه بان أشبهه بقرص خبز صباحي محمّر بالجاذبية والملامح المغنجة.

بالتفاتها يمينًا وشمالًا، هجست بها تبحث عمّن يعينها، عن وجه تألفه يزيح عنها شبح الوحدة، ربما تبحث عن الحرية بين معتركات العيون المبحلقة بمفاتنها، لملاحقة ما تجرأت به في مشاغبتي. هكذا خُيّل إليّ المشهد، وهو ما جعلني أتبع سر نجواها.

باهتمامها بنفسها، أبدعت في تسليس مكياجها، أراقت الشفاه بمسحة شفيفة من حمرة وردية لاذعة، ضاهت بها رقة الأنف المغنّج بالشموخ والألق، ليسطع كمرفأ شاخص على مساحة الوجنتين ببهاء الشفق.

بحذاء كعبها العالي، ارتقت بطولها مقاس طولي في القياس، كما كانت تحمل في يدها حقيبة جلدية نسائية سوداء اللون،

وضعت فيها مرآة صغيرة، وأقلام مكياجها، وهاتفها، وحافظة نقودها، وجواز سفرها، ذلك ما تبين لي فيما بعد من خلال استعمالها ومراقبتي لها عن كثب.

شعرت بأحداقي لا تشذ عن فتنتها قيد شعرة، حتى أني توجست خيفة من ملامة المحيطين بها، أو من مراقبة أمن المطار لي، خاصة أن الأسقف مزروعة بشبكة عنكبوتية من كاميرات المراقبة التي تحرس المطار من العابثين والمتطفلين، تتوجس كل كبيرة وصغيرة لا توائم الطبيعة المرادة. وأني بذلك كنت قد تجاوزت الحالة المألوفة، كأني أرسلت لها رسالة تحرش واضحة، وعلى ما أظن قد تلقتها وفهمتها، وإن كانت لا تظهر مبالاتها علنًا.

كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق من النوع المطاط، كما كانت ترتدي بلوزة جرسية فضفاضة سوداء اللون، تحلق رقبتها قلادة ذهبية، تُعشّق أذنيها بأقراط دائرية ذهبية. وكان شعرها الفاحم مسرّحًا فوق كتفيها بتدرج سلس كشلال يرتقي طيات الجسد، أشبه بشعر فرس جامحة.

مع أني لاحظت فتاة أخرى كانت تجلس على بعد خمسة أمتار تقريبًا إلى جانبها الأيسر، تكمن في ساقيها المعرتين فتنة سليطة تشذب النظر، إلا أنني لم أنجذب إليها لعري ساقيها، لانشداه بالي بتلك القطة الشرسة، ولتقارب ملامحها من ملامح زوجتي، ولكراهيتي صفة العري عند النساء من جهة أخرى.

تلـك المُشَّـرحَة لفتـت الأنظـار بتنورتهـا القصـيرة عنابيـة اللـون ذات الحـواف المتهتكـة، وقمـيص أبـيض نصـف كـوم مفتـوح الياقـة، يكشـف جـزءًا مـن بشـرة سـمراء لا يمكـن تجاهـل الزبـد المـراق مـن الجاذبيـة عليهـا. جلسـت وكأنهـا لا تعبـأ بمـن حولهـا، واضـعة السـاق فـوق السـاق دون اكتـراث وهـي تعـرض فتنتهـا بشراسـة واضـحة، وكأنهـا تتقصـد فـي اسـتدراج نظـرات مـن يجلس حواليها.

لـم أكـن منجـذبًا لهـذا النـوع مـن النسـاء، بـل كنـت أسـتنكر هـذا التبـاهي بالجسـد، ومـع ذلـك، وجـدتني أتأمـل تفاصـيلها، مـدفوعًا بفضـول لا يخلـو مـن التنـاقض. أردت أن أرى وجههـا، لأقـارن بـين فتنـة الجسـد وملامـح الوجـه، لكـن شـعرها الكثيـف المجعـد، المصـبوغ بالأوكسـجين والمكـور ككـرة لعبـة السـلة، كـان يغطـي معظم ملامحها، يمنعني من التحري بمفاتنها.

انحرفـت بنظـري قلـيلاً لأراقبهـا بنصـف عـين، وبالنصـف الآخـر أتـابع القطـة الشـيرازية الجالسـة قبـالتي، تلـك التـي شـغلت بـالي بجمالهـا الهـادئ وأناقتهـا التـي ذكّرتنـي بأناقـة زوجتـي. لـم يكـن الأمر اشتياقًا، أنما فضولًا لغرض المقارنة فحسب.

وفجـأة، التفتـت الفتـاة نحـو القطـة، وكأنهـا هـي الأخـرى تبحـث عـن انعكـاس لفتنتهـا فـي عيـون الآخـرين. مـا أن رأيـت وجههـا يتـدحرج خـف وهـج الجسـد، حتـى أصـبت بسـهام القـرف، للتنـافر الواضـح بـين قـبح الملامـح وجاذبيـة الجسـد. كـان وجههـا عبـارة عـن شرشـرة ألـوان غيـر متناسـقة، يوسـطه أنـف كبيـر بـارز، وفـم

مشـروط لغايـة الأذنـين، وعينـان زائغتـان فـي كـوة كجحـور النمـل. وكـأنَّ الـرأس لا يخـص ذلـك الجسـد المفعـم بالأنوثـة، وكأنهما من عالمين مختلفين.

بالتفاتها كـان قـد زاغ بصـرها بمفـاتن القطـة، مثلمـا زاغ بصـري فـي تقاسـيم وجههـا دون أن أجهـد ذاتـي، وكأنهـا هـي الأخـرى فتنـت بمفـاتن القطـة، أو وجـدت فـي الصـالة مـن تنافسـها، لتلـتمس حجـم الفـارق بـين مـا تملـك مـن فـتن ومـا يغشـي القطـة مـن ألـق وبهاء.

لا أدر لـم القبيحـة مـن الفتيـات تحـاول أن تسـتقطب الرجـل بمفـاتن الجسـد، حيـث الشـاب لا يجـل مفـاتن الفتـاة المنزوعـة الحيـاء، فالرجـل يبحـث فـي المـرأة عـن القيمـة قبـل الفتنـة، ألا أذا ود التسلية بها، بذلك تخسر ذاتها دون أن تدرك.

لـذا غضضـت الطـرف عنهـا، عـدت أتأمـل القطـة التـي شـغلت بـالي، كونهـا أدرجـت ذاتهـا فـي سـجل حسـاباتي العقليـة كقرينـة لزوجتـي. نسـخة طبـق الأصـل يمكـن أن اسـتعملها فـي دوائـر فكري بطيب خاطر، وكأني برفقة زوجتي.

لـم يطـل انتظارنـا فـي صـالة المطـار، إذ نقلتنـا الحافلـة إلـى سـلم الطـائرة. ومـا إن جلسـت فـي مقعـدي وعينـي تترقـب صـعودها، حتـى رأيتهـا تتجـه نحـوي مباشـرة، تطلـب منـي أن أفسـح لهـا المجـال لـتجلس بجـانبي، فـي المقعـد 24 المخصـص لهـا قـرب النافذة.

قالت بلهجة عربية مكسّرة:....

– صباح الخير.

أدركت أنها ليست عربية الأصل من لفظها، فرددت:..

– صباح النور والسرور... ما شاء الله، تتكلمين العربية؟

– عشت في أبوظبي فترة، وتعلمت القليل. أنا من أصل تركي.

– يا أهلاً وسهلاً، تشرفنا بك. وهل ستعودين إلى أبوظبي؟

– لا، انتهت مهمتي هناك. كنت منتدبة في ملحق السفارة التركية، وسأعود إلى أنقرة لأباشر عملي فيها.

ونحن في الأجواء على ارتفاع ثلاثين ألف قدم نحلق كالطيور العابرة للقارات، بدأت الألفة تنسج خيوطها بيننا. صرنا نتهامس دون كلمات، تلاقت النظرات، تشابكت الخواطر. شعرت بأنفاسها تختلط أنفاسي، وأن شيئًا ما يتشكل دون قصد، دخان شبق بات يتراقص في الوسط كأفعى تلتف علينا. صار النبض يشتط في البطين، حيث انغمسنا في أتون الألفة دون تكلف، اندمجت خواطرنا بسرعة الطائرة.

عندها تصفحت مجلة "زهرة الخليج" والتي كانت موضوعة في جيب المقعد أمامي، قرأت لها مقالًا عن الفوضى الدائرة في سوريا والعراق، وعن تدخلات تركيا في الشمال السوري. دار بيننا نقاش سياسي، رغم صعوبة تعبيرها، لكنها أوضحت

رفضها لسياسة بلادها الخارجية، التي تراها سببًا في زعزعة أمن المنطقة وخلافها العقائدي مع دول الجوار. إلى ذلك من أطراف الحديث، فقلت لها:...

- يبدو ذلك السلوك لا يطابق المنهج المعلن والشعارات المرفوعة كدولة إسلامية. ففي الوقت الذي به تسعى إلى رفع راية الإسلام فأنها تتدخل في شؤون الدول الإسلامية كالعراق وسوريا وتسعى إلى خراب ليبيا ومصر وزعزعة أمن الخليج العربي واليمن، إلى جانب ارتباطها بعلاقة وثيقة بإسرائيل.

بدت توضح لي المعمعة في تلك التناقضات والتي أدخلت تركيا ذاتها في نفق ضيق، فوجدت في فكرها رفضا لسياسة بلدها، والتي جعلتها أمريكا عصاها لتهش بيها الغنم. رغم صعوبة تعبيرها إلا أنها تمكنت من أبداء رأيها المعاكس لسياسة دولتها.

كانت لتلك النزوة التي غصنا بها أثر في إذابة الجليد بيننا. شعرت بأنها تقترب من خطوط هواجسي، وكأنها لانت لرغبتي وسكرت بمسكرات كأسي، حيث وجدت فيّ ما كنت أبحث عنه فيها.

بعد ساعة من التحليق، غزتنا تلكم الفراشات من المضيفات بما أن أحضرن لنا وجبة الطعام. والتي كانت عبارة عن

شريحة لحم مع سلطة خضار ومغرفة من الرز، وكأس من العصير وآخر من الفودكا.

كانت الأجواء هادئة جدا، والذي يجلس يميني كان قد استسلم لسلطان نومه بعد أن تناول وجبة طعامه، أغشاه الكرى، فشعرت بحرية أكبر في الحديث معها. عندها قضيت لحظات دافئة، امتزج فيها الشبق بصمت الدائر في الطائرة بألفة الأرواح، لتأخذ الرحلة منحا آخرا لا تشبه بدايتها.

استغليت الألفة فمددت يدي حتى لامستُ يدها، فشعرت بدفق حرارة تسن عروقي، لما فيها من توقٍ قديم جال في خلدي، تركت أثرا كلسعة عوسج، جعلتني أتمادى في غيي، لذا تركت يدي تنغمس في سحر اللحظة، وكأنها هي الأخرى هجست بذات اللسعة والرغبة والفضول واللهفة.

بتوافق رغباتنا، كأنها رفعت حواجز الكلفة التي كانت تمنع تفاهتي من أن تسيح على كرستال مفاتنها، بمداعبتي ذيل عقربة تلك المفاتن وثلب المحاسن في ثناياها، ارتقت بمشاعرها لمشاعري، غدت بين يدي تنبض كقطعة اسفنج تمتص أرقي.

لم تعترض على سلوكي الوقح السافر في مخاتلتها ومحاباتها، لم تنزعج من شراسة غيي في مغازلتها، حيث تمادت يدي بعبثها لتلامس جلد فخذها، لتزحف فوق تلك المفاتن بشيء من

البلـه والهـوس. فيمـا يـدي الأخـرى عصـرت كفهـا، لتتقطـر رقتهـا كآهات صب من أنفاسها.

مـا أن تراخـت حتـى لانـت لمطاوعـة عصـفي، أحمـرت وجنتاهـا، تحسسـت مـا يجـول فـي فكـري وخـاطري، بمجسـات الأنوثـة أدركـت غـايتي، التمسـت حـرارة أنفاسـي، صـار صـدرها يتـدفق كبركـان يلفـظ شـواظه، حتـى أخضـلت مجـانتي، فأيقظـت بجوارحهـا الملظـة سـنابل جـوارحي. لـم أعـد أقـاوم الصـبر، ملـت نحوهـا كغصـن لا يقـاوم عصـف الـريح. لتلتقـي عينـيَّ بعينيَّهـا، فقلت لها برقة المتأمل والمتهور:....

- أنت جميلة يا فاتنة..

ردت بصوت خافت:...

- أنا أسمي سهير.....
- عاشـت الأسـامي، اسـمك مـرتبط بالليـل والنجـوم والقمـر والسـهر والخيـال، مـن يسـمع أسـمك؛ يغـرق فـي شـجون الوحدة والخيال..
- آه كـم ترتقـي شـاعريتك الفياضـة لإحساسـي، شـكرا لـك لأنك جعلتني أتغنى باسمي.... وأنت بم تدعى؟
- أنا أسمي عامر، عامر الطائي...
- وأنـت يـا طـائي؛ بوسـامتك وجرأتـك شعشـعت فكـري، شـكرا لإعجابـك بـي، ولا أخفيـك سـرا، أنـا مطلقـة، تزوجـت قبـل سـتة سـنوات، ولـم يـدم زواجنـا سـوى سـنة

فقـط، ثـم عصـفت تيـارات الأضـداد بخيمتنـا، فثـارت المشـاكل بيننـا ثـم أزفـت بنـا إلـى وحـل العقـد، ممـا اضـطررنا إلـى الرضـوخ لقـرار الانفصـال... والحمـد لله لـم يكـن بيننـا مـا يمنـع الانفصـال، ربمـا كـان عـاقرا بذاتـه، أو أنا عاقرة، حيث لم نجرِ اختبارات بهذا الشأن....

- هل كان زوجك إنسانًا؟....

ضحكت، ثم تساءلت بدهشة:...

- ماذا تقصد؟.....
- هل كـان يقـرأ أحاسيسـك ومشـاعرك؟ هـل فهمـك؟ هـل قـرأ صـفحتك؟ هـل أدرك لغـزك كـامرأة ومـا فيهـا مـن بـراكين خاملـة تحتـاج لمـن يثيرهـا؟، هـل فهـم جدليـة العلاقـة بـين الرجـل والمـرأة ليتـرك جـوهرة ثمينـة بحجـم الكـون تنـزف فتنة بين أعين الوحوش الكاسرة؟
- اشـكرك ... بصـراحة كـان مشـغولا بعملـه لا يهـتم لهـذه الامور.
- لا يستحق وجودك في حياته، لأنه لم يقدر فتنتك.
- هذا هو النصيب، إلا تقدر النصيب؟
- بـلا ولكـن مـاذا أقـول لعبـث الـزمن؟ مـع أن حـالي لا يختلـف عـن حالـك، لجعجعتهـا وطـول لسـانها طلقتهـا. لـم تكـن غـايتي ولا مرامـي، جعلتنـي أعـيش الوحـدة وهـي معي في السرير.
- هههههه بعض النساء لهم غايات لا تدرك...

لقد أغرتني بفتنتها فسايرت أهواءها حتى لانت وتلاشت الحواجز بيننا، وبدأت تتكئ على كتفي، تهمس، تضحك، تبوح بغايتها. شعرت وكأنني أرتع في دفء أنثى افتقدتها، كأنني استعدت شيئًا من حلاوة زوجتي التي هجرتها.

ما أن قبلت كف يدها حتى مالت نحوي، أحاطتني بذراعها، واضعة رأسها على كتفي، لتلتقي العيون في منبع الشوق، فما كان مني سوى أن أطبق شفاهي على أسيل خدها ومن ثم على جمرة شفتها، لأطبع القبل هنا وهناك، فيما يدي اليسرى قد غارت في ثنايا الشعر، لتحني رأسها على صدري وتطبق الشفاه على بعضها في مشهد يدنى له، تركت روحي تغوص في أعماق الفتن تبحث عن اللؤلؤ والمرجان.

في انحداري لضفتها كأني ركنت ذاتي في وهدة أحضان زوجتي، فلم أهجس بغرابة الموقف والسلوك، حتى تخطيت حاجز محيطي وما يدور فيه من لغط وكأني ارتع بفرشتي وسريري، جعتها كقطعة سكر مراغة في كأسي، ايقظت زغب مشاعري لأستشعر بذكوريتي مثلما شحنت جمرة انوثتها، كأنها كانت عطشة لقبلة رجل ولخشونة رجل وهي تترجم لي معاني أنوثتها.

كانت لحظة اندماج، لا تشبه واقع الذين من حولي، ولا تنتمي للزمن. بها شعرت وكأنني أقبل زوجتي، لا امرأة غريبة. تداخلت الصور، تاهت الحدود، غرقتُ في بحر من

التناقضات، بل هجست ذاتي سقطت في مستنقع الخسة والنذالة والخيانة حين هزني الورع في نهاية المطاف..

بقدر ما ندمت على فعلتي، بقدر ما استلذذت بفتنتها، هجست بذاتي حرة في سماء الوله، كأنها خرجت من جنة التقوى لتدخل جنة الإغواء والشهوات والموبقات، بقيت اتنزه في تلك الأجواء فترة من الزمن لن تحسب بالدقائق وانا مغمض العينين اسبح في بفضاء من الخيال، بعدها عدنا نستلذ بالحديث، لكن في واقع نفسي تناقض المشاعر وصل حده، بين عناء يقايض خيانة، وفتنة تجرني لوهدها.

طوال تلك المدة لم أهجس بها غريبة قط، إلا بعد أن غرقت بفيضها، وما كنت أنغمس بفيضها لولا مشاعري التي صورتها لي زوجتي، وكل ظني أنعم بأسيل خدها وشفتها، لذا تدفق الدم في الفؤاد وفي عروق قضيبي الذي ضايقني، حتى أني لم أدر متى أنتهى بنا المطاف، متى همدت اللحظة، وسكنت الأنفاس، وكأن شيئا لم يحصل.

كل ذلك المشهد حصل قبل أن يفيق صاحبنا من سباته، وقبل أن ينبهنا القبطان بضرورة شد الأحزمة لنستعد للهبوط. ما أن شحنت ذاتها وتشبعت عاطفة؛ سحبت يدها من خلف ظهري، عادت إلى جلستها الاعتيادية شاكرة تحرشي بها. باتت تبتسم مع شروع الطائر في الدوران والهبوط، حيث قالت:

- شكراً على قبلتك، كنت رجلاً حقيقياً.

عندها همست لها:

- وأنت كنت لبوة شرسة، فيك حيوية وشبق غريب، يجب أن نتبادل أرقام الهواتف قبل أن نفترق، يجب أن نلتقي في إسطنبول، علنا نكتب مستقبلا جديدا لنا.
- وهو كذلك سنمضي في خروجنا معا، وستكون ضيفي الليلة.
- وهو كذلك...

حتى أني لم أدرك لحظة الوصول التي دامت ثلاث ساعات ونصف إلا حين حثنا قائد الطائرة إلى ضرورة ربط الأحزمة، عندها صارت الطائرة تدور حول مطار اتاتورك وهي تبين لنا أفاق المدينة الجميلة، شعرت باختلال ضغط الدم وانسداد طبلة الأذن كما شعرت خلال ارتفاع الطائرة.

ما أن هبطت؛ حتى خرجنا معًا. صفت في طابور المواطنون وصفيت في طابور الأجانب، كانت إجراءات المواطنين أسرع من الأجانب، لذا ختمت جوازها قبل أن أكمل إجراءاتي - توقعتها تنتظرني بعد ختم الجوازات، لكنها اختفت في مرافئ الشك. وأنا أبحث عنها في صالة الانتظار دون أن أحظى بظلها؛ وبعد عناء رن هاتفي، وإذا بصوتها المنغم يخرج من الهاتف كطير يرفرف في فضاء ظني وهي تهمس في أذني قائلة:...

- يا وائل، في المرة القادمة لا تجازف مع امرأة، لا تنسَ أن تأخذ حافظة نقودك من الاستعلامات... ومع السلامة.

تحسست جيبي، فلم أجد الحافظة. كأنها سلتتها مني في لحظة الاندماج والغفلة وأنا غارق في بحر شفتيها، في لحظة انبهاري بأنوثتها، لحظة عبث، كلفتني ألف وسبعمائة دولار كنت أحتفظ بها في الحافظة.

لم أحتار في كيفية معرفة أسمي، سلتت المال وتركت هويتي وصورة زوجتي، وكأنها أرادت أن تذكرني بمن أنا، وبمن كنت حين رافقتها.

حاولت الاتصال بها، لكن الرقم اختفى من الشبكة، كأنه لم يُعَد سوى للحظات فقط. أدركت حينها أنني لم أكن صيادا، بل فريسة. وأن سهير لم تكن سهير، بل امرأة عابرة، لقنتني درسًا قاسيًا في فن الخداع، وفي هشاشة العاطفة حين تسبق العقل.

ضحكت على نفسي، على نزوة دفعت ثمنها ألفًا وخمسمائة دولار، وعلى قبلة كلفتني أكثر مما توقعت. وعدت إلى ذاتي، إلى وفاء زوجتي، إلى نضوجي الذي تأخر كثيرًا خلال رحلتي، تاركة في جعبتي عصاها لتؤدبني بها إذا لانت نفسي وانحرفت تجاه حواء جديدة.

4- القوقعة

وأنا خارج من المطار باتجاه مرأب العجلات، صادف أن تتواجد قربي تلك الفتاة المعرة، هجست بها في حيرة من أمرها، لذا سألتني أن كانت لي دراية بإسطنبول لاصطحابها معي، فقلت لها:....

- تفضلي أية خدمة؟
- ممكن أن أصحبك لمركز المدينة؟ فأنا لم أزر اسطنبول من قبل.
- لا ضير في ذلك على الرحب والسعة...

حيث وجدت فيها فرصة إذابة شحوم شجن تركته سهير في داخلي ووصفة روتين أعالج بها جواء الوحدة، متأملا نسيان احتيال سهير وما تركت في نفسي من غثاثة رعناء جراء فعلة

السرقة، راجيا تسلية ذاتي مع هذه المعرة قبل توجهي إلى مأربي في رحلتي القادمة المجهولة. كانت قد جذبتني بثأدة أفخاذها وسمرة بشرتها، كأنَّ سهير هي من فرضتها على ذاتي لأنسى مصابها.

بصراحة بعد أن طلبت مني ذلك، هجست في طلبها رجاء ود و بلسم جراح لضماد ما تركته سهير في داخلي دون تقصد، وعسى أن تشطب فعلة سهير وغثاثتها من الذاكرة، لأتخطى حاجزها المعيق.

بدخولي صفحتها كأني شطبت صفحة سهير وشخابيطها من سجل الذاكرة، لأبدأ صفحة جديدة مع ذاتي الخفاقة. لحظات عصيبة جرت بسرعة دون ترتيب وتركيز، بلورتها الفرصة لانتشال إرادتي واستعادتها قدرتها البربرية على مصاحبة النساء دون أن استطيع استعادة قدرتي على إيفاء ذاتي هدوئها وقيمها وحفظ العهد الذي قطعته على نفسي مع زوجتي.

جرت الأمور بعبثية، هجست بلحظات مرة وهي تخال ذهني بعد أن تركتني تلك الثعبان اتقلب بمواجع لدغتها، باختفائها تركت مرارة على الشفة ووجوم في الملامح، جعلتني أركن ذاتي في زاوية الوحدة، خارج أدراج النساء قاطبة. كأني باصطحاب تلك المعرة وددت إعادة الثقة لنفسي، لأعيد الذات لمكانتها الطبيعية التي افتقدتها..

حيث عقدة سهير لغلها أضحت كوشم ثابت في فكري، لن يزاح عن بالي قط. سهير التي شغلت فكري وقوضت رغبتي كانت قد سلبت فكري ومشاعري وقوتي ومالي في ديار الغربة على حين غفلة، وهي من وضبت ذاتها كعصا ضمير تربك بها ذاتي.

مسكت يدها ودلفنا إلى المرأب لنستأجر عجلة تكسي لمركز المدينة، وبالذات إلى فندق ميرديا في وسط إسطنبول... حيث ما أن لمست كفها؛ حتى هجست بخشونة تحفر راحة يدها، كأني لمستُ يد فلاح أشقاه الكرب، لكنها لم تحرف فكري عن الغاية التي اتقدت في ذهني وبالذات في النية التي تكورت على تلك البشرة الجذابة، والتي انتقدت بزناد تلك السمرة. لما لها من ثأدة ساقين مغنجة بالألق.

خلال الطريق دار حديث بيننا حيث قالت:....

- أني كنت جالسة خلفك بمقعدين في الطائرة.
- لم انتبه على وجودك..... هكذا اجبتها.
- لأنك كنت منشغلا بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تجلس إلى جانبك.
- ربما.
- لمَ لمْ تنتظرك بعد الوصول؟..
- لم يكن بيننا موعد مسبق، ثم زوجها كان ينتظرها في المطار.

هـزت برأسـها بـين مقتنعـة وبـين شـاكة، ولكنهـا بقـت بكياسـتها تنتظر المصير القادم دون أن تبدي أية مبادرة من قبلها.

إذا كانـت تجلـس خلفـي وشـاهدت تفاصـيل مـا جـرى مـن ود وتهـامس بينـي وبـين تلـك السـاحرة (سـهير)، تلـك التـي تأملتهـا وقارنتهـا وشـبهتها بزوجتـي وحبيبتـي صـدف. أي أنهـا راغبـة فـي تكملـة المشـهد الـذي تخلـت عـن تكملـة أدواره سـهير علـى حـين غفلـة. إذا لابـأس فـي ذلـك، رغبتهـا تطـابق رغبتـي وأن كانـت الـذاكرة لازالـت خـائرة فـي مرافـق فـتن سـهير. ربمـا اصـابتها الغيـرة، فأتحفـت ذاتهـا لتكمـل لعبتهـا، أو أصـابها مـا أصـاب سـهير بتجريدي من جيبي وقيافتي؟؟؟؟.!

هـي لا تختلـف عنهـا مـن ناحيـة الجسـد، لكـن ملامحهـا لا تـوائم لطافـة جسـدها، حتـى صـوتها تهجـس بـه يغـق بنغمـة الـدو الخشـنة، فدرجـة صـوتها أقـرب إلـى درجـة الاوكتـاف الذكريـة مـن نغمـة السـوبرانو الأنثويـة المتبعـة فـي السـلم الموسـيقي. فيمـا طولهـا وبـروز صـدرها وتكـور عجيزهـا وطـراوة السـاقين المغنجـة تفـيض بحيويـة أنثـى مـع خشـونة لاصـقة فـي القـوام كطـابع بريـدي. أنهـا حقـا مـن هـذه الناحيـة مثيـرة، تلفـت الانتبـاه. حينهـا ومن باب المجاملة سألتها:....

- لم أتعرف على اسمك ومن أي بلد؟
- أنـا مـريم، أمازيغيـة مـن المغـرب، لـي فتـرة شـهرين أعيش في ابوظبي... وأنت، ماذا عنك؟
- أنا سعيد، تاجر من اليمن.

- سعيدة بمعرفتك يا سعيد، أهجس باسمك يطابق طبعك.
- وأنا أسعد بك يا مريم....

عجيب أمرك!!!، أنت سعيد أم عامر أم وائل؟؟؟؟؟؟؟ تتقلب شخصيتك حسب المواقف..... قد تكون أمجد أو حامد أو مناف..... هكذا صرت احاسب ذاتي، عجبت بهذه الصفة التي اكتشفتها فيَّ لأول مرة..هههههه.

وأنا أسير معها كنت حذرا جدا من أن أقع فريسة مآرب سهير ومطبها في نفس الوقت، كنت حريصا بأن أسحب حقيبتي وأحمل شنطتي الدبلوماسية بيدي، فهي خفيفة لم أحمل فيها سوى بعض اوراقي الخاصة وروايتين عالميتين، أحداها اللص والكلاب لنجيب محفوظ والثانية أحدب نوتردام لفكتور هيجو اسلي نفسي بهما واشياء أخرى شخصية وقليلا من النقود.

حرصت على مكمن المال والمحفظة التي فيها أسراري، بحيث وضعتها في حقيبتي الدبلوماسية وأقفلت عليها برقمها السري. فمن يدري ما ورائها، ربما تكون سهير ثانية، ظللتني باسمها وجنسيتها، هذه الايام الموضة جارية على هذا النسق مثلما ضللتها بنفسي أنا.

لقد شاقني حدسي بأن مريم ليست مريم، ربما خالد أو جبار للخشونة الذائبة في جسدها وجرير ملامحها، أحيانا لا تستطيع أن تجزم من أن الشخص المقابل ذكر كان أم أنثى؟ فالمثلية

أرتفع منسوبها في الوسط مع غياب المنهج الديني والثقافي في المجتمع، وهناك من يروج لها لغرض نشر الفساد لغاية في نفس يعقوب.

وما أن توقفت العجلة قرب الفندق، حتى نزلنا من العجلة، حرصت أن أسحب حقائبي جانبا، الفندق يقع على جانب من الشارع تجاوره عدة فنادق في وسط مُجَمعْ عام شعبي...

في تلك اللحظة رنَّ هاتفي وأذ بها سهير تهامسني على الخط..

- الو
- الو.. أين أنت يا فاتنة؟ لم تركتينِ وحيدا؟...
- كف عن مغامراتك يا وائل، لا تجازف بذاتك، شاهدتك ترتقي عجلة التكسي برفقة تلك المعرة، مع السلامة.
- الو ....

أغلقت الخط وتركتني في حيرة من أمري مرة أخرى، وكأنها شعرت بالغيرة منها، أو ربما أنبها ضميرها بسرقة نقودي فودت تنبيهي من الآفة مريم..... ياه,, أذا كانت تراقبني من زاوية ما، ربما تبعت عجلتنا، كأنها وضعتني تحت المجهر، تراقب أفعالي بطريقة ما، وتترقب ردة فعلي وإخلاصي....بتُ لا أفهم المشهد، كل شيء تكركب في مخي. لقد بحثت عليها في زوايا المطار وبمحيط الفندق، لكن المطار كبير جدا، ثم الزحمة أغشت ناظري بمحيط الفندق، أين تختفي هذه القطة

فـي أدراج ورفـوف الـذاكرة والعيـون، ربمـا لحقتنـي بعجلـة مـا، كل شيء جائز...

إذا لـم تصـبر علـى فراقـي، ربمـا أثـرت بهـا، ربمـا اسفت وحزنـت علـى سـلوكها معـي، ربمـا ودتْ تختبـر صـبري، ربمـا تحـرك ضميرها فودت أن تجنبني الاضرار التي قصمت ظهري...

عندها التفت إلى تلك المعرة وقلت لها:...

- انـا ذاهـب لفنـدقي وأنـت ممكـن أن تسـكني فـي هـذا الفنـدق أو ذاك القريب أمامك، مع السلامة.
- مع السلامة

تركـت المعـرة فـي ذهـول مـن سـلوكي وتصـرفي معهـا، هجسـت بسـهير لـم تكـن سـهير أنمـا روح زوجتـي وطيفهـا هـي التـي كانـت تراقـب تصـرفاتي، هـي التـي أتصـلت بـي، أهجـس بهـا قريبـة مني، وكأنها تشاهدني بمنظار عاطفتها..

بمكالمتهـا الثانيـة كأنهـا أهطلتنـي بعصـا تأنيـب الضـمير علـى رأسـي، هـزت عرشـي، اسـقطت الثمـار الفاسـدة مـن غصـن تفكيري.

كمـا أنـي مـن جانـب آخـر؛ هجسـت بـالمعرة ليسـت سـوية، رانـت لـي بأنـه ذكـر، أو خنثـي، ملامحهـا التـي لا تمـت للأنثـى بصـلة قط.

ذهبت إلى الفندق الواقع في الجهة الثانية من الشارع الكائن في زاوية شبه خفية عن الانظار في منطقة سلطان أحمد، وأنا أجر خيبة ضعفي وعناء سلوكي. حاولت من جانبي مرارا الاتصال بسهير دون جدوى، بقيت على حد القلق اترقب اتصالا جديدا منها أو زيارة خاطفة تطيب نفسي دون أن تحدث، متأملا أن ترق وتعيد لي ما سرقت من جيبي في لحظة صفاء.

5- منغصات الفندق

على الرغم من أن الفتاة التي ادّعت أن اسمها سهير قد أخذت قدرها وفتنتها وما في جيبي لحظة نزولنا من الطائرة، إلا أنها تركت في ذاكرتي وشمً فتنتها، وفي شفتيَّ لسعة فبلة تزداد توهجا مع الذاكرة، وفي ضميري عصا تأنيب توهط بي كلما انحرفتُ عن جادة الصواب. هكذا رسخت كذكرى لطيفة، تراقب هوسي، تتحكم بقيمي، تُحاسبني على نزواتي وهفواتي.

أهم ما تركت في ذاتي هي عصا تأنيب الضمير، وحرارة تلك القبلة السليطة التي التصقت بشفاهي كغراء الشجر، وجودها

العابر في ذاكرتي اشبه برادع يحد من مجاراة الموبقات والمراهنات الخاسرة. تعيد لي كرامتي في لحظات النسيان، تشكمني بحدود العلاقة الزوجية التي لا ينبغي تجاوزها.

بصريح العبارة، جعلتني أرعوي عن سلوكيات الطيش والعبث التي أجد فيها أحيانًا ضالتي، لا عن رغبة، بل لكسر طوق الوحدة. احيانا أفقد السيطرة على انفعالاتي النفسية، أمام تكرار المواقف المغرية التي تقتحم حياتي دون أن أسعى خلفها. ربما هناك خلل في ميزان الفكر، أو عطب في وجه العاطفة، أو لغز غائر في تكويني الشخصي يتحكم بي من خلف الكواليس دون إرادة منين يقحمني في المواقف المحرجة. شيء سحري من هذا القبيل، مضنٍ، مركب من غموض لا أفهمه، ولا أملك تفسيرًا له.

دخلت إسطنبول مثقلًا بهذا الإرث النفسي، واستأجرت غرفة في فندق مريديا بمنطقة السلطان أحمد، القريبة من البحر، ومن مسجد السلطان أحمد ومتحف آيا صوفيا. منطقة شعبية، مزدحمة بالأسواق، يجاورها سوق كراند بازار وحديقة جولهانة المطلة على خليج البوسفور ولا يبعد كثيرا عن السوق المصري.

تحممت، كشطت عن جسدي عناء السفر، ارتديت بجامتي، وتمددت على الفرشة الوثيرة، غفوت غفوة قيلولة لمدة ساعة زمن. ثم خرجت أستطلع الأسواق، وجلست في مقهى يطل على بحر البسفور في جلهانة، أراقب الأمواج التي تحدثها

السفن المارقة فيه، هاجسا طيف زوجتي تتقمص وجوه النساء. بقيت حتى حلَّ العشاء وأنا أتأمل لقاء تلك القطة الرقطاء المسماة سهير. أخيرا عدت مرهقًا. نمت حتى العاشرة صباحًا كأنَّ الأرق سلبني طاقتي.

حين ودعت زوجتي، تركت في ذهني عُهدة الضمير، غير أني خالفت العُهدة فلسعتني عصا سهير، صرت أتذكرها كلما زاغت عيني، خاصة حين أكون وحيدًا، منفردًا، أهاب أن تنزلق قدمي بعيدًا عن سور العلاقة الزوجية. تلك العصا جعلتني أرعوي من سلوكيات العبث التي تتحفني أحيانًا بمحض الصدفة، نتيجة فقدان السيطرة على انفعالاتي كما حدث مع سهير. اهجس بشيطان يسكن جسدي، يقحمني في تلك المواقف المحرجة، اعير ذلك إلى فراق زوجتي التي اكن لها محبة تفوق الوصف.

في الفندق، كانت عاملة النظافة تأتي كل صباح بعد العاشرة، تؤدي عملها الروتيني: تبديل الشراشف، تنظيف الغرفة من الغبرة، ملء قوارير الماء... في اليوم الأول عطفت عليها بخمسة دولارات كبقشيش من باب الشفقة، فصارت تعتني بالغرفة أكثر من المعتاد. في البداية، لم تلفت نظري، كانت ترتدي زيًا رماديًا باهتًا، أشبه بلباس عمال الرجال.

لكن في اليوم التالي، دخلت بثوب مختلف: تنورة سوداء قصيرة فوق الركب، خطواتها أكثر تأنقًا، نظراتها أكثر جرأة. رغم تجاوزها سن الأربعين، بدت ذات أنيار واضحة،

محتفظة بحيويتها، بهالة شبابها. حين انحنت أمامي بحجة التنظيف، صرت أدقق في تفاصيل جسدها، بساقيها المبرمين، رشاقتها، بتصرم عجيزها وانحناءها، بجاذبية لا تخفى، وبالذات حين ينعكس سواد تنورتها على سيقانها البضة لتصبح أشبه بمرآة عاكسة، ترهف الروح بجاذبية منبثقة كلمعة الكريستال حين يغازلها الشمس، كل ذلك صار يوقظ في داخلي رغبة نائمة.

أخذني الخيال بعيدًا إلى عمق الصورة، إلى العزف المنفرد، الذي اشتاق، نسيت عهدة الضمير وعصا سهير، خلتها زوجتي، لتشابه السيقان والبدن. انحدرت سريعا لعمق المشهد، اندمجت في الدور كممثل بارع، باحثا عن اللؤلؤة في صدف الفتنة، عن اللغز المختبئ تحت التنورة. بتُّ أسبح في موجة عمياء دون خجل وإدراك.

المشهد جعلني أغور في عمق الخيال، التمس العجب في ضفائر الشفق المنعكس عن الجسد، ففي الوقت الذي صارت تطيل البقاء في الغرفة، تمادى الخيال فوق مروج تلك المفاتن.

امتزج الخيال بالواقع، أصبحت في وضع لا أحسد عليه. لم أعد أقاوم عناكب الشهوة، توسعت دائرة الوله لتغطي مساحة الفكر والقلب، جردتني من إرادتي، بتُّ عاجزًا عن تحمل عناء الصبر. بسلوكها الوقح حركت رعشة الولدنة في داخلي، دفعتني تتبع المشهد وإلى العبث والمشاكسة... رحت أتبع الخيال حتى تخطت ذاتي حد الشك للواقع، أضحت الصورة

أكثر نضوجا ووضوحا، زال الغواش تماما، بتُ أنظر إلى قدري ووجودي من زاوية الفرصة المتاحة أمامي، متبعا سر اللمعة في فج الغواية، حتى أني لا أعرف كيف تجرأت يدي لتلامس أستها....

أكيد كانت لحظة وله ونسيان واستدلال تجاوزت حد المألوف، اختلجت الفكرة بعريها لتعري قيافتي وقدري أمام ذاتي، حينها لم أرى شيئا منافيا لسلوكي وأنا اداعب استها بعد أن تخيلتها زوجتي، ما أن اقتربت من سريري، حتى طاف بي الخيال لغاية أن ظفر الشوق بها...

وكردة فعل منها، التفتت نحوي بابتسامة صفراء، تنم عن خجل ولا تخلو من رضا، كأنها رقت لخشونة يدي، وكأني أثنيت على ما فيها من فتن وجاذبية. ما أن التمست ذهولي بها حتى عضت على العناب بالبرد وهي تنظر إلي بعين مومس زائغة، وبعطفة غانية. تنظر إلى ما وصلت لها الروح من عجز وشهوة، لتدك عصب الوتد النابض بين ساقيَّ.

وأنا أنظر اليها هجست قد أوطف طيف زوجتي بملامح وجهها، صعقني المشهد وهي تنظر إلي بعين العجب، عندها شعرت بعصا الضمير توهط جسدي، أعادتني إلى عالمي، إلى واقعي، إلى ذاتي الكسيرة. تساءلت: أين ذهبت؟ أين انحدرت؟ هجست بلحظة غثيان اصابتني، لحظة استهجان لمت بها نفسي، كانت كافية لتجعلني أستفيق عن غيي.

ياه.... أين وصلت في سفهي...وأن لم تدم سوى لحظات، لكنها جزلت عني قيافتي، لم اعد لذاتي الحقيقية إلا بعد عناء الضمير. فيما أخذها تحرشي بها بعيدا، شعرت بغبطة، هجست بحالها لازالت فيها حيوية من رمق الشباب، لازالت فيها فتنة تتقد.

بتُ أقلب فكري بسلوكها، ربما كانت لطيفة معي بسبب البقشيش، أو ربما شغفها بي دفعها لارتداء تلك التنورة لتغويني بمفاتنها، ربما عجبتها فمالت ميلتها، وربما هذا هو كارها.... ربما دفعها الفقر إلى ذلك. ربما... وربما... وربما...

كل تلك الاحتمالات واردة، لكن الحقيقة أنها شغلتني، بلطافة سيقانها، حتى نسيت أنها عاملة، ونسيت ذاتي. كانت لحظة صبابة في غير محلها حين داعبت أستها، حالة لا أجد لها تفسيرًا، ربما مرضية، أو شيزوفرينية، تمزج الخيال بالحقيقة، تدخل في صلب الإحساس والمساعر، تنقلني من حالة وجود لخيال أو بالعكس إلى حالة التيه، لغياب تام عن الأدراك. هذا التكرار بات يزعجني، يؤرقني، يشعرني بالإرباك والحرج، في ذات الوقت ينسيني ضغوطات الزمن والغربة.

ربما الوحدة دفعتني إلى تقمص الحالة، ربما الغربة، ربما زحمة الأفكار، ربما ضعف الإيمان وهجران الدين. كل ذلك اجتمع على ذهني كهوام الحشرات، أنساني حقيقة ذاتي، وقدري، ومكانتي.

إذا جنح الفكر، لينحرف إلى واطئة السفاح، إلى لحظة التسامي والانصهار بتلك الفتنة المكورة في كفلها، كأنَّ الأمر قد فرض عليَّ، بحيث صار خارج مساحة العقل والتفكير والإرادة، حالة تقيدت بها بقيد الغريزة.

كأنّ الذي دفعني إلى تلك الحالة من اللمم، ذلك الفراغ الذي اجتاح عالمي، ووسّمَ فكري بالوحدة والجنون. صار يرفع من غيي، ويعكر صفو ذهني بمعطيات السفه التي تحيط بي.

منذ لحظة فراق زوجتي، اصبحتُ مشغول البال، يتوه فكري في تفاهات المحيط، حتى غدت حالتي أشبه بحقنة تخدير، تغزو الذات بإبر كل أنثى جميلة تصادفني، حتى بت لا أميز بين الطيب والطَيب في جمال عالم الأنوثة.

أقنع نفسي بتلك المبررات، لكن الحقيقة أنني لم أستطع مقاومة المغريات من حولي. تحولت إلى حالة غريبة من الوجس، بَدَتْ الذات ضعيفة، مراهقة، مغرورة، مريضة، عبثية. ربما أنا فعلاً مريض، ولا أشعر بذلك. بت أشك في طبيعة سلوكي الهمجي، صار التنافس على أشده بين الأنا العاقلة والذات المراهقة في تقييم سلوكي.

لحظة نسيان واحدة كانت كافية لتنقلني من سكونٍ تام إلى عالم الرجاء والألفة، عالم افتقدت فيه رفيف صبري، بتُ مهووسًا بتلك المفاتن وأنا أستشعر ذاتي لائذة بحضن زوجتي.

بطبيعة الحال، أنا أعشقها، أعشق كل خلية في جسدها، ضحكتها، همستها، رقتها، لون بشرتها، وتفاصيل جسدها المسوّرة بالفتنة. لذا، انغمست في جسد تلك العاملة متخيلًا أنها زوجتي. هكذا خُيّل إليّ المشهد، وهكذا رأيتها. كما غررت بسهير من قبل، غررت بجسد العاملة. لكن حين التفتت إليّ، قالت:....

- يا سيدي، إن كنت ترغب بذلك، عليك أن تدفع لي خمسين دولارًا، حينها سأكون تحت إرادتك.

في تلك اللحظة، شعرت بعصا الضمير توهط جسدي، تركت أثر سخطها على الذهن والقلب. كشطت الشهوة وغار القضيب في مخبئه. نظرت إلى وجهها بشيء من الخجل وتأنيب الضمير، كأنني أصبت بفزعٍ وخوف، جعلت أمري بيد الأنا العاقلة، لأعالج تقرحات السخف التي طفحت في فكري، والتي تركت ملامح وجهي تتأسف لها عن كل بائنة أفرزها سلوكي.

قلت لها، ووجهي يكسوه خجل واضح وابتسامة صفراء:

– آسف يا سيدتي، نسيت نفسي. هذه الأعمال لا تليق بي، وليست من شيمي. نسيت نفسي فتخيّلتك زوجتي في لحظة ضعف. شكرًا لك.

عندها استخرجت عشرة دولارات من محفظتي، وضعتها في يدها وأنا أعتذر منها. نظرت إليّ بحسرة، وكأنها تأسفت

لـرفض عرضـها، بعـد أن شـهدت يـدي علـى رغبتـي الجامحـة بها.

بعـد خروجهـا بقليـل، ارتفعـت مـآذن المسـاجد تكبـر فـي نـداءاتها، تـدعو المـؤمنين إلـى الصـلاة. لحظـة إيمانيـة جالـت فـي الفضـاء، وكـرت علـى وتـين القلـب، لتغسـل الـنفس مـن آثـام الشـيطان، وتحثنـي علـى معاملـة النـاس بـالتي هـي أحسـن. كانـت لحظـة ورع، جعلتنـي أكـف عـن غيـي، حفزتنـي إلـى الولـوج فـي أجـواء التوبة، وتأمل رحمته وجنته تعالى، لأهيئ ذاتي للصلاة.

اتجهـت إلـى المسـجد، وأنـا أشـعر بانكسـارٍ وضـعفٍ أمـام الله، كمـن لـزم الصـمت لمشـواره القـادم. مـا أن طرقـت مسـامعي أصـوات أذان الظهيـرة المنبثقـة مـن مـآذن إسـطنبول العديـدة، وهـيَّ تحـث المسـلمين إلـى الإيمـان والهدايـة، والأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى وجدت ذاتي تنصاع للنداء بخشوع.

مـا أن خرجـت العاملـة مـن الغرفـة بعـد أن نقـدتها بعشـرة دولارات، حتـى تبعهـا الشـيطان يتقهقـر، هاربًـا مـن نـداءات المسـاجد. عنـدها اتجهـت إلـى مسـجد السـلطان أحمـد، مسـجد واسـع مـن مـزارات الشـرف لـدى المسـلمين. صـليت فيـه صـلاة الظهـر مـع الجماعـة، أحسسـت بقيمـة نفسـي وهـي بـين يـدي الرحمن تنفض آثامها.

لا أدري بمـاذا أسـمي سـلوكي العبثـي. شـعرت ذاتـي غارقـة فـي متاهـة مـن العقـد، انفلاقيـات كونيـة تتـوال فـي أعمـاقي، تسـوقني

إلى الشذوذ الفكري. صرت أقرأ فصول شخصيتي العبثية في عيون الآخرين بوضوح، لا أجد وصفًا دقيقًا لها. لذا بتّ أجرد تلك الحالة عن أصلٍ يركبني. صارت الذات الداخلية تماحك ذاتي الخارجية بالهفوات التي تتبعها. حمدت الله أنني لم أكن في موضع يشهرني، وإلا لكانت الفضائح تهز كياني أمام الأهل والمعارف والأصدقاء.

بعد الصلاة، تجولت في أروقة المسجد التاريخي، الذي بناه السلطان العثماني أحمد الأول بين عامي 1609 و1616، ثم اتجهت إلى متحف آيا صوفيا المجاور، الذي يحتوي على مقتنيات الإسلام وما يخص الرسول وآل بيته وصحابته، سلام الله عليهم أجمعين. تذكرت المآثر الكبيرة التي تركها الإسلام في الواقع العالمي وفي النفس العفيفة، وحمدت الله على نعمة الإسلام، وعلى التضحيات التي قدمها أجدادنا من أجل رفعة الدين والقيم التي نتصف به.

6- الصورة

كنتُ قد عدتُ لغرفتي في ساعة متأخرة من الليل، نتيجة الأرق الذي أصابني، جلست على سريري أتأمل الحيطان واللوحة الزيتية المعلقة على الجدار المقابل لسريري وهي

تخترق شرودي، تخزق أذنيَّ ترنيمة الساعة الجدارية التي لا تكف عن إزعاجي بصوتها الرتيب المتوالي تك – تك - تك، وكأنها تذكرني بالوحدة والحساب وعد الأيام وحساب العمر الذي يجري كنهر لمطافه الأخير...

كانت اللوحة أكثر ما شدهت انتباهي، خطفت اهتمامي بفكرة الرسام المبعثرة، صرت أشغل بالي بها محاولا تفسير الفكرة وقراءة ظنه وما يؤول اليه وماذا يبغي بها وما يود طرحه، أوحت إليَّ شعورا بليدا بالحزن وأنا أرى فيها وجه فتاة مراهقة أضناها الزمن وأسفتها الطبيعة بؤسا وشقاء، أغشت محياها خطوط هميمه جراء الكرب وعناء الزمن والفقر البائن عليها وعلى لباسها وشقاء عملها، أشقتها باقة الحطب المحمولة على ظهرها المعتد وهي ترتدي لبدة من الصوف تحمي جلدها الرقيق من خدش خشونة عيدان الحطب، والتي من الممكن أن تقرح جلدها الطري تلك النتوءات المدببة.

تبدو بعمرها الفتي جادة بحملها وهي تمشي في ممر ضيق مطرق من قبل السابلة، تربة مليئة بأنواع من أعشاب الشوك والعاقول والصبير والنباتات البرية الصحراوية والورود الجافة الشوكية اليابسة، التي من الممكن أن تقرح وتدمي قدميها العاريتين بسهولة. مع ذلك تبدو في عنادٍ وإصرار وعزيمة وهيَّ تمضي بمقارعة الطريق والظرف الموارب المحيط بها. تبدو بلياقة وباعتدادٍ واضحٍ لهدفها.

ترتدي تحت اللبدة نفنوف شفاف من قماش الشيفون وردي اللون، مفلجة الصدر، يغطي بطنها وجزء من ساقيها حتى الركب، مما يفضي إلى بروز مفاتن الجسد المغرية والمغنجة بالشبق، كإطلالة جزء من ثرى الثدي المنتبذ تحت حمالة الصدر، وذلك من خلال انحناء قوام ظهرها بزاوية منفرجة، لتوازن ذاتها مع ثقل الحطب المحمل على ظهرها خلال مشيها. إضافة لبروز واضح في تكور العجيز المصان بشكل دائري للخلف، وكأن الرسام ركز على مفاتنها ليثير انتباه الناظر بشكل ملفت للنظر. كأنَّ الرسام تقصد في اتقاد شعل المفاتن ليجذب الشاهد للوحاته، بل أنه يبدو مريضا فعلا بمرض سادي بما يخص أنوثة المرأة..

مع إطلالة مفاتن الجسد وتوافق ابتهاج رمان الصدر بالألق؛ بدتْ تجذب النظر من محيطها كوردة زاهية ترفل الطريق بألقها ليبدو المسار أكثر سلاسة وابتهاجا بها. فيما تبدو ساقيها المغنجتين بالرقة والفتنة كشطبي عود بان، لاستقامتها وطراوة بشرتها المكتنزة بحيوية وألق جاذب، وكأنهن مصقولتان بقالب من الشمع، للفيض السائح فوق قوامها والعرق المسال عليها. فيما ترتدي في قدميها حذاء أحمر من الجلد يغطي القدم حتى الرسغ، يقيءها عبث الأشواك وقَرَض الأحجار الصغيرة المشاكسة.

بفتنتها وشكلها تبدو أبنة السادسة عشرة سنة، أي أنها في قمة الألق والرقة والطراوة. بعمرها الفتي وكأنها في عراك وتحدٍ

مـع الـزمن والحجـر والشـجر والحَـرّ والوحشـة بتلـك الأنوثـة الدبقـة التـي تركبهـا. هجسـت تلـك المبـاهج المحيطـة بهـا، تفتقـر إلـى الجاذبيـة دون وجودهـا، إذا مـا أخـذنا شـعرها الاصـهب المتطـاير مـع الـريح وهـو يتـدلى مـن تحـت وشـاح شـفاف تلـف بهـا رأسـها تجنبـا لتعشـق عيـدان فيـه، وللحفـاظ عليـه مـن الغبـرة المثـارة مـن حولهـا. يليـك وجههـا اسـيل خـد ريـان وشـفة شـبقة جـف عليهـا رضـابها، فيمـا أنفهـا يبـدو كتمـرة ناضـجة يشـرف علـى عينـين واسـعتين عسـليتين تجهـد فـي مواجـه سـموم الـريح والحر المضاع والعرق المراق من الجبين.

وجـدتُ فـي الصـورة تمـازج فـي تركيبـة اللـون والأبعـاد التـي رام إليهـا الرسـام، لقـد أبهرنـي بعمـق المغـزى، وجـدتُ أبعـاد الفكـرة تلتقـي مـع زوايـا الفتنـة وتتوافـق مـع قـدر الفتـاة وسـحرها وفظاظـة الطبيعـة، تمكـن مـن جمـع عـزم وهمـة الفتـاة وهمجيـة الطبيعـة فـي صـحن مـن الألـوان المركبـة لتظهـر اللوحـة فـي قمـة الألـق بفكرهـا ورسالتها.

إبـداعٌ ملفـتٌ للنظـر سـطرته ريشـة الفنـان وبالـذات فـي مواضـع فتنـة الجسـد، أضـفى مهـارة فـي تجسـيد الفكـرة، أبـدع فـي بـروز الفتـاة كعامـل جمـال رئيسـي فـي فكـرة اللوحـة التـي يبغيهـا. تمكـن مـن تعميـق ذلـك الخـط الـوهمي البـارز فـي الفكـرة بشـيء مـن العبقريـة، جسد الفكـرة كشخصـية هلاميـة قائمـة بـذاتها تتجـول فـي منعطفـات اللوحـة برفقـة الفتـاة، إلـى جانـب التحـدي الواضـح فـي أصـرار الفتـاة المراهقـة علـى المراهنـة والتحـدي بقـدارتها الفتيـة

فـي طـلال الوحشـة والوحـدة التـي تعيشـها فـي بـوادي الصحراء تحت جلد بأس الظرف.

لوحـة تعبيريـة جسدت حالـة الفتـاة وهـي تشـقى فـي تجـاوز محنـة الـرزق وجمـود الحيـاة بإصـرار، كأنـه شـكل مقارنـة وهميـة بـين عمرهـا الفتـي وقسـوة الظـرف إلـى جانـب إصـرار الفتـاة علـى تخطـي عجزهـا المـادي. وضـع فـي داخلهـا أمـل زاحـف يـوازي طموحاتهـا، تـراه حلـم مغـروس فـي التربـة يقـاوم جلـد الطبيعـة كمقاومـة الشـجر لـذاك الظـرف. مـع تواجـد جربـوع صـغير يزحـف بخطـاه خلـف البنـت، كانـه يتبـع حيويتهـا التـي فرضـتها علـى الطبيعـة فـي ذلـك الجمـود المنعـزل. كأنـه غـرَّ بفتنـة الحيـاة وجسد تلك الفاتنة فصار يتبعها..

أصـرَّ الرسـام علـى وضـع اللغـز فـي صـرة الهـدف، جعـل المشـاهد يغـور فـي الفكـرة التـي تجتمـع عليهـا الأفكـار الاخـرى، ليرتقـي بالمشـهد إلـى شـيء مـن البلاغـة، ود جعـل المَشـاهد عنصـرا مـن عناصـر اللوحـة متبعـا الفتنـة، لتتجـاوز الفكـرة حـدود عناصـر اللوحـة إلـى ماهيـة الهـدف، ليسـتفيد مـن شـكل المغازلـة الحيـة بـين جسد الفتاة وطبيعة المَشاهد الأخرى.

كـأنَّ الجربـوع فـي اللوحـة عـين المشـاهد للفصـل بـين جسـد الفتـاة والطبيعـة المـرة، فضـل الجاذبيـة علـى الطبيعـة التـي أوجدتـه، اتقـاد بالفتنـة المراقـة علـى جسـد الفتـاة ليهـرب مـن الوحشـة المكفهرة والوحدة المكلة.

أهجس بحاله لا يختلف عن حالي من ناحية الوحدة والحيرة والتأثر بالجاذبية والالهام واللهفة خلف الفتاة، جعلني اتبع غيه في تتبع فتنة الفتاة بحثا عن لغز الحياة في تلك الطبيعة المرة وفي جسدها المغري.

برع الرسام في أضفاء محيط الفتاة بالعقد، غال في الأدغال والأشواك والأحراش والوديان، أضفى التلول والمنحدرات لتجسيد معنى العناء والوحشة، إلى جانب تأثير عصف الريح على جسدها الملائكي، بحيث أينما تنظر تجد للريشة دور في إبراز حالة تثير فكرة المشهد من خلال العناء والشخصية الوهمية الغائرة في ثنايا الفكرة والألوان المنشة بها، المرفلة في مبدأ الحضور في كل مرفئ من الصورة. أعطى لهيئة المنظر تميز مبهر فيه بعد الفكرة والقدرة والتعبير، تمكن من إبراز روح الحركة في واقع الجمود.

لا أهجس بغموض في اللوحة، أينما أنظر أجد فيها شحنة من الطاقة الكهربائية تنير جزء من مساحتها، طاقة إيجابية تضيء فكرة ما تأطرها بجاذبية تشد الناظر إليها، سواء كانت في تجسيد الفتنة وعمر الفتاة أو في إبراز جَلَدْ الخريف وسرعة الريح السهجة وكثافة الشجر وعناء الجربوع والوديان المتعرجة وتلولها. من خلال تناسق الألوان جعل المستحيل يذلل المستحيل.

قتامة اللون أضفى طابع حزن على ملامح الفتاة، إلى جانب طفق الشفق بين ظلال عينيها زرع أملا في فكرها. دفعها إلى

تحدي الظرف. كأنه أخذ الفكرة من لوحة موناليزا المشهورة للفنان ليونارد دافنشي، وهي تشد العزم على خصرها لمقاومة بلادة الحياة، لمقارعة القدر الذي ناصبها العناء برقة الجسد وخفة الدم والفتنة المراقة.

من جانبي وجدت في تلك السيقان المثيرة للشبق، ثورة فتن تنسحب على الساقين من الكاحل حتى الأرداف، في جاذبية سليطة تحرك الغريزة في النفس الامارة بالسوء، تحث الناظر إلى تأمل إشعاع الفتن لما خلف الظاهر من ذلك الجسد، ومع ذلك أظلها الظرف، أعشقها في أتون العمل والقسوة لتتجاوز حالة الفقر المربكة، والذي أجبرها على تحمل قسرية الظرف والفاقة.

وجدتُ عناصر القوة مركز في ملامح الوجه وطراوة الثديين وبروز العجيز وأناقة الساقين، كأنها تمشي على حد السيف، بين أن تسقط في هوة العذاب أو تفلح في عبور المفازة لتجتاز خط عجزها وضعفها وفقرها المريب.

الفتاة تبدو عصامية، شديدة المراس، وكأنها أخذت شراستها من جلد الشجر والتربة، فهي لا تنظر لحشرجات ضعفها قط؛ أنما إلى رسائل الإرادة وإشارات الروح المتأملة بالجسد من تخطي الظرف ومطباته، لذا رفعت درجة التحدي، أودعت في ذهنها فكرة صماء لا تتراجع عن الظفر، كي لا تهتز عتلة توازنها أمام نحولها وعجزها، كي لا تكسر إرادتها وتتقهقر.

كـانَّ الفنـان حـين أودع الألـوان فـي موضـع الجاذبيـة، أعتمـد فـي سـره علـى إيجـاد حلـولا للعقـد المـراءة، بحيـث مـن ينظـر للوحـة مـن نظـرة تفسـير أو تخـاطر يجـد فيهـا شـعلة نـار إلـى جانـب ثلـج جمـود غـارق فـي وجـه الفتـاة.. كأنَّـه أراد بالنـار إذابـة ثلـوج العجـز، لتجتـاز خـط الرجـاء الفاصـل بـين الشـك واليقـين، بـين فشـلها ونجاحهـا. كأنّـه اراد بـالثلج راحـة بـال تحتمـي بهـا فـي مشوارها.

تلـك اللوحـة جعلتنـي أتمعـن بأبعـاد الجسـد وملامـح الوجـه التـي أغرتنـي كثيـرا بمفاتنهـا، وبالـذات بالتناسـق الممـوه فـي ملامـح الوجـه وفـي تكـور فتنـة السـاقين، احسـب اللهفـة تصـلني كـرذاذ المطـر، تغسـل وجـه شـغفي بفتنـة تلـك الجميلـة وبابتهـاج وجاذبيـة اللوحـة. صـرت أهـيم بتلـك الجاذبيـة مـن السـيقان، وفـي تفـح الثـديان، وكأنهـا فـي وجودهـا تشاكسـني بألقهـا. أصـابني لاعـج الهـوى، تخيلتهـا مطروحـة إلـى جـانبي فـي فرشـتي وأنـا أحضـن وسـادتي بغـنج، مـع إغمـاض عينـي سـاقني الخيـال إلـى أحضـان زوجتـي، بـت اشـد عليهـا بشـبق وأنـا متـدثرا ببطـانيتي، لمـا لهـا مـن طلة أثارت حفيظة النفس.

انحـدرت فـي غيـي وإسـهابي كثيـرا حـين خاتلـت ظنـي، اينعـت خيـالي بمفاتنهـا؛ خلتهـا عاملـة النظافـة التـي كنـت قـد صـرفتها فـي فتـرة الظهيـرة عـادت لتجلـدني بمفاتنهـا، وكـأني نـدمت علـى إبعادهـا دون أن أرضـيها. صـرت أرهـز بالوسـادة بعنـف، متلـذذا بتلـك المفـاتن وأنـا غـارق بإسـتمناءة واسـتمالة لا أدري كـم طـال

زمنهـا، غارقـا فـي بحرهـا الطـامي. فلـم أشـعر بتلـك التفاهـة والـبلادة التـي لازمتنـي إلا بعـد أن تبلـل رأسـي بـالعرق وغـص لباسـي بلزوجـة مـاء الحيـاة، حينهـا صـحوت مـن أرقـي، عـدت لرشـدي لائمـا ذاتـي علـى الخسـة التـي صـاحبتني، عـدتُ أجـر عربـة خيبتـي وشرشـرة عيـوبي، متحـولا إلـى عـالم التـأفف والنـدم، صـرت أكـره نفسـي الهزيلـة وهـي تزحـف خلـف خيـال لا يتوقف دفقه.

صرت أتلمس حزن وجهي وأنظر لذاتي بالمرآة بخجل.

يا ترى؛ ماذا جرى لي وأنا أزحف دون وعي خلف كل فاتنة؟

شـعرت بصـغري أمـام تلـك الفتـاة المكافحـة، لمـا فيهـا مـن تحـد وإصـرار وإبيـاء وقـوة وشراسـة لعبـور مفـازة الفشـل نحـو النجـاح. عنـدها هجسـت بعصـا سـهير تهطـل علـى رأسـي، لأستكشـف جـوف غابـة والغربـة والوحـدة وبمـا فيهـا مـن منغصات تكبلتُ بها في لحظة نسيان.

قـدرتُ ذاتـي أصـغر شـأنا مـن تلـك المراهقـة، وأحقـر مـن ذلـك الجربـوع الـذي يتبـع الحيـاة، لمسـت ذاتـي دون عمـق حقيقـي. لا أدري أن كـان سـلوكي الغيـر متـزن يقـودني لطبيعـة الناسـوت أم هـي حالـة تجـرد مـن الايمـان واللاهـوت توصـلني لغيـي، أم رنـا سـلوكي لـ عسعسـة شـيطانية أنسـتني واقعـي.. كـأني بـت اسـبح خـارج نطـاق المسـحة البشـرية، صـارت ذاتـي تتـوحم اللحظـة الإيمانية، كي لا تسقط في مستنقعات الشك سقوط الحجر.

عدت أنظر إلى اللوحة مرة أخرى، هجست بها تجردت من كل فكرة غزت ذهني، تبددت التفسيرات عن بكرة أبيها، هجست بها لوحة عادية فقيرة بريعها. كأني أخطأت في تقديري وبُعد تفكيري....

لكني ما أن ركزت بنظري على وجه الفتاة؛ حتى غمزت لي!! دهشت، تطايرت ظنوني من رأسي، غدتْ الوانا عبثية تنتشر على اللوحة، تلونت عينيها وشفتيها ووجنتيها بتلك الظنون..... ابتسمتْ لي!! صعقتُ ذاتي. روح يراودها من روح زوجتي تدور في ملامح وجهها وابتسامتها، ترى من تكون؟..... أتكون متلبسة بجنية؟ أم جنوني بزوجتي شطح بي إليها، غرز ملامحها في وجه الفتاة فلاحقتني بسرها؟...

دخلت للحمام أستحم وأغتسل، لأجز عن ذاتي العقد والارق الراكد في جفوني، صرت أقرأ آيات التعويذ، كأنَّ الحالة مقرونة بالوحدة والفراغ الذي ركب فكري، كأني لا أستطيع تخطي عجز فراق زوجتي، بت أنوس في ذكراها، أتيه في مفاتنها ومفاتن كل سليطة حسناء تشبهها.

تلك اللوحة أوحت لي إلى ضرورة التخاطر والتخاطب مع زوجتي التي فارقتها منذ يومين، فهي في غي وأنا في غي، وعسى أن أكف عن حركاتي الصبيانية. كلانا يبحث عن فرصة نتجاوز بها الظرف الطارئ، لذا أخذت الهاتف وطرقت رقمها... صار يرن الهاتف بشوق وهو يبعث إشارات استغاثة إليها.

وقبل أن تستجيب للنداء كنت قد سرحت في سهد غياثي، كأني صرت أسمع صوت استغاثتها في قلبي قبل أذنيَّ، وفي روحي قبل وجداني، وجدت ذلك الخيط من العناق تعلق برنين الهاتف، التف على عنقي، دخل نبض فؤادي، وأنا أنتظر سماع صوتها الملائكي وهو يسبح في فضاء الروح كطير حط على وتين القلب.

- الو حبيبي، تأخرت في اتصالك، لم أود أزعجك حتى ترتب أمرك...
- حبيبتي صدف، أنا في شوق كبير إليك، منذ فراقك وأنا أشعر بذاتي مريضة، لا أستطيع مقاومة سلطان الفراق، أشعر بتيه وريبة بيني وبين نفسي وكأني قد أخطأت القرار، أشعر بغصة تخنقني حين أجد ذاتي وحيدة مركون بين أربعة جدران، أو حين أجد زوجا برفقة زوجته يتجولان في الشوارع، افكر بك وبإلغاء فكرة الهجرة.
- لالا يا وائل، أنك أن عدت سنعود للمربع الأول، للضيم والهضم الذي نحن عليه، الوطن غارق في متاهة العقد، كثرت فيه التماسيح والثعابين والعقارب، كثرت فيه الجنح والجرائم، كل يحاول أن ينتقم من أخيه دون سبب، لقد غرقنا في مستنقع السرقات والنصب والدجل والاحتيال والطائفية، فلسنا من هؤلاء ولا من أولئك، حتى صرنا نكره أنفسنا بتفشي تلك العقد.

- صحيح يا غاليتي، أني بت لا أقاوم الوحدة وأنا لا زلت في بداية المشوار، فكيف إذا ما طالت مدة الفراق. أشعر بفراغ كبير يعصر السم في كأسي، يغطي على حدقي وعالمي الواسع بشيء من النكد والتخوير، كأنه وحش يتبع ظني، يود أن يفترسني، أنت تقتلين الفراغ في العمل، لكني أهجس به حبل ملتف على عنقي لن أستطيع مقاومته.
- وأنا مثلك ولكن دعنا نبحث عن فرصة حياة لأبنائنا، وفرصة سعادة لنا، الدنيا قصيرة ونحن لا نجد فيها استقرار يغنينا، بسبب تردي الأوضاع وفيض العناء والسخط المشاع والفوضى العائمة. نحن أشبه من ينتظر حتفه واحتضاره. دعنا نتحمل مرار الفراق فترة، وهيَّ لا تحتسب من العمر.
- أحاول ان أقنع نفسي برأيك دون جدوى، ولكن لأجل عينيك والاطفال سأحتمل المشقة.
- الله يحفظك من كل مكروه، أن ضعتْ سنضيع، دع إيمانك بالله وحافظ على نفسك ولا تجازف في عبور البحر.
- أحاول ذلك، رغم قلقي إلا أني التمست فيك حسن الظن، فأنت في العين والقلب.
- أطمأن وانا من جانبي وضعتُ عواطفي في ثلاجة من الصبر، سأحتمل نغص الحياة ومشاكلها، مع السلامة.
- مع السلامة

في مكالمتي لها وجدت دافعا لاستمراري في المهمة التي جئت من أجلها، إلى جانب حافزٍ استنتجته واستقطبته من عزيمة فتاة اللوحة؛ حتى نجد تلك الصيغة الغائبة من صيغ الحياة تدرأ ذلك الطلسم الغامض الذي أغر مشاعرنا وأغرق سرائر

7- البحر

بين الأقدام والتراجع، تجلّى أمامي خيطُ العبور، تمسّكتُ به وأنا غير واثقٍ من نجاح المهمة، غير أنّي وجدته منفذًا وحيدًا يوصلني إلى غايتي. كلُّ التكهنات كانت ضد الإرادة والقرار، لكن للمجازفة والتحدي رأيٌ آخر، وجهٌ يومض منه ضوءٌ قريبٌ بمقياس الحلم.

بعد أسبوع من وصولي إلى تركيا، عقدت اتفاقًا مع مهرّب ومجموعة من الشباب المغامرين لعبور بحر إيجه. تم تحديد الموعد في العاشر من أكتوبر عام 2015. لم أخبر زوجتي بقراري، خشية أن تنهار أعصابها، فالمسألة كانت معلّقة بخيط رفيع من الحظ، يتوقف على صلابة القارب، ومهارة القبطان، وما نتحلى به من صبر وتعقل. عبارة عن شعرة واهية تفصل بين الحياة والموت.

انطلقت برفقة مجموعة من الشباب الذين تجمعوا أمام مسجد السلطان أحمد. وجدت فيهم رفقة وعونا وتشجيعًا، فالتصقت بهم هربًا من الوحدة وتيه أفكاري بعد أن إلتأت عليَّ الحاجة،

رغم جهلي بتفاصيل العبور ومخاطره. تعرّفت خلال الرحلة على أسماء مثل أحمد، سالم، ناجد، رضا، عثمان، صفاء، وميثم، وغيرهم ممن رافقوني في هذا المشوار.

استقلينا عجلات تكسي خاصة نقلتنا إلى مرآب أتوكار في إسطنبول، ومنه توجهنا إلى مدينة إزمير بحافلات فارهة. وهناك، اتفقنا مع أحد المهربين المنتشرين في الشوارع كالدبيب، مقابل ألف ومائتي دولار للشخص الواحد، لينقلنا إلى شواطئ إحدى الجزر اليونانية.

كانت الرحلة شاقة، محفوفة بالمخاطر، لم نشعر بخطورة البحر إلا حين واجهناه وجها لوجه، إلا حين غصنا في أعماقه. الفشل كان حاضرًا برافقة أمل واهٍ بالنجاة، معلق ببطانة القارب، وكمية الوقود، وبالهدوء الذي نحاول التمسك به والموج العاتي ودرجة سرعة الرياح، كلها عوامل تجعل من النجاح والفشل وجهين لعملة واحدة، لا يفاضل بينهما سوى الحظ وقرار الله سبحانه وتعالى. حيث عوامل النجاح هي ذاتها عوامل الفشل.

لم تكن الرحلة سهلة قط، كانت النفوس مشدوهة بصمت يفوق الخيال والتوقع، كأننا نبحر في عنق الحيرة بمجازفة عمياء دون يقين بالنجاة. كنا نقف على حافة السيف، بين نهاية حتمية وشروع جديد، بين الفشل والنجاح، في سباق مع الحياة لقطع ذات المسافة. تلك التي قدرناها قريبة المنال. لكنها أغشت الظن والعيون، بتنا نعوم في تيه معتم من الخيال المبطن

بـالواقع المـر. لـم نـراعِ أثـر المـوج والريـاح وهشاشـة القـارب البلاسـتيكي الـذي لا يقـاوم همجيـة المـد وخشـونة أحـذيتنا. كنـا نتخـبط فـي عـرض البحـر، كمـن مسّـه الجـن، نرتـد خطـوة أمـام المـوج ونتقـدم أخـرى، وسـط هسـتيريا الـبعض التـي زادت الطـين بلة.

هجسـت بالقـارب كـان عبـارة عـن قشـة تتلاعـب بهـا الأمـواج، تلـك التـي تعتـري طريقنـا كأرتـال مـن الوحـوش المفترسـة، تمنـع تقـدمنا. نتيجـة الخـوف الـذي يتـدفق مـن داخلنـا والـذي يتسـلل إلينـا مـن محيطنـا المعـتم أمـام خـيط واهٍ مـن الرحمـة نتمسـك بـه.. الخـوف كـان يتبـع خـط الظـن بشـيء مـن البلـه، ينبـع مـن رقـة القـارب وتـدفق المـوج العـالي الـذي لا يكـف تحرشـاته، نـزع الثقـة مـن صـدور الـذوات المؤمنـة، حيـث وسـائل النجـاة هـي ذاتهـا وسـائل المـوت: هشاشـة القـارب وعمـق البحـر والـريح السـهكة وضـعف محـرك القـارب وقلـة خبـرة. لـو تمـزق القـارب بأحـذيتنا الخشـنة وخاصـة أنـه مصـنوع مـن لـدائن مطاطيـة مـن البلاسـتك، سـنغرق كالحجـارة، فمعظمنـا لا يعـرف السـباحة. لكـن الله لطـف بنا وأجارنا.

الـريح التـي لاطفـت وجـه البحـر مـع أول الغـبش، أثـارت حفيظتـه، فصـار يتـراقص أمامهـا بـأمواج عاتيـة كـردة فعـل لغزلهـا. بـذات الوقـت كانـت خصـمًا عنيـدًا لنـا، تـدفعنا للخلـف، تـرفض مجازفتنـا، تعيـدنا خطـوة للخلـف بعـد كـل تقـدم. كالتنـا إلـى العجـز في تجاوز المحنة، كأنها لا تود أن نخاطر بأنفسنا.

كنا نتحرك ببطء، كسلحفاة تواجه تيارات هائجة، نخشى أن يعطب المحرك إن شددنا عليه. كنا نهجس بالقارب ساكن في محله، يراوح في مكانه مع نزف مستمر في مخزون البترول الذي لا نملك غيره، ولا نستطيع حث النوتي على زيادة السرعة، خوفا أن يعطب القارب في وسط البحر. رغم أن الجزيرة لا تبعد سوى أميال معدودة، إلا أنها بدت لنا وكأنها خانت توقعاتنا وتقديراتنا وكأنها صارت في آخر الدنيا، اكتشفنا بأن المسافة تتضاعف مع كل موجة تعاكس تقدمنا.

الريح السهكة كانت قادرة على قلب القارب في أي لحظة، خاصة حين تعلو فدرية السهو اليقظة. لكننا تمسكنا بحبل الله وبالحبل المعقود على أطراف القارب، حتى تمكنا من امتصاص صدمة الأمواج المتكررة. البحر، رغم قسوته، كان رحيمًا معنا في تحمل أعبائنا، طالما تمسكنا بالحذر والسكينة. لكنه كان يجلدنا بسوط الذعر والندم كلما انحرفنا عن الهدوء قيد شعرة، خاصة حين تفاقمت هستيريا البعض وفقدانهم ثقتهم بالنجاة بعد أن صار القارب يراوح في مكانه وتأثرهم بدوار البحر.

الأمواج العاتية كانت تهدد القارب بتمزيقه وقلبه، أضحى وجوده في البحر أشبه بقطعة قماش تتلاعب بها الريح، يرتج وسط دماسة تحيط بنا. كنا نتحسس تدفق الموج من تحتنا، يرفعنا ثم يهوي بنا في عمق البحر، فتتعالى صرخاتنا، نناجي الله أن ينجينا. ما أن نغص في العمق حتى ترفعنا موجة أخرى

على سنامها لتقذف بنا إلى السطح وهكذا دواليك. في كل دورة كان القارب يمتلئ بالماء، فنسرع إلى إفراغه بأيدينا أو بأي قمع متاح، كان أحد الشباب بارع في تفريغ المياه بكعب قارورة بلاستك، تركها لنا المهربون.

كان لعمق البحر وقتامة لونه ومداه الشاسع رهبة في النفس، لا شيء يدل على الحياة سوى جزيرة بالكاد نميز معالمها. صور تتقلب في مخيلتنا دون أن تطالها أيدينا.

الموجة التي تضرب القارب من الأعماق كانت أخطر من تلك التي تواجهنا، ترفعه عاليا ثم تقذف به في هوة سحيقة، كأنها تنين يحاول ابتلاعنا. ليست لدينا حلول وسطية نتمسك بها سوى أن نوكل أنفسنا إلى الله، نستجيره أن يفك كربنا وينهي أزمتنا.

إلى جانبي جلست فتاة أفريقية، سمراء البشرة، تبدو من دول أفريقيا الوسطى. كانت تتقن الإنجليزية، فتحدثنا عن وجهتها. لم تكن لها تجارب سابقة مع البحر، مثل حالتي تمامًا. ملامح وجهها قاسية، تخترقها خطوط كأخاديد ألم، ربما ترمز لشعار قبيلتها، فلم أسألها احترامًا لتقاليدها، لم تكن الوحيدة بيننا رافقتنا عوائل سورية وافغانية وايرانية.

كانت ترتدي قميصًا أصفرا نصف كم، وبنطالًا أسود، يبرز طراوة زندها. بينما كنتُ أرتدي قميصًا أبيض وبنطالً جنس نيليًا، ومع تموج القارب المتأثر بحركة الأمواج؛ كان يختل

توازننا فنميل مع ميلانه، فصارت الأذرع تلامس بعضها، فيقشعر البدن، للدانة الكامنة في جسدها وجاذبية بشرتها، وللدفء المشع من بدنها. شعرت بحرارة تتدفق من سمرة بشرتها، كوهج يخترقني، يلامس روحي، ينسيني هم البحر ومخاطره.

استلذذت بتلك اللحظات، كأنها صارت تخدرني وتنسيني الواقع، لا أدري إن كانت تشعر بما أشعر، أم تعيش عالمًا آخر. لكني استأنست بها، حتى باغتتنا موجة شرسة، جعلتني أنحني للبحر، فارتميت عليها أبحث عن حضن يحميني من جنون البحر وجنوني.

ما أغراني بها تلك الفجاجة التي حاكت ولهي بتلك الفتنة من البشرة، واستفزّت أحاسيسي بليونة جسدها ولون سمارها الموائم لرغبة جامحة نائمة في أعماقي. هرشت مشاعري وهي تميس بجسدها فوق جسدي، جعلتني أميل إليها ميل الغصن الأهيف. كانت الحرارة تتدفق من لدانتها كينبوع شغف انساب في كياني، فأيقظت مكامن الشهوة والاشتياق، ألهبت ناجذ الشبق، جعلتني أتغاوى بمفاتنها المشبعة بالأنوثة ناسيا تنين البحر، كأنها نفضت غبار الأنوثة في صرة ولهي واغتباطي بها.

كنت مهووسًا بحالة انتشاء مسهبة أسرتني، حتى صرت أقارن فيض أنوثتها بدفق أنوثة زوجتي، ذلك ما ألهب زغب العصب وكزبر شعر الجلد. بإغرائها، جعلتني ألتصق بها لصقة

الشعرة بالجسد. لقد التمست فيها رقة وعذوبة زوجتي، بل إنني في لحظات الخيال المسهبة تخيلت ذاتي ترهف بشواطئها، خلتها هي ذاتها تجلس إلى جانبي، لما فيها من ودّ ورواء. وجدت في مفاتنها سلطانًا يفرض قدره على ذاتي، دوائر من الوله حاصرتني، حاطت بي، شدتني إلى لغز سحرها، شدتْ ظني بظنها، أمسكت بتلابيب القدر الذي جمعنا على بساط الغريزة في وسط البحر.

أضحى التوافق بيننا على أشده حين رافقتُ بها واحتضنتها بساعدي الأيمن من خصرها، وكأنني كنت مغمض العينين حين التفت يدي على خصرها لتحضنها بغنج، خوفًا عليها من أن تسقط في البحر. كأنني كنت في تحدى مع تلك الموجة التي كانت تراقب اندماجنا عن كثب، والتي كادت تودي بنا في عمق البحر، حتى هجست بأناملي غاصت في لدانة حقوها. تلك الألفة ارتقت بنا إلى حالة من التسامي والانصهار، كأنها بذاتها فتحت لي أبواب مفاتنها المغلقة على مصراعيها، مثلما عبدتُ لها طرق الودّ إلى مهجي. شعرت بأن المسافة التي تفصل هواجسنا قد تماهت وذابت في لحظات الصمت والسكون التي جمعتنا تحت ظل الشبق والنسيان والوله بتلك الألفة العابرة.

لم أجد منها اعتراضًا على سلوكي العبثي، وكأنّ الأمر راق لها، فأصابها ما أصابني. قد تكون، في عرفها، تخيلتني زوجها مثلما تخيلتها زوجتي، أو فسّرت ما بدا مني على أنه

حرص مبالغ فيه على حياتها، خوفًا عليها من الكارثة لو سقطت في البحر.. هكذا خُيّل إليّ كحجر ترنو الى الأعماق لبدانتها، وربما خُيّل إليها كذلك بذات الكيفية، أو بشيء أكثر عمقًا مما يجول في خاطري، حيث النساء أكثر تأثرا من الرجال في الملاطفة.

ربما وجدت في مسكتي وشغفي مسكنًا لها، أثرتُ فيها منابت الشبق، وأوقدت فيها فتائل الألق، لتبقى تفيض رقة وأنوثة في حجري. ذلك ما دفعني إلى أن أغرس أصابعي في زندها، حتى شعرت بها تنوس برواق مشاعري، وما فتئت مالت إلى جانبي ميل السكران لتلتصق بي، لولا ذلك الخجل الذي خالها وأغشاها؛ لرمت ذاتها بذراعيّ، وطوقتني بمفاتنها.

ونحن في ذروة الوله والشك، دفقتنا موجة عاتية كادت أن تودي بنا للمرة الثانية، والثالثة، بل العاشرة، وكادت أن تغرق القارب في لجّة الهلاك. بدت وكأنها إشارة من الله أن أُقلع عن عبثي، فسحبت يدي من تحت ظهرها، وتمسكت بحبل النجاة المحيط بالقارب، وبقيت على تلك الحال حتى بلغنا شاطئ الجزيرة بسلام، حامدين الرب على نجاتنا.

بعد عناء ساعتين من المحاولة والصراع مع تلك الأمواج، تمكّنا من قطع مسافة خمسة عشر ميلًا بشق الأنفس، بعدما انقطعت حبال العصف والعطف والمحبة واليقين تحت ظل حراس السواحل، الذين فرّقوا بيننا حسب جنسياتنا وانتماءاتنا.

استقرّ بنا الحال في ليلة عجفاء داخل إحدى خيام جزيرة ميتليني اليونانية، كلٌّ في قاطعه.

وفي اليوم التالي، كنت قد حجزت غرفة على متن باخرة عملاقة نقلتنا إلى العاصمة أثينا. ارتقيت الباخرة وسط جمع غفير من الحشود من مختلف الجنسيات، زاد عددنا عن ألفي شخص. بحثت عنها طويلًا بين الطوابق وعلى السطح، دون أن أجد لها أثرًا.

في الباخرة، غلبني النعاس، فنمت نومة أهل الكهف من فرط الإنهاك الذي أصابنا. أخذتني الإغفاءة على مركبها حتى شفير الفجر، حين صحوت على لسعة البرد وترنيمة النوارس وهي تستقبل الباخرة بفرح. كانت رحلتنا قد امتدت قرابة تسع ساعات، تحركنا مع ولوج الشمس في قوس الغسق، لنستقر في ميناء أثينا مع أولى خيوط الفجر لليوم التالي.

أثينا

مـا إن وطِئـت أقـدامنا أرض أثينـا، حتـى انسـاب قلـم ذاكرتـي يـدون تاريخهـا العريـق، تجـول فـي شـريط عبـاقرة فلاسـفتها، وعمـق ثقافتهـا التـي أغنـت الفكـر الإنسـاني بنتـاج الحكمـة والرشـد. لطالمـا راودنـــي حلـــم أن أتـــنفس هواءهـــا، وأتلمـــس ثراهـــا، وأتأمـــل معالمهـا، كـان علّـي أن أستشـعر رذاذ الحكمـة الـذي عبـق وجـه الزمـان. تلـك المدينـة التـي تأملـت مشـاهدتها فـي شـوق ناهـد، لالـتمس مشـاهد الحضـارة الرومانيـة علـى مـا فيهـا مـن رقـي وإبـداع فـي الفـن والفكـر شـغلت بهـا الـدنيا، مدينـة سـقراط

وأفلاطون وأرسطو وطاليس وفيثاغورس، والتماثيل والمسارح والإضاءة، التي انارة وجه الزمن والثقافة.

أثينا، عاصمة اليونان وأكبر مدنها، تحمل اسم آلهة الحكمة الإغريقية، وتختزن في طياتها آثارًا شاهدة على مجد الفلاسفة وعبق التاريخ. كنتُ قد استأجرت غرفة في فندق نانو، وسط المدينة، قرب ساحة أمونيا، في منطقة شعبية تعج بالحركة والباعة المتجولين. كان الموقع مثاليًا، فوضويًا، نابضًا بالحياة، يغنيني عن الوحدة والكآبة، ويمنحني فرصة لاستكشاف المدينة دون عناء.

في مواجهة الفندق كان يقع مرقص ليلي، نايت كلاب، عالم من الصخب والعبث، أثار فضولي، جعلني أبحث عن سره من شرفة غرفتي وخاصة يتوهج في فترات المتأخرة من الليل. كنت أراقب الداخلين والخارجين منه، أستطلع وجوههم، وأتأمل تحولاتهم الفسيولوجية بين الدخول والخروج. عالم من العبث والجنون ونسيان الذات، كانوا يدخلون بأنقة ورقي، واثقين من أنفسهم ومعتدين بشياكتهم، ثم يخرجون منه منهكين، متضعضعين، فاقدين للاتزان، كأنهم عبروا بوابة تغيّر الذات فصاروا بغير أناقتهم المعهودة.

ذلك العالم المغموس بالعتمة، عالم مجون، مشحون بالجنون، عالم ضياع يستهوي العشاق والمراهقين والمخمورين والقانتين في حوض العقد، الباحثين عن لحظة نسيان، عن سعادة ذائبة في العدم، عن مهرب من واقعهم الكئيب. عالم

خـزف تتـداخل فيـه الألـوان والظـلال، وتتشـابك فيـه الرغبـات والضـياع، مبعثـرين فـي فسيفسـاء الولـه والغوايـة والظـن، حيـث لا تنتهـي الحكايـة عنـد الخـروج مـن النايـت كـلاب، بـل تبـدأ رحلـة أخـرى مـن التيـه فـي دواليـب الفكـر والحسـرة والنـدم، تزحـف معهم لغاية مساكنهم؛ حتى يكتشفوا الذات المسكينة تتبع وهم.

فـي الحقيقـة اسـتمتعت كثيـرا بالصـخب المنبعـث مـن ذلـك المـرقص فـي تلـك الأجـواء الملبـدة بالعتمـة ومـا تطبـع فـي الـنفس مـن شـرود وخيـال وأنـأ أقـرأ جريـدة المسـاء بفكـر مختلـف، شـعرت بتغييـر طفـح فـي طبيعـة حيـاتي المعتـادة علـى الهـدوء والسـكينة، وكـأني نزعـت ثـوبي القـديم لأكتشـف زهـوا قابعـا فـي الجديد من الغرائب التي كانت بعيدة عني.

بـت أتبـع ذلـك الصـخب المنبعـث مـن المـرقص لسـاعة متـأخرة مـن الليـل، أمتـع نظـري بمشـاهدة العبـث والدجانـة الملتصـقة بالمـارقين والـداخلين والسـائحة ذواتهـم فـي شـارع المـرقص. اسـجل ملاحظـاتي علـى نوعيـة الزبـائن بشـكل عـام، لأسـتخلص مـدى اسـتغفالهم وامتهـانهم لأنفسـهم، ومـدى السـفه الـذي يتحلـون به دون إدراك.

كانـت النـاس تـدخل المـرقص وهـي متأنقـة، فرهـة متبختـرة، مختالـة بأنفسـها، علـى قـدر كبيـر مـن الشـياكة والاتـزان فـي سـلوكها، يطغـي عليهـا الهـدوء والرزانـة، متشـحين بالكياسـة والأدب والاحتـرام. وحـين تخـرج مـن المـرقص تخـرج عبثيـة، مهانـة، بشـكل ينـاقض مظهـرهم عنـد الـدخول. اشـكال

متضعضعة، اعتباطية، يكتنفها السفول والانحطاط والفحش. مبهدلة، وضيعة، مهانة، يشيع في سلوكهم المرح والمزح والهزل والدعابة والتصرم والتهور. كل يبحث عن ذاته وشخصيته في الجعة التي سلبتها منهم. غارقون في التيه، لا يدركون مسالك منازلهم؛ لطوفان العقل وغواش الفكر وعمش النظر، وكأنَّ المسافة التي جاء بها تضاعفت عليه حسب درجة السكر المتلبكة بها ذواتهم. تلك هي صورة المجانة التي أتصفوا بها.

مشاهد كثيرة علقت في ذهني: امرأة تضحك ضحكة هستيرية هههههه، تلفت الأنظار، تثير الضحك، كأنها دمية إلكترونية تهتز بسمنة مفرطة وسُكرٍ طافح، جلبت أنظار كل المتواجدين في الشارع، والذين توافقوا مع عبثها بالضحك الهستيري حيث قلبت السكون إلى فوضى. ذاك مازحها وأخر قرصها من عجيزها مما أثاروا فيها جنون الضحك؛ حتى كادت تفرط من شدة إغوائها وإروائها بتلك المجانة التي صاحبتها، وخاصة ببدانتها كانت تشبه برميل النفايات... اثنان من الزبائن يترنحان، يتكئ أحدهما على الآخر، يحاولان الثبات في عالمٍ فقدا فيه التوازن، يهجسان بأن الأرض تتحرك تحت أقدامهما فلا يستطيعان الثبات لفرط اسرافيهما في الشرب، صار الرجل يدور حول نفسه يود أن يتمسك بأي عارض ليعيد لذاته توازنه، فيما كانت صاحبته تكركر عليه وهي تتأرجح في مكانها تميل ميل الغصن الأهيف. حاولت مساعدة رفيقها لينهض بعد أن أفترش الأرض، لتتكب عليه، لتنسدح

فوقه وهما غارقان في هستيريا من الضحك في وسط الشارع.... رجل آخر، يكرع ما تبقى من قارورة خمر، فينسكب المشروب عليه، عبثا يحاول استعادة ذاته بعد أن تهاوى على الرصيف لتنكسر زجاجته.

هكذا كنت أسلي نفسي وفي ذات الوقت اسجل ملاحظاتي على الزبائن. كنت أراقب، أدوّن، أستمتع وأتأمل، حتى راودني فضول الدخول للمرقص، لا لألهو، بل لأستطلع حجم العبث، لأفهم درجة الوله، لأرى بعين الباحث ما يدور في ذلك العالم الغامض.

*****

كانت توجد في نفس الشارع مقهى يديرها شاب مصري، كنت أجلس في مقهاه بعد فترة الغداء أو في أوقات الفراغ بعد أن أنهي تجوالي في الشوارع، تعرفت على صاحبها عادل، حينها سألني عن وجهتي فقلت له:...

- إن شاء الله ذاهب إلى السويد.

قال لي ناصحا:....

- الطريق غير آمن، وكذلك طويل وشائك... ما رأيك بجواز مزور ينقذك وينقلك بساعتين إلى السويد، كما أنه رخيص قياسا إلى ما ستصرفه على نفسك لو ذهبت سيرا على الأقدام.

- عظيم أين هو؟ وكم سعره؟
- أنه بألفي يورو، أنه جواز شبه منتهي، لم يبقى به من الزمن سوى أياما معدودة، وهو لشاب من عمرك ومن أصل عربي، أي أن مسالة الشبه بينكما واردة.

ذلك الشاب كان قد وضع جوازه عندي وطلب مني تصريفه، بشرط أن تسافر خلال أسبوع من الآن.

- جميل، أين هو؟ أني ارغب بالسفر خلال اليومين القادمين، ولك مني خمسون يورو هدية على ما تقدمه لي من تسهيل. ولكن قل لي كيف يبيع جوازه بهذا السعر؟
- أنها أوربا، يأخذ منك المبلغ ويذهب إلى السفارة ويدعي بأن جوازه سرق منه أو ضاع منه، يعوضوه جواز سفر ومبلغ من المال في نفس اليوم. وبذلك يخرج من العملية بمبلغ محترم يعوض ما صرفه خلال رحلته وتجواله السياحي.
- هههههههه، أنها تجارة إذا.. هل تعلم أني قضيت مدة ستة أشهر من الأعصاب والتعب والمتابعة في تجديد جواز سفري مع دفع مبلغا قيما من الرشاوي للعاملين في دائرة الجوازات وأنا داخل وطني.
- هذا حالنا وسلوك دوائرنا، الله ينتقم من هؤلاء...

أخذت الجواز ودفعت لصاحب المقهى المبلغ كاملا، مع خمسين يوروا هدية له.. بعد ذلك اتجهت لمكتب سفريات في ذات الشارع، اقتنيتُ تذكرة لستوكهولم بموعد قريب، لأعود

للمقهى وأخبر السيد عادل عن موعد مغادرتي أثنا، مبينا له تذكرة السفر. ليخبر بدوره الشاب السويدي عن موعد مغادرتي أثنا، كي يراجع سفارة السويد من أجل استخراج جواز سفر جديد له بعد مغادرتي اثنا.

في المساء وجدت ذاتي تخور أمام المرقص، تود تجربة المرقص قبل السفر للاطلاع عن ما يدور في داخله قبل ان أودع أثنا، لتبقى عصا سهير تطارد فكرة الغواية التي لا تنفك عن ذهني.

8- المرقص

في اليوم التالي، نمت الفكرة في مخيلتي وتضخّمت، فقررت دخول المرقص. وجدت نفسي حرًّا، بلا وازع ديني أو شخصي، أدور أمام باب "النايت كلاب" كدبور يفتش عن سرّه بشيء من اللهفة الغامضة. لم تكن رغبة في الانحدار

نحو النزق الذي يفيض به المكان، بل فضولًا ملحًّا لاكتشاف ماهية أسراره، ولأقارنه بطبيعته بملاهي العراق، وتغيير نمط سلوكي والروتين الذي اعتدت عليه من جهة أخرى.

حين هممت بالدخول، اشترط عليّ البواب أن أكون بصحبة سيدة. لذا وقفت قرب المدخل قرابة نصف ساعة، أترقب الزبائن الداخلين للمرقص، وبذات أولئك الذين سلبتهم الغربة والوحدة إرادتهم، وغرّرت بهم غواية الليل والخمرة. علني أحظى بسيدة أُغلف بها رغبتي، وأُلبسها نية غوايتي ورغبتي.

وأنا غارق في غيي وإذ بسائحة ثلاثينية تقترب من الملهى، بدت بملامح عادية، تتخبط قرب المدخل، وكأنها تجهل شرط الدخول. اقتربت منها، تأبطت ذراعها، وقلت بالإنجليزية:....

– أنا اسمي عماد، الدخول يتطلب أن تكوني برفقة رجل... هههه، ما رأيك؟

– أنا كرستينا، جميل منك أن ترافقني يا عماد، هيا بنا.

هزّت رأسها بالموافقة، كانت بالكاد تفهم الإنجليزية. دخلنا معًا بعد أن دفعت قيمة الدخول عشرة يورو للشخص.

مررنا بمدخل يؤدي إلى سرداب، فوقه غرف دائرية حمراء، مرتبة كبتلات وردة جورية، تطل على المدينة بشرفات صغيرة. تلك الغرف كانت تُحجز للعبث بعد السكر والرقص، يؤدي إليها مصعد كهربائي وسلّم دائري.

السرداب عبارة عن صالة رقص واسعة، تنبجس فيها أضواء خافتة كأنها مخنوقة بوشاح من الظلمة. الطاولات الخشبية موزعة حول المسرح، الذي يرتفع عن الأرض بمتر، وتحيط به فسحة دائرية للرقص. خلف الطاولات، من جهة اليسار، سور يحيط بدورات المياه. المسرح مزركش بألوان الطيف، مخصص للفرقة الموسيقية والمطربين. الصالة مكتظة، بالكاد تجد فيها موطئ قدم.

ما أن جلست أنا وكرستينا قرب المسرح، حتى فوجئنا بترحيب مجموعة من الزبائن. لا أدري إن كان ترحيبهم بدافع اللطافة أم بفعل الخمر الذي أنساهم بلادتهم، أم أنهم شعروا بغربتنا فأكرمونا.

خلال الحديث، عرفت أن كرستينا تسكن في فندق قريب من فندقي في دوار أمونيا، فتبادلنا أرقام الهواتف، وتواعدنا على لقاء في اليوم التالي. شرحت لها سبب تواجدي في أثنا.

من خلال الملاحظة اكتشفت أن المرقص مخصص لكبار السن، لم أرَ فيه شبابًا بأعمارنا، أصغر زبونة كانت في منتصف الأربعينات. نحن فقط من فئة الثلاثين، لذا ربما كان الترحيب بنا استثنائيًا لهذا السبب.

بدأت كرستينا تكرع البيرة بنهم، أما أنا فكنت أجاملها، أضع الكأس على شفتي دون أن أرتشف من سوى كوع أو كوعين، كي أبقى متيقظًا، بعيدًا عن السكر، رغم صخب الموسيقى

التـي تصـك الآذان، بقيـت أدون المشـاهد فـي ذهنـي. بعـد وقـت، شـعرت أن أذنـي اعتـادت الضـجيج، تجـاوزت قرفـه، وبـدأت أنـدمج فـي أجـواء المـرقص، العيـون أضـحت مرثيـة خلـف سـطوة الكـأس، تنتظـر فرصـة أتقـاد شـعلة الفوضـى والهيافـة والصـياعة، لينفجر في خلف تلك الفكرة عبث يفوق التصور.

حـين عزفـت الفرقـة لحنًـا راقصًـا، هـبّ الجميـع إلـى المنصـة، فانخرطـت معهـم، رغـم أنـي لا أجيـد الـرقص الغربـي المبنـي علـى حركـات القـدمين السـريعة. وجـدت نفسـي أقفـز بيـنهم كقـرد، لكنـي شـعرت أنـي أمـارس رياضـة تنشـط البـدن والقلـب، كشـطت عن جسدي الخمول، ولامست تغييرًا في نمط سلوكي المعتاد.

فـي الحقيقـة، لا بـد مـن تغييـر فـي نمـط السـلوك العـام لفهـم الحيـاة والاسـتمتاع بهـا، حتـى لـو لـم يعجبـك ذلـك الـنمط، لتشـعر بقيمـة فنـون الحيـاة مـن حولـك. فـالتغيير جـزء مـن أسـرار الحيـاة، لتنسـى غصـة الغربـة والهمـوم. الـرقص فـن فـوق الفنـون، مركّـب مـن عناصـر توافقيـة وغيـر توافقيـة تقمـح الفـرد فـي نشـاط بـدني يساعد دورة حياة القلب والعضل بالحفاظ على الحيوية.

وجـدت نفسـي فـي موضـع غريـب، لا يـوائم سـلوكي المعتـاد، لكنـي شـعرت بمتعـة تتسـلل إلـى داخلـي كمـاء يتسـرّب إلـى جـدول الحيـاة. شـعرت بحريـة فـي الحركـة أعضـاء الجسـد، برخـاء فـي الـنفس، غـدوت بـين النسـوة كطـائر يجـوب فضـاءات فـتن أجسـادهم. المكـان والفوضـى منحـاني حريـة واسـعة، لا أحـد يراقب أو يهتم، لا أحد ينتقد، لا أحد يشمت أو يقلل من قيمتي.

استمتعت بالرقص، حركت العناصر الخاملة والغير توافقية عن أماكنها، نزعت قيافة شخصيتي الحقيقية مع رداء كبريائي داخل المرقص، صرت لا اختلف عن الجمع سوى بلون البشرة. لأعطي ذاتي دفقا من الحيوية والتحدي، اثرت أن اجازف بذاتي بين النساء، جعلتها جزءا من صيغة الحياة ونمطها، جزءا من سلوكيات الشخص والشخصية المقابلة والغائرة في ذاتي الخفية. جعلت شخصيتي صورة مرئية وغير مرئية للعيان، لتفتن النساء. هجست بذاتي تخطت حاجز الخجل، تجاوزت عقدة الوحدة وما يتبعها بعد اندماجي مع كوكبة من الراقصات.

ليس من المعقول أن يعيش الأنسان حياته على نمط وسلوك واحد من المهد إلى اللحد، كآلة جز دون شعور واحساس، ففي نهاية الأمر لن يجد في حصيلته سوى كم هائل من العراقيل والالتباس مكومة في طرقه، لا تمنحه سوى الكآبة والوحدة والتوحد.

ليس ضرورة أن تئم النوادي الليلة، هناك مجالات كثر نخجل أن نمارسها، أو لا نشعر بها لا تليق بأعمارنا، مثل لعبة الطائرة، الريشة، أو الهرولة على الكورنيش، الجلوس في المقاهي، البيع في الشوارع، السياحة الطبيعية في مناطق جذابة، السباحة في الأماكن العامة.... الخ. وأحيانا لا نجد مجالا لحث الذات في تلك المعتركات، لكن علينا أن نصنع لأنفسنا سَفَنْ نتنزه بها حتى في مخيلتنا لنستطيع أن نقحمها في

المجالات العامة والخاصة أن صدفتْ، نخلق اجواء حريرية تشعرنا بنعومة الحياة، لنتمكن من إخراج الذات من قوقعة الشك والريبة والغيب والعيب والنميمة والكرامة التي ندفن أنفسنا بجحورها بسبب العادات والتقاليد التي خلقناها بأنفسنا.

والحقيقة أني وجدت في النادي الليلي فرصة أتنفس بها الصعداء، كون المكان مخفي عن الأنظار من جهة، وكون عملية الرقص أفرزت عن مخزون طاقة كامنة في داخلي لم التمس ضفائرها من قبل بهذه البهجة والفتنة. كشفت عن وجه روح لطيفة، مغترة بالمشاركة الجماعية لائذة خلف وشاح من الخجل، نشطت اللياقة البدنية في الجسد حتى لو لم أجيد الرقص، حيث لا أحد ينتبه أو يراعي الفروقات مع الهيصة والصخب الدائر.

شعرت بالدماء تتدفق في عروقي، جددت خلايا المخ، قشطت دهونات الكسل من على الجسد، تحررت الذات من العقد، مما شجعني على تخطي عجزي، فدخلت بين مجموعة نسوة يفوح من اجسادهن عطن الخمرة، سكارى، نحوت خلف فتنتهن، صرت أقبل هذه وأمسك أثداء تلك، انحدرت خلف الحركة والرعونة. رغم أني لم أجد فتنة حقيقية تشدني إليهنَّ، لكن الفوضى رمتني وسطهن لأعيش الحالة كما هيّ. كانت مسألة فضول وتجني لا أكثر، مع قبول وعدم ممانعة من قبلهن، وكأنهن شجعني على تلك السلوكيات الوقحة. حتى

كرستينا تلك التي صحبتها معي تركت أنوثتها تبحث عني وأنا مجزأ بين أصداء النسوة...

بعد أن مخر السكر الأذهان اختلطت الوجوه وذابت العزة والكرامة والشخصية في لون الفوضى، صار الكل يبحث عن غيه خلف من يشاء، يبحث عن الفرصة الغائرة في عجيز نافر أو صدر ظافر ممن تخلت عن نفسها في الميدان، وأن لم تكن زوجة أو صاحبة.

كنت أهجس بذاتي أصغر المتواجدين سنا، لذلك لاحظت بعض النسوة يقتربنَّ مني دون إشارة مني، أحداهن أرتمت بحضني، وأخرى قبلتني ومن ثم مدت يدها إلى قضيبي. نفرت منها، تحولت إلى أخرى أكثر رشاقة وفتنة، وجدت يدي تلتف على حقوها، استأنست لي، ثم تمسكت بي، حتى غصت ذاتي في لدانة مفاتنها، صارت تقبلني وتسحب بي نحو تلك الغرف المليئة بأسرار الوحشة. لكني تأسفت لها بعد أن عدت لذاكرتي، تذكرت عصا سهير والمكان الموبوء بالأمراض الفايروسية والجنسية من هربس وإيدز وسيلان وامراض زهرية والتهاب الكبد...ووو.. الخ.. بقيت تتوسل لأجاريها حتى عجزت؛ عندها تركتني غاضبة وهي تنظر إلي نظرة شزره بعينيها الفيروزتين.

عدت للمرقص أمارس لعبة الغواية، فتنت بي سيدة اربعينية، غير أني نفرتُ منها هي الآخرى، كونها عفرت وجهها بكم هائل من ألوان المكياج، ما أن ساح العرق المنز على ملامح

الوجه؛ حتى بدت أشبه بلوحة عبثية سريالية، كانت تود إخفاء خطوط العجز في وجنتيها وتحت العينين إلا أن الجهد الذي بذلته فضح سنها.

مع أن المرأة بمسحة شفيفة من المكياج تستطيع أن تستقطب الرجل، إلا أن بعض النسوة يتهنَّ في تخيل ميول الرجل، يبالغن في صبغ وجوههن، فيضعن في التعبير عن أذواقهن والتغيير الذي يردنه.

بعد أن أجهدت ذاتي وبان التعب في وعلى الجسد، سحبت ذاتي، تركت صالة الرقص متجها للحمامات لاغتسل، وجدت سيدة هاوية في ممر الحمامات تحت رائحة النشادر التي تعط منها وهيَّ غارقة بضحكة هستيرية.

هكذا دواليك تجولت بينهن، مررت على تلك وتلك حتى عجزت وشعرت بالقرف والملل وهن ينزعن كرماتهن، هجست بهنَّ أبقارا كأبقار السويد لفرط سمنهن سوى قلة منهن يتمتعن بالرشاقة.

قضيت في الملهى مدة ساعتين من الزمن، قرفت الحالة بعد أن تشبعت بالصور المقرفة، كان بإمكاني ممارسة الجنس مع أي منهن، لا أنسى تلك السيدة التي تمسكت بصاحب البقالة المجاور للملهى، تبغي ممارسة الجنس معه في الشارع، فيما كان يحاول إبعادها وطردها دون أن يفلح؛ حتى مضت مع شخص آخر من الخارجين من الملهى.

كانت لعصا سهير وعهدة زوجتي يرافقاني في الملهى، لهما دورا في تهذيبي وتجاوزي حالات الدناءة المتبادلة بيني وبينهن في تتبع ظني، صارت توهط الذات بمجرد ان أسهو خارج حدود اللياقة والمنطق. صار الورع يعطر الذهن إذا ما اجتنبتني الهيافة لدروب التسكع والرذيلة.

كانت فترة إجازة واستراحة واستكشاف وتبديل صيغة الحياة، فترة تغيير واستطلاع، تنفست بها هواء الحرية المنفلتة، عشت خارج حدود الكون الذي أعرفه، تعرفت خلالها على جزء من عادات وتقاليد المجتمع الغربي المناقضة لعاداتنا وقيمنا، فقراتٌ تجربة أضفتها لتجارب الحياة التي مررت بها.

الأثنين

2017 /10/16

9- العقربة

من خلال تلك الأحداث التي مررت بها في تركيا واليونان شعرت بأن الشيطان كان قد وضع غره في صحني، صار يلاحقني، يوسوس لي، يفرش بساط الفرص أمامي لانجرف وانحرف عن المسلك العام الذي تعودتُ عليه، يدعوني إلى التبجح خلف العلل، يدفعني إلى الانزلاق في وهدة الموبقات التي كلما حاولت أن اتحاشاها تتفتق مسالكها أمامي، أجد نفسي في بؤرتها دون إرادة. هكذا تعرضت لوازع أعمى بسبب ابتعادي عن زوجتي.

في كل أقداري وفي كل بقعة من كياني وفي كل نقطة من ظني وتوقعاتي أجده شاخصا أمامي، يحرك لي ذيل الفتنة فيغريني ويغيرني، يقودني، يحرضني على الولوج في معترك الوله والتحرش. نفسي اعرفها، هيفاء، أمارة بالسوء، لا تصبر على سقم وجور، ولا تحتمل بهتان وهذيان وجد، تقف مبهورة أمام سلطان الأنوثة، عاجزة على تجاوز حدها، حيث تجد في شمس الأنوثة دفئا ينتشلها من تيهها ودفقا يذيب شحومها ويزيح شجونها، لذا دائما ما تختض بجاذبية انثى فتفقد تركيزها بهذيان زهري..

حالة مريضة تلوك صفاء ظني وفكري برغاء فرص الفحش والمعصية، أي أني أجد ذاتي دائما في طور التحدي أو طور التجارب للذات الأبية دون إرادتي، لذا أهجس بنفسي أضحت

مريضة بزهايمر الحب منذ فراقي زوجتي، وكأني واقع تحت ضغط تأثير برج النساء.

فعلا صرت لا أشعر بذاتي إلا وأنا منجر خلف ضعفي وهواني مع ولوج طيف زوجتي في مفارق مخيلتي، بحيث أينما أذهب أجد صورها تتلبس النساء اللاتي اقابلهن، تجذبني إليهن. وكأنَّ هذا السخط من سخرية القدر تتلاعب به معطيات تستشيط أعصابي، طاقة استثنائية تجذبني لمفاتنها بقوة مغناطيسية.

سحر ما، أهجس به كلمعة العقيق يتموج فوق بشرة النساء، يتلون بلغز صفاتهن، هكذا هيَّ حالتي، حالة قدرية تسلط الضوء على ضعفي، فأستشعر بمغناطيسية الأنثى تجذب مشاعري وأحاسيسي، تثير أعصابي، تلوك ذاتي بوحل الشغف. أجد ذاتي تستسلم لسلطانها بمحض إرادتها؛ وكأنها تجتثني من صلبي، فأنقاد خلف أضواء فتنتها كطفل لا يفقه شيئا عن الخطورة. لذا صرت أهفو خلف كل جميلة دون وجل، فأتوه بفكري وعقلي بين اطباقهن بحثا عن اللذة والسعادة.

حين أجد نفسي وحيدة، أتبعهن برجاء، رغبة بمقارنتهن بما تملك زوجتي من سحر وفتنة. عندها لن أدرك ذاتي إلا حين تلسعني عصا الضمير على حين غفلة. كثيرة هي الأحيان التي أجد بها ذاتي مسيرة في خياراتها خلف وهم، بت أخاف على

نفسي من شرورها، من أن تزج بي في جب عقد ليس لي به طائل.

لرهافة روحي بت أخاف تجني الفتيات اللاتي أصادفهن في الطرق، لذا حين رجعت للفندق بعد أن أنهيت مشواري مع كريستينا، تفاجأت بأخرى أشد فتنة منها تجلس في باحة الفندق، وكأنها على موعد معي قبل أن أشد الرحال إلى السويد في السادس عشر من أكتوبر 2017.

ما أن دخلت باحة الفندق؛ حتى وجدت فتاة ثلاثينية غاية في الرقة والجمال تجلس في مقدمة الباحة على كرسيي منفرد وعيناها شاردتان نحو مدخله، ترتدي بلوزة شفافة سوداء نصف كم، تحلق رقبتها سلسلة ذهبية تتجلى بصليب صغير يغزل مفاتن صدرها البض، يرفأ في وادي النهدين ببروز واضح كشعلة تضيء صحراء صدرها، خاصة مع ضغط رف حمالة الصدر على جانبي الثديين يخلق منها تضاريس جذابة ككثبان الرمل في مشهد يندى له.

جذبتني لجانبها؛ هجست للنهدين ألسن تحاكي شبق العين بجدل فاضح، قاسمتني الرواء بذلك الحوارْ، تمادى الحوار بين العين والنهد بلغة صمت رخيمة، لقد غررت بها كمراهق يتأمل الأنوثة الذائبة في تكور الحلمتين وطراوة الهضبتين ولون البشرة الخمرية.

الفتاة مغنجة بجاذبية صماء، ترفأ بحسن ملائكي شفاف، تجلس في مدخل الفندق وكأنها تنتظر خبرا على أحر من الجمر، لم تعد لها صبرا ينتشلها من المأزق التي هي فيه. وجدتها تود التشبث بعنق الداخلين للفندق.. ما أن دخلت للفندق حتى لفتت نظري؛ حتى هجست بها لسعتني بنظرتها وفتنتها. مع تخطي عتبة المدخل انجذبت لها، كعقربة أفرزت سم فتنتها بالجسد، لما فيها من سحر وجاذبية.

شد نظري الصليب المحلق برقبتها، خلتُ عينيَّ طيرا هفا إلى واحة الصدر، خلتهن يسرحن في فضاء الفتنة بشبق مذل أخرجنني من حقيقة كياني وشخصيتي كعابث لا يبالي بالقدر. تمنيت أن تكون روحي ذاك الصليب المغنج بالأثداء. بحيث ما أن دخلت الفندق؛ حتى استقطبت نظراتي ملامحها الأخاذة، المدهشة، جعلتني اتحرى عن لمعة الصليب وبهجة الصدر، عن فيض السحر المراق بها والمنعكس من البشرة.... كأنه عكس الفتنة المشعة إلى عيني، فأرسل لي إشارة استغاثة، لأنتشي ضوء ذلك السحر قبل أن ينوء السحر لمجانة القدر، قبل أن تجعلني أميس الرغبة بتلك النهود بحرشة تفقدني صوابي.

من خلال جلستها على كرسيها المنفرد، علمت بأنها ليست على ما يرام، كمن يكمن في صرتها قلق ما، هجست بها مهزوزة، حائرة، كفراشة تحاول تجنب ريح يستفزها قبل أن

تستقر على وتد رغبتها، تخفق بنظراتها بعيدا عن الأجواء، سر ما شاق ظرفها، جعلها تستغيث بمن يدخل الفندق.

لانبهاري بها هجست بها وكأنها تحمل بعطفة صدرها قطتين من الفراء الفضية، تداعبان قميصها اللدن برهاوة. رغبت ذاتي مداعبة تلكم القطتين بالفطرة، لما فيهن من جاذبية وغواء.

كانت الفتاة منعزلة بوحدتها، تود التعلق بتلابيب شخص يعينها. لذا حين دخلت الباحة؛ التفتت إليَّ راجية أن أجل عنها ذلك العناء والعبث، أن أجيبها عن سؤالها، حيث قالت:...

- ممكن أستخدم هاتفك للحظة، كأنَّ هاتفي قد فض شحنه.

استجبت لها بسرور وعيني منصبتان على طراوة الثديين، فقلت لها والرغبة جامحة في ملاطفتها:....

- تفضلي يا سيدتي....

أخذت الهاتف وفي ثغرها ازفت ابتسامة لطيفة، صارت تطرق رقما ما مسجلا على ورقة في حافظتها، في محاولتها المتكررة لم تجد استجابة آنية، كأنَّ الهاتف المراد حثه جنح خارج نطاق الخدمة الشبكية... حينها كنت أنظر بنهم لتدفق مفاتن صدرها المغنج بحيوية تطابق نزق صدر زوجتي، تلك التي لم تزغ حدقي عن نضارتها.

بقيتُ شاخصا كالوتد، أعاين على فراء القطتان المخفيتان تحت حمالة الصدر، طفت بأروقة الفتن بشيء من الجرأة وعدم المبالاة، شعرت بأني دغدغت زغب مشاعرها، وكأنها انتبهت للحظة ما على فجاجتي فاستلذت بانبهاري. لكنها بقيت على رصيدها ووضعيتها دون حراك أو مبالاة، لم تغير من شكل جلستها، هكذا تراءت لي حمامة تستكبن على وتد.

لا أدري أن كانت قد أدركت ما كان يجول في خاطري أم لا؟

لا أدري أن كانت تعمدتْ إبراز مفاتن صدرها أم لا؟

لا أدري أن كانت بذاتها تهجس راحة بسلوكي وعبثي أم لا..

لكنها تصنعت اللامبالاة.....

وبعد تكرار محاولتها أعادت إليَّ الهاتف دون أن تنجح محاولاتها، حينها قالت لي بلكنة إنجليزية:..

- شكرا.... الهاتف لا يشبك.
- هل من خدمة ممكن أن أسديها أليك...
- تأخرت عن المطار وسائق التكسي الذي تواعدت معه لا يرد، وأني أخاف أن تقلع طائرتي.
- متى موعد طيرانك؟
- بعد ساعتين.

- جميل جدا؛ أنا خلال عشرة دقائق أغادر الفندق للمطار، على قدر تهيئة حقيبتي، أن كانت لك رغبة بمرافقتي أكون سعيدا بذلك.
- عظيم، شكرا لك، إذا أنا بانتظارك..
- وهو كذلك.

تركتها متجها لغرفتي لأضب حقيبتي، وقلبي المسكين بات يخفق بشدة وكأنه خرج عن طوره، ما عاد يبطل اضطرابه، ظل في سره يتبع فتنة تلك العقربة، يسرد لها جنونه كآلة مورس مضطربة، بات يطرق أذنيَّ بسرعة نبضاته الخلجة، مستفسرا عمن تكون تلك الآفة:....

- ترى لِمَ لمْ تستعن بأحد من أفراد الفندق وهؤلاء الزبائن من الزوار قبل أن أدخل للفندق؟ ؟ هل فتنت بي، أم القدر قادني إليها؟....

سؤال صار يغز فكري، يحرف ذهني، يدور في رأسي كطائر النوق يود أن يقتنص الحقيقة، زرع شكا في ذهني وأنا أضب حقيبتي بعجالة.

في الحقيقة لم أنتبه على مفاتن وجهها إلا بعد أن عجزت عن مهاتفة سائق التكسي لما لصدرها من ألق، عندها رفعت رأسها وشكرتني وفي حدقات عينيها نظرة رجاء لم أفهم لغزها في حينه، لكني كنت سارحا في لطافة تكور عنجرة النهدين، تلكم اللاتي شغلنني عن عالمي، نقلنني إلى حيث

الصمت والوله. لخمرية بشرتها الملساء و بريق سواد عينيها جاذبية فتاكة.

لم أخفض نظراتي عنها قط، ولم أخجل منها قيد شعرة، لقد ركب الجنون ذهني، وكأني صرت لا أهتم لما سيصدر عنها أو سيدور بيننا، وخاصة كنت جانحا في فكري خلف المجازفة باللحظة التي كنت زاحفا بها إلى المطار... لحظة ركبت بها ذاتي البلادة، جهرة النية فيها، بدت غير مهتمة لما سيجري وسيؤول. وقفتُ أمامها كشاخص سليط لا يهتز، أبغي أن أسمع منها صوت قطرات المطر، وكأني اكتسبت الجرأة من (النايت كلاب) ومن لمعة الصليب في الصدر، ليلة شحمت فكري بالغي وعدم المبالاة.

ما أن شكرتني حتى انتبهتُ على مفاتن وجها، تلكم المفاتن التي أوحت إليَّ بعذوبة سحر الشرق، وصفت لي ربيع المفاتن، وجدت في سواد العينين ألق نابض. وفي شعرها الفاحم أناقة تواكب سحر الثديين. لأنفها طلة جبل سلطان على الوجنتين والشفتين المغنجتين بالرقة، لأناقة قوامه يضفي كاريزما جذابة على مساحة الوجه، يوحي للناظر بشيء من الأبهة والكبرياء. الفم مؤطر بشفة واسعة، مغنجة بطفح قرمزي داكن ملؤها حيوية. خيلت إليَّ من دول البحر المتوسط. رقة الأثداء جذبني إليها في بادئ الأمر، حسبتها أثداء زوجتي.

عند نزولي من غرفتي، وإذ بها تنظر إليَّ نظرة توسم، يكتنفها شوق ورجاء. لمست في حدقات عينيها تعابير وله شيطانية مشظة، تتقصد قيافتي وشبابي. هالة غريبة من الجاذبية وشحت قامتها، وهي تقف بجوار كرسيها، تشعر بها كأفروديت أثنا، تضفي على ذاتها جاذبية ساحرة، لرهافتها وجميل قوامها الرشيق..

لاحظت ذلك وجعلت ذاتي غير منتبهة، أغشيت مشاعري في داخلي تماما، وأن لاحت تصرخ في العلن.

قبل أن أدخل الفندق كنتُ قد اتفقتُ مع سائق تكسي أن ينتظرني أمام الفندق ليقللني لمطار أثنا، كانت لوازمي الشخصية قد جمعتها مسبقا في حقيبة صغيرة سوداء، سوى أدوات الحلاقة وفرشة أسنان دسستها في جيب جانبي، ثم حملتها على كتفي... وحين أدركتها؛ وجدتها تزيدني طولا بقدر نفاش شعر رأسها الأسود.

استقبلتني بلهفة وبابتسامة ساحرة، سحبتْ حقيبتها الحمراء التي كانت قد أخفتها خلف كرسيها، وهي حقيبة متوسطة الحجم لا تزيد عن حجم حقيبتي.

خرجنا من الفندق معا، توجهنا إلى عجلة التكسي التي كانت تقف إلى جانب مدخل الفندق. ركبت إلى جانبي في المقعد الخلفي. هُيء لسائق التكسي الذي لا يجيد الإنجليزية بأنها زوجتي.

في مشوار الطريق كنت قد تعرفت عليها، مسكت يدها، عصرت أناملها التي كانت بنعومة فراء القطط، حاولت أن أقبلها، لكني تذكرت عصا سهير التي تركتها معي، تذكرت عهدي لزوجتي على حين غفلة، وكأنَّ تلك العصا هفتت على رأسي فتجنبت المجازفة بعيدا هذه المرة.

الفتاة من أصول إيرانية، متوجهة في رحلتها إلى ألمانيا، حيث تعمل موظفة في شركة سيارات مرسيدس المعروفة منذ ثلاث سنوات، كانت في جولة سياحية في دول الساحل المتوسط، حيث ابتدأت من إسبانيا وإيطاليا ثم اليونان، أما مسألة الصليب فأنه لا يعني لها شيء، أنه مجرد موضة ولا يدل على حقيقة انتمائها للدين المسيحي، حتى أنها لا تهتم لإشكاليات مسألة الدين بشكل عام. ربما تكون مجوسية المذهب أو ملحدة، ربما أدعت المسيحية في المانيا لتُمنح إقامة في أوربا والتي تخفي تحت قناع الإنسانية وجهها العنصري..

خلال الطريق كنا قد تبادلنا أرقام هواتفنا فيما بيننا، قلت لها وأنا أبغي وصلها ونيلها:..

- جئت لأبحث عن استقرار في أوربا، سأجرب حظي في السويد يا ليلى، في حالة عدم توفيقي، سأحاول الكرة في ألمانيا لأكون قريبا عنك.
- السويد بلد استقرار، ألمانيا بلد عمل، لكن لا تظن أن تجد راحة بال بعيدا عن الوطن الأم، ومع ذلك سأكون في خدمتك متى قدمت يا مناف.

- أن شاء الله.

كنت قد أغششتها باسم مزور كما كنت أفعل مع باقي النساء اللاتي صادفنني، تقبلت الوضع ووجدت ذاتي تميل لها ميل الغصن لشاطئ النهر حيث مجدتُ في أنفها فنار فتنة ومحبة زوجتي.

عندما وصلنا المطار ودعتها وكلي أمل أن ألتقيها يوما ما، وقبل أن تفارقني طبعتْ على خدي قبلة، فيها من الحرارة واللاذعة ما تجبرني على تغيير وجهتي، ولكني كنت محكم بتذكرة السفر وجواز مزور، اقتنيته من صاحب المقهى أنفا.

على أية حال، تركت تلك القبلة أثرا على الخد صعب أن تجلا كالغمازة التي نتغزل بها، لما لها من دفء وشبق، بقيت تشهق بطيب أنفاسها حتى حين... حينها أعدتُ لها قبلتها بقبلة لا تقل حرارة على الخد والشفة؛ حتى استمالت بنا الأشواق لغاية التجني، حينها أسرتها قائلا لها:.....

- لك شفة من نار وصدر من مرمر لجماله وسحره.
- شكرا لإطرائك...
- لا أظن أطيل البقاء في السويد، قبلتك هذه ستقودني أليك قريبا.
- وأنا سأكون بانتظارك.

قالتها ومضى كل منا لوجهته، بقيت نظراتنا تلاحق بعضنا، وبقيت تلك القبلة التي شطرت الذهن وشطت الروح تستعر

على الخد، تفيض حافظة القلب إلى التنهد والعناء خلفها. كأني لم أرَ أنثى قبلها قط، بقي طيفها يدور في فلكي ككوكب يسطع في الذاكرة.

مع وداعها كنت قد أغلقتُ رتاج الذهنِ والقلبْ عن جميع النسوة من حولي إلا زوجتي، وأنا أقطع تلك الأجواء الغائمة، متأملا أن التقيها ثانية....

بقيت مسترخيا اتصفح لحظات الصمت والذهول التي قضيتها وأنا أتأمل وجهها بشوق ورغبة، متقدا بنار تلك القبلة السليطة التي جمعت غُرز إبر الشوق في نقطة تجعلني أنحرف في تفكيري نحو مفاتن جسد كل أنثى. بقيت القبلة متوهجة في مكمنها حتى أدركت ثلوج السويد دون أن تبرد نيرانها، لصخبها وألقها ورونق وجهها. مما جعلتني اخاطب زوجتي لأنسى همها ووقعها. أرسلت لها رسالة استغاثة وود، حتى استكانت روحي على نار الشوق.

10- السويد

ما إن وصلتُ ستوكهولم قرابة الساعة الثانية ظهرًا، حتى انقلبت أحوالي الفكرية والنفسية رأسًا على عقب. تغير كل شيء أمامي، شطّت أفكاري، وانكمشت شجوني، تبعثرت هواجسي ومشاعري بين غابات الاشجار. لم أعد أمسك بخيوط الماضي من يقين وظن، حتى الجو بدا لي بصيغة منافية لما تعودت عليه، تلك الرطوبة الخانقة والحرارة اللاهبة التي تعودت عليها؛ انكمشت بجليد وزمهرير المكان الذي وطأته والموشح بالوحدة والكآبة.

ما إن نزلت من الطائرة بعد أن تجاوزت الشمس خط الزوال، حتى بدأت أفتش في جوف الحقيبة عن سترة تقيني لسعة الريح الباردة الناشزة. وجدت نفسي أغور في جوف الجليد وأنا أتخطى غابات الأشجار الخضرية والنفضية على طول مسار الطريق، طوفان المروج بين خلجان البحيرات، لا صحارى فيها ولا كثبان رمل، أنها الجنان الملبدة جبالها بالجليد وسهولها بالخضرة والورود والبحيرات والعيون المتدفقة.

وأنا أتأمل تلك البقاع المستفيضة بالحياة، تهجس بالخضرة الممتدة فوق البقاع كبحر من المروج، وتلك البحيرات مراكب سفن عالقة في بطون تلك الخضرة.

علما السويد تحتضن قرابة ثلاثة آلاف بحيرة. هذا المشهد شجعني على تقبل فكرة الهجرة، والبحث عن استقرار في بطون تلك المتاهة من الغابات التي اخترقناها بعجلة التاكسي، حيث كانت الشمس تختبئ خلف أعمدت اشجارها.

وصلتُ عند أصيل ذلك اليوم إلى مركز دائرة الهجرة في مدينة (فلين Flin) التابعة لمقاطعة صُرم لاند SurmLand، لأقدم نفسي هناك كلاجئ. وفي صباح اليوم التالي، توجهت لدائرة الهجرة لأدون معلوماتي وأبصم عليها، بعدها تم تحويلي إلى كامب "صولبكا solbeka" جنوب ستوكهولم 150 كيلومترًا، لأستقر هناك مدة سنة ونصف، أعاني خلالها من الوحدة والمشقة والعذاب.

في ذلك الفضاء الواسع من الفراغ، لم أستطع أن أوفق بين اعتلالات الرغبة وتأويلات الفكرة التي جئت بها، وبين القدر والزمن الأهوج الذي استقبلنا. بقيت أعاني الغربة، بين فجاجة الظن الخائب، والروتين القاتل من جهة، وتشتت الفكر وعدم الاستقرار من جهة أخرى.

مرت تلك الفترة على الجميع بشق الأنفس، حتى صرت أعد الأيام بالدقائق والثواني، لقسوة العقد التي زرعتها دائرة الهجرة في طريقنا. الوحدة توافقت مع عقد دائرة الهجرة، نغّصت مشاعري وأحاسيسي، رغم أن الكامب كان يضم أكثر من 250 فردًا من جنسيات مختلفة، معظمهم من الجالية السورية، إلا أني كنت أفتقد زوجتي إلى جانبي.

كانت فكرة الهجرة قد طرأت على فكري بشكل عبثي، أخذت الفكرة وصرت أتمعن بها بشي من عدم المبالاة، وكأنها لعبة شطرنج وددت أن أخوض تجربتها، وضعتها تحت التجربة مسليا ذاتي بها. اطرق بها ظني فترتد إليَّ بشيء من الرجاء واليقين، هكذا دعبتها وداعبتني، أعجبت بفتنتها كفتاة عشرينية رقت لي، واستكانت في روحي وبالي، فأيقنت أن التغيير والاستقرار في بلاد الغرب قد يكون خيارًا جيدا وجادًا ومصيريًا.

دخلت في متاهات المقارنة بين الوطن والمهجر، بين الإيجابيات والسلبيات، فتكشفت لي جوانب من الجور والعجرفة، أيقنت بأن الاستقرار في الوطن بات معضلة، وأن الهجرة ليست جنة استقرار مثلما كنت أتوقع أنما مجرد تخدير أعصاب، تحولت لقناعة وهدف بحثًا عن الأمان والهدوء بعيدا عن عقد الوطن..

لكن ما إن تعمقت في حيثيات الموضوع، حتى دخلت في متاهة العقد، تلاشت الغاية والرغبة والهدف، لفظتهما خلف قرص الشمس، لما في الطريق من تعقيد بالغ. لم أعد أستدل على طرق السعادة إلا بقناعة العودة، ولم أختصر المعاناة إلا بشق الأنفس، حتى نسيت هدفي، وصرت أبحث عن ذاتي وقدري اللذين سحقتهما دائرة الهجرة في ادراج الزمن.

عانينا في أوطاننا من التشتت والعبودية، فدفعنا الواقع إلى البحث عن الغاية والهدف، عن صيغ جديدة تكفل لنا الحياة

والحريــة والاســتقرار. ومــا إن تجاوزنــا حــدود الــوطن، حتــى شـعرنا أننـا أخطأنـا التقـدير، تركنـا صـرة الـوطن بيـد اللصـوص والمحتلـين. فيمـا بعـد الغربـة كشـفت لنـا تناقضـات الأمـور، لسـعتنا بنيرانهـا، أظهـرت لنـا حجـم النظـرة العنصـرية التـي يُنظـر بهـا إلينا الغرب.

كما يقول المثل: "من ترك داره قل مقداره".

بـتُّ أسـير خلـف الظـن وهـوس الرغبـة، أدخـل الأسـواق والأزقـة، أجـد نفسـي تسـير بـلا إرادة، بـلا هـدف، فـي متاهـة لا تنتهـي. كنـت بحاجــة لكــل شــيء: للصــحبة، للنســمة، للبســمة، للــروح، للألفــة التــي أشـتاقها، للطيـر والشـجر والمطـر، للخبـر ومنغصـاته، للألـم وحســراته، لصــوت اليقــين، للأغــاني العراقيــة الدافئــة، وحتــى لأدوات المطــبخ والحمــام التــي تزيــل عنــي همــومي النفســية والفكرية.

مـع أنـي محتـاج لكـل شـيء؛ فلـمْ يعجـبنِ شـيء أقتنيـه، مـا كـان يشـغل البـال قـد محـى جدليـة الرغبـة عـن الفكـر والقلـب، لـمْ أعـد أعجـب بالمنـاظر والعمـران والأشـياء المعروضـة فـي الأسـواق، لـم تعـد أصـداف النسـاء ولآلـئ صـدورهن تغـزل عينـي لاسـتوعب مغريـات فكـري. كـأني لـم اشـاهد شـيئا يـذكر ممـا كـان معروضـا أمـام نـاظري، سـوى تلـك المفـاتن التـي شـغلت بـالي وذاكرتـي مـن مفاتن حبيبتي وزوجتي.

كأني كنت أجري بشكل افتراضي بخط مستقيم معاكس للرغبة والهدف، في مسار يؤدي إلى قوس العقد، في واقع ظني كنت أجري كثور أعمى بصحراء قدري دون فِكَر، حيث لا واحة أسرتنِي ولا شجر آواني. لذلك بت كالأعمى في الطريق، كلما أشاهد أنثى أتعلق بتلابيبها، أود مرافقتها، مجامعتها، لشرود فكري في أتون الفراغ والفتن. بصريح العبارة كنت أنغمس بتلك المباهج دون وعي، دون رغبة حقيقية؛ حتى اتخيل كل جميلة هي بمثابة زوجتي، فأنغر بلمعة السحر ولسعة الحسن، فأتبع مجرى صمتي وشرودي بمغامرات مريضة.

هكذا غشتني الحالة وكبرت في ذهني الفكرة؛ حتى تجاوزت بها أفق ظني لأصلُ إلى قدر لم أخطط له، كأني وددتُ أن أستخلص ذاتي من شر العقد فتلبست بها دون إدراك مني.

كانت أحلم بالهجرة، بوطن بديل، بمستقبل أكثر رحمة. لكن ما رأيته بأم عيني، وما لمسته من تعامل، كان نقيض الإشاعة، نقيض الحلم. لم يكن سوى ضبابٍ ماجٍ في سدم التيه، زاد شكي، وأرهق فكري، حتى شعرت أنني فقدت وجودي.

في الأسواق، التمست لعنة الوحدة، قسوة لا تشدني إلى مغريات المادة، لا تبهج حياتي، بل تذكرني أن لا شيء له بهجة دون وجود زوجتي. هي وحدها من تزح هالة الضباب عن حدقي، تنسيني همي وارقي، تعيدني إلى ذاتي التي افتقدت صفاتها في ذلك الفراغ الذي يؤرقني.

حاولت أن أواكب الحدث، أن أهيئ الظرف لمشواري، لكنني وجدت نفسي كاللحظة المارقة في ذلك الهباب، ما أن تولد حتى تحترق بشواهد الزمن، لتنتهي بولادة لحظة جديدة لا تطابق مهجي. هكذا صرت أنط على أعتاب الزمن بين أقدار متنافرة، أنتقل من فكرة لأخرى، حتى ضعت بين شتات الفكر وغربة الوطن وتحديات القدر.

حينها فكرت بالعمل لأتجاوز وهني، لأتحرر من قيد الهجرة، وأعود لزوجتي. وأحياناً تراودني فكرة الزواج بثانية، لا لشيء، سوى أن أنسى هم الغربة ولتجاوز عقدة الإقامة. لكن ما أن تثار الفكرة، حتى تتبخر بنار الأشواق، وتذهب مع صفير الريح.

لذا صرتُ أنجرفُ خلف علاقة شكلية، عبثية، مع أي فتاة تذكرني بمفاتن زوجتي، فقط لأقتل الوحدة وأذيب ثلج الفراغ. أو أبحث عن فكرة جديدة تشغلني: كتابة، سفر، رياضة... أي شيء يبعدني عن لعنة الفراغ.

في كامب السكن، لا إرادة لنا، ولا سلطان. الجميع مسيّر حسب نظام صارم، مشمول بسقم الوحدة وبالفراغ الذي يبتلعنا. كان الكامب أشبه بسجن مفتوح، الزبون هو السجين والسجان في آنٍ واحد.

وجدت في مشواري عقد شتى، كلما تقدمت خطوة، تراجعت أخرى. وجدت نفسي متقوقعة كحجر في مكانها، تحولت إلى ماضٍ لا يغادرني. لم تنصفنا دائرة الهجرة، كأنها ليست لها

علاقة بالإنسانية، لا تود منحنا الإقامة ولا دراسة ملفاتنا، ولا تترك لنا فسحة للاتزان والعمل.

الظرف لم يعد يخدمنا فصرت أقتصد في المصروف لغاية أن تفرج أوضاعنا، بت أتجول على البحيرة وفي الأسواق أبحث عن لغز النسيان، اقتنيي بعض مستلزمات المطبخ كإبريق الشاي وطاوة قلي وعلبة شاي، وعلبة سمك سردين. لتعيننيي على الفراغ بالطبخ والصبر. مع ذلك تعسرت الحالة، أدركت بأن المعضلة لا تحل إلا بتواجد زوجتي. فصرت أبحر في بحر من الخيال لأصل إلى شواطئها، أبحث عن أصداف الذكريات، عن لحظات الألفة التي خبت أضواؤها مع البعد.

قبل أن أغرق في سبات الليل، تنحدر بي أفكاري إلى واحة اللقاء، أتنقل بمراكبها بين خيال وحقيقة وخيال، حتى يغشيني الأرق بشواطئ زوجتي، فيقشعر الجسد أمام هاجس البعد المفروض على نفسي، فأظل ساهد ليلي بهجوع كطوية ذاكرة لا تجد في فحواها أمل. لذا أصبحت في أموري الشخصية كثير النطس، وبالذات في اتخاذ القرارات المصيرية.

بات الروتين جزءاً مني، يجلدني، يربك سلوكي. صرتُ أجهز العشاء دون رغبة، أصلي، أتصفح الصحف والمجلات، أتنقل بين صفحات الفيسبوك واليوتيوب، أتابع الأخبار، أشاهد مباريات كرة القدم، أو أغرق في أفلامٍ لا تنتهي. كل ذلك وفيض الفراغ لا ينتهي من عالمي، مستنقع نعوم به.

في البداية، كنت أتصل بزوجتي كل يوم، لكن مع مرور الزمن، خف الحديث، وبهتت الأشواق. صار الاتصال يأخذ منحا مغايرا لمجرى العواطف، صار أسبوعياً، ثم شهرياً، كأنَّ الفراغ بيننا تمدد حتى ابتلع دفء العلاقة والعاطفة. بسبب الجفوة والحديث المتكرر، لم تعد هناك نتائج مفرحة تبرر الرحلة، ولا شيء جديد في العلاقة يبهج ورود المودة، أضحى للبعد نارا تحرق كل فكرة، صار الجسد يريد التماس البشرة، والروح تريد التصاق الانفاس، لذا صار اليوم ثقيلاً، والحياة بليدة لا حيوية فيها.

ومع ذلك، قبل النوم، كنت أكثر الأحيان أحرص على استقراء أحوالها، أطمئن على صحتها، وأشغلها بشيء من عبثي وأشواقي التي لا تهدأ.

- الو:
- هلا...
- كيف أحوالكِ، حبيبتي؟
- بخير، والحمد لله. وأنت؟
- وصلت السويد، وأنا بخير، كل هذا الجمال والمروج والبحيرات ولا أشعر بها، يؤلمني بعدك، اشتقت إليك كثيراً. لو كنت أعلم أن الفراق سيطول، لما هاجرت. أحبك.
- اصبر، بعد كل عسرٍ يسر. الله لا ينسى عبده.

- نعم، لكننا تسرعنا، أو أخطأنا. لم نحسب حساب العقول الجامدة ولا صقيع الثلج. كنا نتوقع تتيسر الأمور أسرع مما نظن، الطيبة والعفوية غلبتنا، لكن شعوب أوروبا لا قلوب لها. أفكر بالعودة كل يوم.
- لا تفعل، فالوطن يشتعل. تفجيرات الكرادة أودت بأكثر من ألف مغدور بين شهيد وجريح. لا استقرار هناك.
- وماذا عن يومك؟
- ذهبت للخياط، استلمت عباءتي وقميصاً جديداً، واشتريت لوازم الغسيل.
- أحسنتِ. يجب أن تلهي نفسك، يجب أن نقاوم الفراغ.
- اتصلت بوالدتي وأخواتي، وهي تسلم عليك.
- وعليكم السلام. قبّلي الأولاد نيابة عني، فأنا مشتاق إليهم.
- لا تقلق، لن أتركهم. عليّ الآن تحضير دروس الغد وإكمال تصحيح أوراق التلاميذ. لنؤجل الحديث للغد.
- حسناً. مع السلامة.
- مع السلامة.

مضت أيامنا على هذا الشاكلة والنحو الرتيب دون بهجة. شحت الأحاديث، وصار السؤال لا يخرج عن نطاق الحال الصحة والأحوال. قلت المجاملات، خف بريق الألفة، بهتت العشرة والمجاملة، أصفرت أوراق الحياة. صارت الأخبار محصورة بالكوارث والمآسي، تبخرت عبارات الغزل خلف معاناة الذات.... شغلتنا الزلازل والفيضانات.. قرأت اليوم عن

تصادم قطارين في صعيد مصر راح ضحيتها العشرات، انفجارٍ في مدينة الثورة لم يسلم منها الأبرياء، والفاعل مجهول كالعادة. هكذا نتابع أخبار الموت والدمار، فتغدو النفس مثقلة بالغثاثة.

يقيناً، ما كنت أهاجر؛ لو وجدت فرصة سلام في الوطن. لكن الظرف ألقى بثقله في حجري، لولا الخوف الذي رسم دوامة الشك في ذهني، ما تصنعت حجج الهجرة ولا تكدست الأمور وانزلقتُ في دوامة العقد.... صرنا نطفو على حياة بلا ركائز، كقاربٍ تتقاذفه زنقة الأفكار. حياة مظلمة بلا فجر، دفعتنا للمجازفة دون تخطيط، حتى وجدت نفسي اتبع ظلي خلف بساط الهجر.

11- التياه

بعد رحلة شاقة امتدت لعشرة أيام، وصلتُ إلى السويد. كانت رحلة طويلة، جزلت أفكاري، وأرهقت ذاتي، وأوهنت جسدي، قضيت جلها بين مطارق الطرق، أتأرجح بين التأمل والسهو وتهافت وتجاذب، يشكمني العناد ويجلدني الإصرار، حتى تحطمت قلة الأفكار.

ما إن وضعت بصمتي في مكتب دائرة الهجرة، حتى مكثت في كامب "صولبكا" مدة سنة ونصف. كان أشبه بسجن مفتوح، معزول، بعيد عن المدن، في بناء قديم يعود إلى عام 1917، لكنه عامر وجميل في بنائه وطلته، قادر على مقاومة الزمن لألف سنة أخرى. كان قد أُعد سابقًا ليكون أقسامًا داخلية وملجأ للدارسات الجامعية.

تلك الظروف دفعتني للتفكير في المستقبل، ومراجعة وضعي الخاص بطريقة مغايرة لما كنت عليه قبل الهجرة. وجدت نفسي أفتقد الأمل في وسط الطريق، أفتقد هاجس العودة السريعة إلى الوطن، أضعتُ الحلم الذي جئت من أجله، بعدما خارت صلاحية الجواز، أضحى خجولًا بمصاهرة التحدي، لا يفي بالغرض ولابد من تجديده... وهكذا بدأت تنقلب حياتي تحت وطأة ذلك الظرف، وتحت المحن التي تلبستني.

المعاناة التي حملناها معنا عبر سنين القهر والعذاب النفسي، نتيجة تواتر الحروب التي تكبلنا بها، لم تنفك عنا حتى ونحن في ديار الغربة. بات غبار العناء يلتصق بالروح والذاكرة، كما التصق بالفكر والجسد والوطن...

في الغربة، صرت أشبه نفسي بعود ثقاب، بحيث تشتعل جوارحي من همسة أو طيف خيال، شوقًا لرؤية حبيبتي والوطن. من فتنة تطفو في الحدق، أغدو أسير هواجسي. من دندنة تطرب أذني بلحن وموال من المقامات العراقية، من لفتة ذاكرة جمعتني بزوجتي... هكذا تنبز العاطفة خيالي كلسعة نحلة. تلك الحالة جردتني من الوجود إلى التيه، من التقوقع والجمود إلى الانصهار والتبخر والضياع، بتُ كدخان مخنوق في أجواء الغربة، غدت بذاتي ككومة رماد منثور في غابات الغربة، أضحى الواقع ذاكرة متخمرة بالشوق...

لم أستطع تلميع ظروفي، فلم أجد من ذلك العود الذي زرعته في مخيلتي سوى دخان شجن ينفذ من صدري كآهات وحسرات، ترمض حشا الفؤاد بنار الجوى.

لهذا، بدأت ألهي نفسي بأخبار الرياضة والمعلومات العامة، أندمج في صفحات التسلية لأجلي عن ذاتي الهم والغم الذي سطا على أفكاري في لحظات الخواء. أحيانًا أستأنس بالكلمات المتقاطعة، أقضي بها شطرًا من الوقت، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة في القطب الشمالي، حيث تغيب الشمس في الثانية والنصف ظهرًا، وتشرق قرابة التاسعة صباحًا.

صرت أدفن ذاتي بين أوراق الجرائد وصفحات الإنترنت، أبحث عن أي طارئ يخطر في بالي. وجدت في تلك المواضيع فسحة جيدة تسليني، تنسيني زوجتي ومعاناة الوطن. أقرأ ما أجده مميزًا، وما فيه إضافة إلى ذهني، خصوصًا صفحة المعلومات العامة، لما فيها من اختصار وثراء. ومن بين ما قرأت:

- مؤسس الديانة البوذية هو "كونغوس"، كنت أظن سابقًا أن بوذا هو المؤسس، فكانت معلومة جديدة أضيفها إلى صندوق المعرفة.
- مؤسس الديانة البهائية هو "بهاء الله"، تأسست في إيران، وتقوم على توحيد الإله ونشر تعاليم مؤسسها الذي ادعى النبوة في القرن التاسع عشر.
- مكتشف ميكروب السل هو "باستور".
- أكثر الدول التي سرقت آثار مصر هي فرنسا، وأكثر الدول التي سرقت آثار العراق هي بريطانيا، أمريكا، ألمانيا، وفرنسا.
- كل الكائنات تحرك فكها السفلي عند الأكل، ما عدا التمساح، الذي يحرك فكه العلوي.
- الزيت والماء يمكن أن يختلطا إذا أضيف إليهما الصابون، لأنه يحلل ذرات الزيت فتختلط بذرات الماء.

- أثبتت الأبحاث أن تناول الجزر بأنواعه يقلل من خطر الإصابة بالسرطان بنسبة تزيد عن 50% إذا تم تناوله بانتظام وبكميات معتدلة.
- الصندوق الأسود في الطائرات هو برتقالي اللون، ليسهل العثور عليه وسط الحطام، وسُمي "أسودا" لارتباطه بالكوارث.

وحين أملّ من تلك الأخبار، أشغل فيلمًا لأتسلى به ساعة أو ساعتين، أتجاوز بها أزمة الوحدة، حتى يغلبني النعاس، وأغرق في أتون الوسن والكرى.

بهذه الكيفية، أكون قد شطبت يومًا من جريرة الغربة، يومًا يحمل في طياته آلاف الأسئلة عن حجم الازدراء والتصرم الذي نراوح في وحله، نتيجة سوء تخطيط الحكام، وعبث الاستعمار بخيراتنا. حتى صرنا نقرف النفط القابع تحت الأرض لكثرة عقده والحروب التي تلاحقنا بسببه.

في الهجرة، صرنا نحارب من قبل دائرة الهجرة، اشعرتنا بالذل والهوان، نتيجة الأزمات التي تمر علينا. باتت العقد لا تفسح لنا مجالًا للبحث عن فرصة أمان ورزق يكفلنا ويكف عنا إراقة الفكر والدماء. وكأنَّ دائرة الهجرة ورقة من أوراق الاستعمار، فُرضت علينا لفرض زيادة الضغط النفسي على المهاجرين المستلبة إرادتهم وأراضيهم وحقوقهم.

كنت أظن أن الحالة الحرجة تخصني وحدي، لكنني اكتشفت أنها عامة، تدور في خلد كل مهاجر، خصوصًا العزاب والمطلقين، وحتى الأطفال الذين شُرّدوا مع عوائلهم، وافتقدوا حاراتهم وزملاءهم وذكرياتهم. الكل مشرد في داخله، حالهم حال أولياء أمورهم.

وهكذا، صار البعض يبحث عن دفء في حضن الآخر، يلوذون ببعضهم البعض، يقتسمون رغباتهم تحت وطأة الأزمات النفسية، جنحت منال وام ياسر لرغبات محمد وعصام، بينما تاهت رباب في أحضان أخر. فيما الأطفال يبتكرون وسائل تسلية، كركوب الدراجات أو لعب كرة القدم. وقد شكّل قصي وأنس وخالد ويوسف وماجد فريقًا رياضيًا، بينما مارس بعض الشباب رياضة كمال الأجسام في قاعة جانبية، وآخرون وجدوا في صيد السمك على شواطئ البحيرة متنفسًا لأرواحهم.

*****

في الكامب، تعرفت على وجوه كثيرة جمعتنا المصائر، كأبو وسيم، وأبو عبدو، و"ترامب" - شخصية عبثية بخيلة من أهل حلب، تشبه الرئيس الأمريكي في الشكل والهيئة، لذلك أطلقت عليه هذا اللقب. كما تعرفت على "أبو مرق"، الذي كان يُدعى أبو كرم، لكن سمنته وشراهته دفعتني لتسميته بهذا الاسم. خليط من الطهارة والنجاسة، من رجال ونساء، لا يسعني ذكرهم جميعًا، لكنهم كانوا مرآة لحالة إنسانية مركبة.

في صباح اليوم التالي، تبعني أبو وسيم وأنا متجه إلى المطعم، وقال لي كلامًا شدّني، فيه من الحكمة ما يستحق التأمل:

- يا وائل نحن نعيش اليوم في عالم صار قرية صغيرة بفضل الإنترنت والكمبيوتر والموبايل. وأنت، كما علمت، بارع في استخدام القلم والتقنية. عليك أن تستغل هذه الموهبة. صوّر نشاطاتنا، بثّ كل ما يثبت أصالتنا وهويتنا. عبّر عن غاياتنا، عن أهدافنا القريبة والبعيدة. لنوضح للعالم المبادئ التي تربينا عليها، ونثبت أن قلوبنا محبة، وثيابنا ناصعة، عكس ما يصوره الأعداء من تشويه وخداع.
- أنا فعلا أفكر بنفس تفكيرك، لكن ليس بمشروع عام، بل بشيء يخصني. الموت في هذا الكامب ليس فقدانًا للروح والجسد، بل هو سكون مطلق، تجريد للإنسان من عقله ومشاعره، كمن يضع عقله في فريزر الخوف والكسل، فلا يحرك ساكنًا. بعد فترة يصبح مجرد من الروح، خارج دائرة الوحدة التي تجمعنا كعرب، كجماد لا يهش ولا ينش كما يعبر عنه بالمثل الشعبي.
- ذلك بالضبط ما أعنيه، علينا أن نحرر أنفسنا.
- دعنا نبدأ المشوار. أنت بفنك وعملك وأنا بتعبيري ويقيني، وسيتبعنا آخرون.
- وهو كذلك.

الحياة لم تُخلق عبثًا لنركن إلى زاوية الخمول، ننتظر دنو الأجل على يد دائرة الهجرة، يجب أن لا ننتظر أن تحف أقدامنا قبل المسير. في هذه الحياة يكمن سر الوجود الإلهي، علينا أن ننبشه ونُظهره. نحن نستشعر ذلك كل يوم، حيث تتجدد الدماء في أوصالنا، فالحياة لا تعرف الاستقرار قط. الكون كله يتحرك، الشمس والكواكب والنجوم تدور في أفلاكها، في مجرات حول قرص الفردوس، بحركات لولبية متموجة، تعكس قدرة الخالق وعظمته وبصمته.

هذا دليل على أننا لا يجب أن نستكين، لا أن نستسلم. لذلك، تجمعنا في باحة المطعم، نخطط لعمل خاص يمجد وجودنا، أمام أولئك الطيبين الذين استقبلونا براحبة صدر. عمل يرفع من قيمتنا في أعين من لم نجد منهم سوى الطيبة والضيافة والمحبة الصادقة.

صار روتين اللقاءات يتكرر، ومساعينا تتجدد، كل منا يؤازر الآخر في دفع عجلة الزمن نحو هدف مراء في الذهن وغائب عن البصر. ذلك الهدف صرتُ أرسمه على الورق كطائر شبح، يختفي نهارًا من أفق الظن، ويظهر بأشكال هلامية في المخيلة والأحلام. أتبع أثره، كما تبعه أبو وسيم، ومعه الدكتور، وأبو عبدو، وأبو مرق، وفريد، وغيرهم من سكان الكامب.

وفي أحد الصباحات، وبين طيات ذلك الروتين الثقيل، وجدت أبو وسيم جالسًا وحده، يتأمل محيطه، قابعًا في محطة العناء

والأفكار تمر عليه كقاطرات مارقة. مشتت الذهن، لا يعرف استقرارًا تحت العواصف الهوجاء التي تعصف به. يدور حول نقطة وجوده، يتفحص الجدران، يتأمل البحيرة، ينظر إلى النافذة، علّه يجد شيئًا يعينه على جلده، يكسر مرآة الفراغ التي تعكس داخله على ملامح وجهه.

لقد تجرد من متعة الحياة، بعدما قيدت الظروف حركته. وفي خضم صراعه مع نفسه، يحاول أن يجد بصمة في خياله، تجعل من المكان بؤرة إشعاع يسلي نفسه بها.

بات يسأل نفسه ويجيب:.....

- ماذا علي أن أعمل لأجعل من الجمود الذي يكتنف المكان حركة تجذب الأنظار إليها؟ كيف أحرك شجرة شائكة من مكانها دون أن تدمى أناملي؟ أين تكمن العقدة؟ في الشجرة أم في عقلي؟.. المسألة تحتاج إلى إمعان مسهب. الشجرة ثابتة، هي الأساس، أما العقل فهو المتطفل. لذا عليَّ أن أدير مقود عقلي نحو الهدف، أن أستوعب الحالة، وأضع حلولًا ناجعة لها قبل الشروع بالعمل.
كيف أجعل من هذه البنايات والشارع مزارًا يؤمه الناس؟ كيف أجعل الموقع يجذب الأنظار؟ ربما الموقع يحتاج إلى مدينة ألعاب إلكترونية أو ملاهٍ... لكنها مكلفة، ومع ذلك تبقى حاضرة على طاولة الأمد البعيد.

كـان منشـغلا بتلـك الأفكـار دون أن يصـل لنتيجـة ترضـيه، حينهـا تقدمت منه وسألته بمزاح:...

- ما بك يا أبو وسيم، هل جننت؟

- قريـب جـدا سـأجن، هههههـه، فعـلا سـأجن أن لـم أجـد وسـيلة تكشـط شـوائب فكـري مـن هـذا الأرق الـذي يجتاحني، وهذا الفراغ الكابد على نفسي....
بـالله عليـك خبرنـي، كيـف أعطـي لهـذه البقعـة صـفة قدسية؟ هيا أجيبيني.... كيف؟....
كيـف أجعلهـا تشـع بهـاء فـي أعـين النـاظرين؟ خاصـة المنطقـة لا تحتـاج إلـى أبـداع فنـي كبيـر فـي رسـم ملامحهـا. فـالبحيرة موجـودة والغابـة موجـودة والأشـجار الخضـرية والنفضـيَّه الباسـقة مبثوثـة، والشـارع موصـول. المنظـر بـديع جـدا، السـكن مهيـئ، لا يـنقص المكـان سـوى بصـمة سـحرية تجـذب النـاظرين لهـا، سوى سطوع القمر في ليلة البدر.
- ربمـا يـنقص المنطقـة حديقـة حيوانـات صـغيرة، تمثـل نموذجـا مـن حيوانـات البـراري التـي تعـيش فـي السـويد، والتـي يصـعب مشـاهدتها فـي الطبيعـة. فلـو جمعنـا نماذجـا مـن تلـك الحيوانـات البنفسـجية والمتوحشـة، والتـي لهـا مـوطن هنـا، حتمـا سـتكون واجهـة سـياحية لطيفـة تعنـى باهتمـام مـن قبـل النـاس والدولـة. وقـد تكـون الغابـة التـي بجانب ملعب الجولف موقعا مناسبا لذلك.

- لكن هذه العملية تحتاج لرعاية دائمة وأبنية تأويها وإدارة متخصصة وعمال وموظفين وخدمات، ناهيك عن توفير الغذاء اليومي المكلف لتلك الحيوانات.

دعنا نفكر بفكرة معقولة. كل شيء موجود وكامل، لكني أشعر بشيء ينقص المكان، شيء ضائع لا أعرف ما هو، أود أن أبحث عن هذا الشيء الساحر، والذي سيضفي على المنطقة هوية التميز، أني ابحث عن البصمة.

تركته يعت بفكره في دنياه، حسبته مريضا، ذهبت لأفطر، ثم أخذت بعضي ونزلت إلى ضفاف البحيرة المتجمدة، وأنا غارق في متاهة من الكدر والهوان، أود أن أجتث نفسي من قيد الوحدة التي تبعتني. كنت أشعر بالدنيا تلتف حولي، تود أن تبلعني بعد أن رمتني في تلك المتاهة، باتت تأنبني، تعاقبني على عبثي وسفري دون اصطحاب زوجتي، حتى أني كنت أشعر بنزق تفكيري المرهق، أشعر بأني غارق في عمق المدى..

تذكرت مرحلة الطفولة، والزملاء، والمدرسة... وكأنَّ المدرسة والمقهى هما من يجليان العقد من الذهن، أو يعيدان تشكيل الفكرة. فخطرت في بالي قصيدة ابن زيدون، حين قال:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا - ونأب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما أبتلت جوانحنا - شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا

كـأنَّ الشـاعر خـاض مأسـاة تشـبه مأسـاتي، لتطـابق أبياتـه علـى الحالـة التـي كنـت أعيشـها، وكأنَّـه عـاش ظرفًـا طارئًـا كظرفـي. صـارت كلماتـه تشـرح عقـدي، تغـور فـي لـب الحـدث، تفسـر لحظـة التنـائي، تسـوف ذلـك الطيـب الـذي كنـا نسـقى منـه. كـأنَّ الرجـاء ذاب فـي لجّـة الغربـة فمـا عـاد لـه أثـر، صـار طعمـه مـرًّا على طرف اللسان.

بـتُّ لا أحتمـل التجـافي، لا أجـد للحيـاة ندفـة فـي هـذه التربـة. أضـحى العنـاء وجهًـا طبيعيًـا لهوانـا وأهوائنـا، بـل ذرنـا كـأوراق الشجر بين أشواك الفلاة، اهجس بالحياة أضحت خريف دائم.

مالـت علينـا الأيـام ميـل القحـط، سـقتنا مـرّ العلقـم. لـم تجـف أنهـر النـدم قـط، وجوارحنـا تلتـاع شـوقًا لأحبائنـا. لـم تكـف المـدامع حزنهـا وأسـفها. بقـي التجـافي يعـزف لحنـه علـى أوتـار الصـبابة، ويذرئ في الحشا نار الفراق.

فـي نفـق الهجـرة، طفـح شـيء لـم نكـن نتوقعـه، كـان مختفيًـا أو لـم نلتفـت إليـه. لـم نكـن أصـحاب قـرار قـط. لقـد لعبـت أوروبـا لعبـة قـذرة مـع المهـاجرين، وبالـذات العـراقيين والمسـلمين عمومًـا. عملـت علـى تمييـع رغبـة الهجـرة بنـزق الـروتين، وإطالـة مـدة الانتظـار المملـة فـي مراجعـة ملفاتنـا. بـذلك حطّمـت العلاقـات الأسـرية، حرّضـت الزوجـة علـى الانفصـال لأتفـه الأسـباب، وشـجّعت المسـلمين علـى تـرك ديـانتهم أو الانتمـاء إلـى المسـيحية لنيل الإقامة.

هذا التعامل شجّع ضعاف النفوس على تجاوز مبادئهم، وكان التركيز واضحًا على المسلمين من غير العرب، خصوصًا القبائل الآرية من كرد وفرس وأفغان. كما أن عملية اختطاف أطفال المسلمين بحجة "سوء الرعاية" ترك أثرًا بالغ الخطورة في نفوس الوالدين. بتلك الطرق القذرة تعاملت معنا دائرة الهجرة السويدية فحوّلت فكرة الهجرة إلى مادة عقيمة منتهية الصلاحية.

صرنا معلّقين بالحلم كالثياب المشرورة على غارب الحبل، نتلظى بنار الروتين، ونُجلد بعبث الرياح دون حلول واضحة في الأفق. حتى تفتّتت الفكرة في نفوسنا وقلوبنا، كما تتفتّت الأقمشة تحت حرارة الشمس. تلك الحالة كانت تُصاغ لنا من قبل الإدارة بحجج وبدون حجج.

هذا ميثم، الذي جاء بعربة الإغواء يبحث عن سكينة في ألمانيا، رغم أنه يحمل في جوفه كلية واحدة نتيجة تشوّه خلقي، إلا أنه نال الطرد والرفض والإسفاف. وأنيس، الذي جاء قاصرًا، لم يُمنح فرصة إتمام دراسته الثانوية ليحقق حلمه بسبب العنصرية... وغيرهم كثير على شاكلتهم.

في ظل هذه الأوضاع، اهتزت ثقتنا بأنفسنا. توقفت الحياة، توقفت حركة الذهن، تبخرت الفكرة من رؤوسنا، وجفّ معين الإبداع. شعرنا بأننا مكبّلون بجمود وخمول يمنعنا من تخطي عقبة الصراع مع الفراغ المحيط بنا. فراغ يبطن فراغ تبع ظلنا وابتلع نوايانا.

تقطّعت بنا السبل، ولم تعد لدينا القدرة على اجتياز المفازة التي لم نكن نحسب لها حسابًا. لم أجد قارب نجاة يقلّني إلى الضفة الأخرى. كل محاولاتي باءت بالفشل، حتى بتُّ أشعر أن ذهني ورقة بيضاء، خالية من أي فكرة أناقشها مع زوجتي، أو إبداع أتجاوز به روتين الحياة. لا زاوية آمنة فيه، ولا ملاذ يؤهلني إلى إعادة روحي لبدني.

12- البصمة

من خلال الملاحظة وجدت **أبو وسيم** مشغول البال في أمر ما شلّ ذهنه، حتى أني سألته بعد أن وجدته شبه تائه في قراره لأستبين أحواله:....

- ما بك يا **عماد**؟ لم أنت مضطرب، مشغول البال، هل تحتاج إلى مساعدة؟
- يا وائل في ذهني حاجة أود البت بها، لكني لا استطيع الإمساك بتلابيبها، حاجة لا أعرف ما هي بالضبط؟ لكنها ضرورية وحتمية بالنسبة لي وللمكان، ولا أعرف كيف أبدأ بطرح فكرتها؟...
- هههههههه، لا تعرف ما هي ولا كيف تبدأ بها وطرحها.ووو..كيف ذلك؟ لم أفهم، هي حزورة.
- هي كذلك، ولا أنا فاهم ذاتي، لكن حاجة ما تشغل فكري، أود أن أقدم عملا معنويا ما أضيفه إلى هذه اللوحة الجميلة التي تراها أمامك لتكون المنطقة واجه سياحة للناس.
- أن شاء الله خيرا، وكيف ممكن أن أساعدك؟.
- حين أباشر بالعمل أودك أن تبدأ معي، وتعينني.
- وهو كذلك.

هكذا بدأت الفكرة في ذهن **أبو وسيم**، كوهم تنفس في ذهنه، يود أن يجعل للمكان اطرٍ تجذب النظر إليها، في داخل ذلك

الشيء المبهم تقبع فتنة ما غير واضحة المعالم لنا، لكنه يراها بدرا في سماء ظنه، دون أن يتمكن من تحديد ملامحها. مع مرور الأيام صرنا نبحث عن ذلك الغز بين عيون الآخرين، وفي شجون الطبيعة وفي السكون الدائر حولنا وبالفراغ العابث بنا، لنرتقي بذواتنا وبالفكرة إلى حالة التطبيق والألق والاستشراق والشرف والرفعة واليقين.

ولكن قبل ذلك كنت قد سمعته يناقش أبو مرق وترامب والدكتور زاهر وعدد من الموجودين معنا وبالذات السيد بار مسؤول الكامب في ذلك الشأن، يسألهم ماذا ممكن أن نظيف للمنطقة لتتمتع بصفة الجاذبية، لتفتن نظر من يزورها، لتكن مزارا للناس.. لم يسعفوه بشيء، لم يعينوه على ولادة الفكرة، أحدهم طرح عليه فكرة إنشاء كازينو سياحية وآخر تبليط الشارع القديم وبناء ملهى، أفكارا غير مجدية، ميتة، لا تهز الذهن ولا تشد النظر.

وفي أحدى الصباحات وجدته قد أستفاق من نومه على هاجس حسه المرهف المليء بالرقة والوعي، والمبطن بمشاعر جياشة تجاه دينه وقومه وناسه. وجدت عنده حس شفاف، يتراءى للجميع بنعومة ملمسه الحريري، وكأنه وشح ذاته ببريق من سندس واستبرق. صباح ملهم بسحر الغابة المطلة على البحيرة، ليستلهم وحيه تجاه بلده والبلد الذي هاجر إليه.

في الحقيقة الكل كان قد هاجر نتيجة أزمة ما ألمت به، فهو واحد من هؤلاء الذين شردوا من بلده، فلم يكن من المتسولين،

ولا العـابثين أو المسـاكين ولا مـن عـابري السـبيل، ولا مـن المغـرر بهـم، ولا مـن الـذين أغـواهم الطمـع فجاشـوا يزحفـون فـي الطـرق علـى بطـونهم.... كـان إنسـانا بسـيطا جـدا، يُملِـئ قلبـه شـغاف الحـب والعمـل والسـلام، مـن الـذين أُلِفَـت قلـوبهم بـالحق والأيمان والسؤدد.

هكـذا وجدتـه عصـاميا وفـي ذاتـه تتقد شـرارة المكـابرة، وكأنـه لـم يـأتِ إلا لأثبـات الهويـة، بـذلك كنـت أشـاركه فـي الـرأي والعمـل والتحضـير وطـول البـال فـي فتـرة تجمعنـا وتلاقينـا، لأتناسـى سـجن الفـراغ الـذي سـجنت نفسـي بـه بـإرادتي. كنـت أجـد مـؤازرة مـن الطيـف المحـيط بـي، الـذين اصـبحوا بفعـل الظـرف كشـعلة واحـدة لمواجهـة ذلـك التنـين المحـيط بنـا مـن الفـراغ الـذي يقهرنـا، والـذي تعـدى علـى مكنوننـا وكينونتنـا وكياننـا ومكانتنـا، فـأودع امكاناتنـا تحـت قـدره دون إرادة منـا، ذلـك هـو الـزمن المريـع والفراغ الشاسع.

كنـت أشـعر بينهم بشـيء مـن القيـد والوحـدة والتفكيـر السـلبي وأنـا أزحـف خلـف حـاجز التنـائي بعيـدا عـن وجـه حبيبتـي الملائكـي؛ حتـى أنـي كنـت أحسـد البعض لأنـه لـم يحتمـل تـرك زوجتـه خلفـه، أصـر علـى جلبهـا معـه رغـم صـعوبة الرحلـة ومشـاقها وإفـلاس جيبه، جازف بحياته وحياة أطفاله وزوجته بعبور البحر.

أمـا أنـا؛ كنـت قـد سـلكت دروب التخفـي، مانِحـا نفسـي فرصـة مـن الطمـع وعـدم الدرايـة؛ خوفـا مـن المجهـول القـابع فـي سـرائرنا، خوفـا مـن الـزمن والفشـل والحيـرة فـي بـلاد الغربـة. حاولـت

أتشبث بضفتي النهر في آن واحد، وددت أن أتمسك بفرصتين سانحتين أمامي، أن أتعلق في شواطئ أبوظبي وستوكهولم في ذات الوقت، وفي نهاية المطاف وجدت ذاتي لا تصلح أن تكن جسرا بين الضفتين، بل اضحت لوحة يدحرج بها تيار الفراغ الجارف لوهدة الضياع، فضاعت الفرص دون أن أنتبه على موطئ القدم، دون أن أمسك بأذناب الفرص...

كان **أبو وسيم** قد استفاق هاجسه الخفي حين بات يطرق جوارحه بربتٍ ناعم كربت الودق، دكت مشاعره بندى الود ورهافَ الحس، فاهتزت مشاعره، تحرك وعيه، غدى التناغم في ذهنه فطري بين ثنايا الصمت وأفق الحلم المراد إدراكه. راغت الرغبة الجياشة بفيض عزمه، أصر على رفد تلك المشاعر بيقين من دفئ الشمس، تلك التي أبت أن تترك قلقة قبل أن تستكين أحلامه على مواقد العمل وتنفيذ الفكرة..

شعرتُ به وكأنه ود قتل الفراغ المحيط به، وأن كانت زوجته ترتع بحضنه كحمامة، إلا أنه كان يشعر بشيء من الضياع والتيه بقرارة نفسه وهو بعيد عن أفق الوطن، فالوطن هو الحاضن الأكبر، مثلما يجد في حضن حبيبته من وطن، لذا كان يود أثبات تلك الوطنية وأن كان قد افتقد تحنانه وصبره.

حينها كنت أصارع الزمن وأحاول أن أجلي صدأ الفراغ من على الذهن، وجدت ذاتي شبه مأسورة بتلك القيود التي فرضتها الوحدة والغربة. لذا أحببت أن أتجرد من تلك القيود برفقة أبو وسيم، عسى أن أجلي الوهم الذي تراكم على ذهني

والـذي بـات يرهقنـي ويهـاجمني كوشـق يـود افتـراس ذاتـي، بـثُ أشـاركه الحـوار والنيـة، وعسـى أن نعثـر علـى الفكـرة قبـل أن تشتتنا الاقدار.

وجدتـه يتسـاءل مـع نفسـه ويجيـب ذاتـه، وهـو يـدور فـي دوامـة مـن الشـك والصـراع، كنـاعور يـدور فـي فـراغ مطلـق، ذلـك الـذي عانيـت منـه منـذ لحظـة فـراق زوجتـي بحثـا عـن الاسـتقرار، فقـال لي وهو يود فتح آفاق النقاش:...

- يـا تـرى؛ لِـمَ لا نثبـت لهـؤلاء الأنجـاس مـن الغـزاة بأننـا أكثـر مـنهم عمقـا وفهمـا وتاريخـا وأفضـل إنسـانية وحضـارة؟. هـؤلاء الـذين شـوهوا صـورنا كمسـلمين وكعـرب بـين الـدول بشـيء مـن قـذارة الإعـلام؟ مـن أجـل تبريـر غـزوهم لأوطاننـا وسـرقتهم خيراتنـا، ليجعلـوا دولنا سوقا مفتوحة لمنتجاتهم.
لِـمَ لا نعكـس الصـور الحقيقيـة التـي تمثلنـا؟ بحيـث كـلٌ منـا يعمـل مـن موقعـه وحسـب إمكاناتـه البسـيطة، علينـا أن لا نستسـلم لغايـاتهم، أن نقـاوم حيـث نكـون بـالممكن والمسـتطاع..... أنـت تعمـل مـن جانبـك وذاك وذاك، إلـى أن نبنـي فـي مخيلـة مـن استضـافونا فكـرة تمحـي مـا تركـه المستعمر في أذهانهم من عبث ودجانة وكذب.

هكـذا شـغل ذهنـه وشـغلنا معـه بحيـث صـرنا نتبـع ذلـك المسـار أمـلا أن نـرد علـى عبـث الغاصـب والمحتـل والجـاني وهـم يكيلـون

لنا العذاب من خلال تدمير أوطاننا وشل قدراتنا... كنت أحيانا أسال نفسي واقول في الوقت الذي اجيبه:...

- تفكير سليم.. من الذي أوصلنا إلى هذا المعترك من الارهاق النفسي والجسدي؟ من الذي أوصلنا إلى نقطة اللاعوده، والذي جعلني أفترق عن زوجتي وأغوص في هذا السدم من التيه، أملا في إيجاد صيغة حياة أفضل من التي كنا عليها.
من؟ ...
أليس المستعمر الحقير؟ أليس هو من زرع بيننا الفتن والعقد والطائفية والعنصرية والقومية البذيئة من أجل أضعافنا وسرقة خيراتنا؟
نعم هو ولا أحد غيره...

لذا كنت أشد على يد أبو وسيم في تفكيره، اوافق تطلعاته على أخذ المبادرة في ردم جدار اليأس الفاصل بين تطلعاتنا وظرفنا الموارب، ذلك الذي يحيط بنا كروتين ووهم وفرق مهاجرة لا تجد في يدها سوى التأمل ومساعدة الغير، على الأقل تكون في أيدينا وجهة نظر إيجابية في مواجهة ومحاربة صيغ الفراغ المرعبة المحيطة بنا.

صرت أحثه وأحث نفسي وغيري على بدء فكرة تكوين جمعية محبة بيننا، جمعية تشرع في إزالة العقد وحل المشاكل، على أن توحد رأينا وتزجنا في بودقة عمل مشتركة،

ليكـون لنـا صـدى وشـأن ونحـن كعصـبة فـي الغربـة، وإلا مـا جدوى هجرتنا ونحن مشتتين.

لذا قلت له: ....

- نحـن هنـا كمهـاجرين وكأغلبيـة فـي الكامـب، يمكننـا مواجهـة أعـدائنا مـن موقعنـا بعمـل يظهـر حقيقـة معـدننا. يمكننـا تغييـر نظـرة المجتمـع إلينـا بتقـديم لوحـة فنيـة جـديرة بأفكارنـا، عمـل جـدي يرفـع مـن شـأننا بشـكل معنـوي كـأن يكـون عمـل رمـزي أو مـادي، يعبـر عـن حقيقـة مشـاعرنا ويكشـف للآخـرين حقيقـة معـدننا الطيب...

رد علي قائلا:...

- ذلـك مـا أبحـث عنـه، الأعـداء كـانوا قـد تصـرفوا معنـا بخبـث ومكـر واضـح، لقـد اسـتخدموا ضـدنا شـتى الإعْـلام الكـاذب، جعلونـا إرهـابيين ومجـرمين، دعنـا نبـين الحقيقـة المعاكسـة لمـا يفتـون بـه ويرمـون إليـه. تلـك هـي مـآربهم، ولـتكن لنـا مآربنـا. وعلينـا دمغهـم وأزاحـه هـالات الغمـوض عـن عيـون الغيـر، التـي مـا عـادت تمطـر علينـا سوى سموم حقد وكراهية.
- هـذه هـي الحقيقـة، دعنـا نعمـل علـى حـرق صـور الإعْـلامِ الزائـف مـن موقعنـا، دعنـا نـزيح تـأثيرهم عـن المجتمعـات

ولـو بـالممكن، حيـث دائمـا مـا يكـون للحـق سـطوة علـى الباطل فيزهقه.

- نعـم صـورنا مهـزوزة فـي أعـين الأخـرين لقـوة إعْـلامِ الأعـداء أمـام ضـعف تحركاتنـا! هـم يتحركـون علـى نطـاق دول ومنظمـات، لهـا أجنـدات وعمـلاء يـؤازر بعضـهم الـبعض. ونحـن نتحـرك كـأفراد فـي أزقـة أحـلام ضـيقة، منفصـلين بعضـنا عـن الـبعض، تكـاد المقارنـة لا تقـاس ولا تقـرأ، باهتـة، ضـعيفة، لكنهـا حيـة فـي أعينـهم وفي ضمائرنا.
- لا تيـأس يـا أبـو وسـيم، للحجـر شـأن وفعـل فـي صـنع دارات الأمـواج المتعاقبـة إذا مـا سـقط فـي جـوف بحيـرة راكـدة، وأكيـد للبحيـرة ردة فعـلٍ اتجـاه الحجـر السـاقط فتثيـر الفضـول فـي أعـين النـاظرين إليهـا بهـالات الـدوائر التـي تحـدثها، كدلالـة علـى رفضـها لتلـك العبثيـة الماجنـة التي أثرت على سكونها.
- هكـذا سـيكون عملنـا فـي صـولبكا كرميـة الحجـر فـي عيون الأعداء، أحسنت.

كنـت أدرك جيـدا عملنـا مجـرد عبـث فـي وسـط ذلـك الضـياع الـذي يلفنـا، ولكنـي كنـت أحسـبه كرميـة الحجـر وسـط البحيـرة، لمجـرد أن أشـعر بـالتغيير، أن أجـد ذلـك التغييـر يعبـث بشـكل روتـين يكبلنـا.. حيـث أنـي دائمـا مـا كنـت أحسـد المحيطـين بـي علـى الألفـة التـي هـم عليهـا مـع عـوائلهم، مهمـا صـعب الأمـر فأنهم في نهاية اليوم يخلعون همومهم في أحضان أحبتهم.

لذا كنت أعتقد بأن لسر الحجر تتحرك ذوائب الروح في جسد البحيرة، فتخرج عن طور السكون لطور الديناميكية، حين إذ يختلف منظرها عما سبق لمن يشاهدها عن كثب، تختلف زاوية الرؤيا من محيطها الدائري، فتختلف أبعاد الفِكَرْ للناظرين إليها، كلٍ يراها من وجهة نظره وحسب موقعه وثقافته وتفسير عقله.

ستكون لها جذوة قبول عند البعض، وستكون عبثية بلا معنى عند آخرين، ممن لم تجد في جيوبهم الخاوية نظرة إيجابية وفكر مبدع يشي بالغرض. هؤلاء الذين يصطفون على رصيف الفساد والبغي والحسد دون إرادة، من الفئة المريضة التي لا تبالي بجرح الوطن ولا بسقف الفراغ.

هكذا هي الحياة نجدها متقلبة، تتجدد فيها صيغ الألفة حسب سعينا وموقعنا من نقطة البعث التي نسعى إليها، أو التي تسعى هي إلينا. تلك التي تشذبنا إليها، للولوج في زحمة الأفكار وما ورائها من أسرار والق نبتغيه.

قبل أن أترك زوجتي كانت الامور مستتبة في الذهن، إلا ذلك العبث الذي كان يتبعنا ويشعرنا بعدم الاستقرار. الحالة جدلية، اهتزت مكعبات المخ مع اهتزاز عمود الوطن، فلم تأخذ أماكنها الصحيحة.. ولكن بعد الهجرة تغيرت وانقلبت الأمور رأسا على عقب، بحيث منذ لحظة الوداع تحولت الحالة من تأمل لحالة ندم، وبرتم غوغائي يربك دواخلنا بالشوق، تناثرت

المكعبات وشتت الذهن بشكل عشوائي، ظهرت للأيام مخالب تخدش الذكرة وتدمي المخيلة، تغز الحياة بألم وإسفاف.

قبل الاحتلال والهجرة كانت الحياة ثأدة، مكتنزة، تحتفظ بصرة أمان، تحولت فيما بعد لعجف، هزيلة، مريضة، ليس بها روح ولا متعة.... ذلك ما يدعني أن أواصل زوجتي باستمرار، كان آخر اتصال جرى بيننا بشكل روتيني، نتيجة قلقنا على بعضنا قبل اسبوع، أهجس الحالة كنبتة جفت عروقها وأوراقها، فأصابها النزق، أحاول أن أسقيها قليلا من العاطفة كي لا تجف وتموت.

كنت أحاول أن أصبرها وأصبر نفسي بذات الكيفية، أحيانا تأتي المبادرة من قبلها وأحيانا من قبلي، وحسب درجة تأثير ذلك الفراق اللعين على وهج الشوق، والذي صرنا نعاني منه في ظل رغاء الفراغ. حتى أني ما عدت أهجس بطعم الحياة للمرارة التي أسقمت السنتنا، حيث كلما طال الوقت؛ جف حشف العاطفة بقدر لهجة الغياب التي تتبعنا.

هاتفتها وأنا في شوق ولهفة لسماع صوتها ومعرفة آخر اخبارها، حتى جليت بتلك المهاتفة صدأ مرآة الصبر التي أصابها الغواش، أضحت واجهتها كظهرها للبؤس الذي أصابني. قلت لها في لحظة صمت جلوت عن الذهن غبرة الفراغ:..

ألو ...

- هلا.
- كيف الحال يا غالية.
- بخير، أدفع بالأيام وأحاول أن أنسى الظرف بشيء من العبث.
- لقد وصل بي الشوق لغاية الجنون بك، أهجس بك ترافقيني، يكاد صوتك يهمس في أذني، صورتك لا تفارق مخيلتي، أجدها في وجه كل أنثى تقابلني في الطرق، لا أدري ماذا أفعل حيال ذلك؟ حتى أني أود كسر طوق الفراق بشيء من الجنون والعبث، أود العودة ولكن الجواز قد نفد زمنه، صار حاجزا بيننا وعاجزا على تلبية متطلباتنا، انتهت مدته، كما أن الهدف الذي سعيت خلفه بقي معلقا في عنق دائرة الهجرة، أضحى منسيًا فوق الرفوف، لا أدري كم ستطول مدة الفراق!
- ما يفيض في القلب أكبر من الجنون نفسه، ولكن أجد في قراءة القرآن سعة في نفسي، ينسني قرف الحالة التي نحن عليها. أصبر وأن الله مع الصابرين.
- والنعم بالله، حافظي على نفسك فأني بحاجة لك، قبلي الأولاد نيابة عني..
- لا تهتم وأنت لا تشغل بالك كثيرا الزمن كفيل بحل المعضلات.
- لا أدري انا أرى الغموض ركب كل شيء، حتى النظر تغيرت ماهيته، صرت أرى الجمال قبح، حسب

القياسات بعدي عنك، رغم أني أعيش في جنينة لكني أشعر به سجنا لا منفذ له. صغرت الدنيا في نظري بل صارت بلا معنى وبلا قدر.

- أما أنا أرى فرجا يلوح في الأفق، لا تفكر بنا نحن بخير، وعليك الصبر والتجلد كي تتغلب على الزمن والفراغ الذي يلوي ذراعك، اقرأ القرآن واستعين بالرحمن ولا تغالي الأمور.
- أحاول ذلك، على كل أحببت الاطمئنان عليك، مع السلامة
- مع السلامة

بسبب الأنترنت صارت أمور الحياة أسهل من قبل بكثير، بحيث صار الشخص سهل عليه أن يتعرف على اخبار العالم باللحظة، كما صارت الاتصالات بالأحبة متاحة وأكثر تسهيلا. على ضوء ذلك صارت الحياة أخف عقدا مما كانت عليه، بحيث ممكن أن أرى حبيبتي على شاشة الموبايل دون أن التمس ثناياها وعاطفتها، صارت الوشائج أكثر إثارة وحرارة وإغراء عن قبل، غدت تفيض بالأشواق.

كما كنت خلال عودتي لسريري أقلب الصحف والمجلات عبر النت، أبحث عن الخبر الغريب والشجي لأنسى شيئا من الهموم العالقة بفكري. تصفحت جريدة البيان الإماراتية والحياة السعودية والزمن اللندنية، تلك الجرائد كانت تجلبها لنا دائرة الهجرة لتخفف عنا عناء الوحدة والروتين البطيء في

عملها. كما كنت أقلب صفحات البرامج التواصل الاجتماعي اليوتيوب والفيسبوك والانستكرام متبعا أخبار الوطن والكرة والطرافة، على تلك الشاكلة أصبح للروتين صورة أخرى في الحياة شاغلا فكري به.

ما كان يؤلمني حقا هو أخبار الوطن، تراخت قرارات الدولة تحت ظرف الوقائع الهمجية لتشعب أصحاب القرار، والتي باتت قرارتها تزحف خارج حدود المنطق مع ازدياد تفجيرات السيارات المفخخة واطلاقات المدافع على الأحياء. تلك القوى أدخلت الوطن في نفق مظلم دون أن تعين المناطق المنكوبة على إعادة حيويتها، تلك التي هجرها أصحابها مجبورين تحت ظل تعسف ماحق أهلك الوجود وأنهك البدن. ما يؤلمني هو الوضع الذي زاد تدهورا بعد احتلال العراق عام 2003، أي مضت خمسة عشرة سنة ولم تهدأ الفوضى فيه.

تنافست عليه الأطراف، كل صار يجر الحبل من جانبه. حتى تمزقت أوصاله، ضاع رأس الخيط، تاه الشعب في دوامة العنف في ظل مصالح شخصية وحزبية وأجندات خارجية. تلك التي صارت تفرض قروءها وملابساتها ووجودها هنا وهناك دون رادع؛ حتى وصلت الأمور درجة إخلاء الوطن من الوطنية، تحت بند العقد المركبة، حالة يصعب فك رموزها وشرح أزمتها، أضحى الوطن يطوف فوق بركة أزمات دون علاج حقيقي، ازمة كهرباء وزراعة وصناعة وعمل ونفط ومياه ...الخ.

الفراشة

نتيجة الحرية المطلقة المتاحة للمرأة في بلاد الغرب، كن انفصلن عن أزواجهن معظم النسوة المتزوجات من الجالية السورية للعقد المتجذرة في طبيعة العلاقة المقرونة بسيطرة الرجل. بمجرد أن تنفسنّ الصعداء تطلقنَّ، أطلقن لجناحيهنَّ العنان، وبتحريض من المنظمات واللجان الاجتماعية النسوية اللاتي كن يزرن الكامب. انفصلت حميدة عن زوجها الأرعن لبخله وقسوته وسطحية تفكيره السلطوي، فلم يرتقي لألق أنوثتها، لم يتحسس دفء مشاعرها، جعلها ندبة في فكره، كلما حكها، جرح كرامتها. وكانه قد تفضل عليها في زواجه منها. كان يعنفها لأتفه الأسباب، كتأخرها في تحضير فطوره، أو إذا ما أحدثت قرقعة ما في البيت خلال نومه، أو في حالة تأخرها عن تنفيذ أوامره الليلية... الخ من ذلك القبيل التافه. لقد وضع حاجزا بينه وبينها منذ أول يوم زواجه منها. لذا كانت تهابه ولا تحترمه، تخشاه ولا تقدره؛ حتى أنه جردها من شخصيتها وأناقتها، بل استولى على لطافتها وسعادتها وطاقتها وبطاقة مصروفها الشهري التي تعينها بها دائرة الهجرة. لذلك لم تجد مناص من التجريد ذاتها والتحرر منه، بحيث وجدت بأنه لا يجمعها به سوى طفلها الوليد قصي.

الهم محى فتنة شبابها العشرين، تهجس به لصغ بجلدها وشم جبروته، جعل مفاتنها نفاضة لقطوف سجائره، بذا خبت شعل

المفـاتن مـن الجسـد تمامـا. بهـت الألـق بروحهـا، أنسـاها بسـمتها وسـماتها وفرفرتهـا، حتـى شـغبت ملامحهـا لـون الهـم والغـم، فسلت ذاتهـا فـي تربيـة أبنهـا الـذي لـم يجـد عطفـة مـن لـدن والـده سوى هنَّات مودة غير مجدية.

كمـا انفصـلت ربـاب عـن زوجهـا الخنيـث الـذي كـان يبـدو أشـبه بـأنثى قـابع معهـا تحـت سـقف واحـد، تلـك التـي لـم تعـر لـه أهميـة تـذكر فـي عجرفـة سـلوكها وانحـدارها وجبروتهـا ونياتهـا ومشـاويرها واختلاطهـا بالشـباب، باتـت فـي ميولهـا تتحـرش بكـل رجـل يقابلهـا. لـم تكـن لـه سـلطة عليهـا ليحـد مـن انحرافهـا وسلوكها، بـدت مهـرة لـم تجـد مـن يشـكمها ويجـدل ضـفيرتها، بـل كانـت تهجـس بأنهـا مجبـرة علـى تحمـل بـرود زوجهـا تحـت سـقف الـزواج.... لـم يجـرؤ علـى مواجهتـا ولـم يسـتطع إيقـاف تحـديها لـه، كأنهـا تسـجل عليـه نقطـة أخلاقيـة. تهجـس بـأن كعـب أنوثتهـا أعلـى بكثيـر مـن خـف رجولتـه. ذلـك مـا حفزهـا علـى الإسـراع بطلـب الطـلاق منـه بمجـرد حصـولها علـى الإقامـة، علـى الـرغم مـن أنهـا أم لثلاثـة أطفـال، لكنهـا كانـت تبحـث عـن أنوثتهـا فـي قائمة الراجل.

فـي الحقيقـة الحريـة المطلقـة للنسـاء فـي أوربـا ومشـروعية المسـاواة بـين الرجـل والمـرأة؛ هـي التـي أعطـت للنسـوة جـرأة التحـدي ومواجهـة أزواجهـن واتخـاذ القـرار ضـدهم، بـل كانـت المنظمات تشجعهن على اتخاذ قرار الطلاق.

كنت أجد في عين رباب سلطان فتنة تهز كل رجل، فتنة تفوق حدة الفتنة في ثنايا الجسد والروح، لها عين الصقر لحدته وعين المها لسعتها، كانت جريئة جدا، حادة؛ لسعة، حذقة، فيها شراسة غريبة، لا أحد يستطيع مقاومة حدة تلك النظرات والعيون الواسعة والوقحة، بهن كانت تجلد الشباب، تسلب ثقتهم بأنفسهم، تأسر خواطرهم. نظرات حادة ترفقها بابتسامة شفيفة وميوعة لدنة، فيها لجاجة وإغواء ودجانة وشبق وعطش أنثى، تجعل من ينتبه لها يستسلم لنزواتها.

كانت تبحث عن فتنتها في عيون الغير، عن الأنوثة المختبئة في جرأتها، بل كانت تبحث عن جرأة توافق جرأتها، جرأة تذلل الفراغ بين الطرفين، تخفي في داخلها شراسة لبوة ولطافة حمامة عطشة للغريزة الجنسية، كانت مغامِرة، عاشقة، مجنونة تمرح بين الشباب كغزالة.

تبعت رباب خديجة بعد أن وجدت ذاتها أسيرة عُقد فرضها عليها زوجها الدو الذي يبدو هو الآخر كثور أرعن يسير خلف القطيع، دون أن تجد منه شراكة حقيقية في المقارنة والحس والين.

لم تجد شراكة حقيقية تجبرها على البقاء على ظله، هجست به طين لازب في مقعدها دون إحساس ومشاعر توافق الفتنة المثارة في وجهها وجسدها، يبدو ظرف سوريا المادي هو الذي أجبرهن على القبول بزيجات طفيلية، لتخطي عجز العنوسة والفقر.

أهجس به لا يعرف من الحياة سوى الأكل والنوم، دون أن يفاكهها ويداعبها، دون أن يبرع في تفعيل عواطفها وتهييج ندب أنوثتها وتزييت شبقها. كانت تبدو أكثر النساء جاذبية شكلا وأنوثة إلى جانب سهى، تهجس بالأنوثة متقدة في وجهها وجسدها كالجمرة، تحتاج ينير سحرها ويبرق فتن ثناياها، لتضيء في دجى الأبعاد كبدر دائم...

كانت ترتع في عالم غير عالمه، تسرح وتمرح وتلعب وتجامل وترقص وتشارك هذا وذلك بعيدا عن أجوائه، كان يتأملها عن بعد دون أن يستطيع شكمها ومنعها. مشاعره مهلهلة مبعثرة كبقع الوجه تمحق محاسنها ولا تواكب ارهاصات شبابها..

لفيض سحر عينيها العسليتين كنت أعشقها، لخفة دمها وصفاء لون بشرتها وجميل بياضها، كنت أتبعها لجاذبيتها السليطة، لابتسامتها الساحرة، همت بها، تبعت ظلها وأضواء براءتها بشغف وشوق لقرب ملامحها من ملامح زوجتي. أضحت ذاتي تخور بأفكارٍ تجري في أزقة هواها وسوح مفاتنها، وبالذات حين أكون في خلوةٍ معها، نسخة كاربونية طبق الأصل من طبيعة زوجتي، بالذات في خفة الدم والشعوذة الصبيانية التي تفتعلها، وللتشابه الكبير في عطفة الأنف وطول القد وشياكة اللبس.

دائما ما كانت ترتدي قميص نصف كم ذا تلابيب دون أزرار، كاشفة مباهج الصدر وجمال تكور الثدي وصفاء

البشرة، وكأنها تود أن تبهج الناظر بسحر أنوثتها. كانت امرأة وذيلة، صبوحة، قسيمة، تحتاج لفارس شهم يشكمها ويطوي مشاعرها ومفاتنها تحت ظله.

زوجها يكبرها بخمسة عشرة سنة، لذا لا يعرف كيف يثيرها ويَقدح مفاتن انوثتها، لذلك انحدرت بغييها، فتبعت زميلاتها، فضلت الانفصال والعيش في سكينة بعيدا عن ضوضاء صوته الأجش.

فيما سهى والتي لا تختلف عن خديجة بالشكل والأناقة؛ هي الأخرى نَحَت منحى زميلاتها، ارتدت ثوب العدوى فانحرفت في مركبها جانبا، لترمي بعلها لكواسر الالسن في وسط أمواج البحر، تكاد الحلات تتشابه بسبب فرط الحرية اللاتي استمتعن بها في السويد من جهة، والدعم المادي والمعنوي الذي كنّ يحصلنَّ عليه من دائرة الهجرة أسوة بالرجال، إضافة لصفة البخل التي يشترك بها الأزواج ونغمة التسلط التي جاءوا بها من سوريا أخلت بالموقف..

أي أن الفكرة في المشاكل مجموعة عقد، مادية واجتماعية وعاطفية وجنسية، تلك الأسر لم تجتمع على أساس الحب، أنما اجتمعت لظرف ما، وما أن تخطوا حاجز الظرف؛ حتى نفرن من أزواجهن. مع أن كل اللاتي تطلقن كنَّ أمهات لعدد من الأطفال، ذلك يوضح بأنهن كنَّ قد تحملنَّ قسرا مراهنات الأزواج على مضض.

كـأنّهنَ أصـبن بعـدوى الصـرع؛ لأنهـنَّ وجـدن فـي الحريـة أنفسـهن وفـي المـادة فرصـة الانطـلاق لفضـاء الحريـة، بعيـدا عـن الرجـال الـذين جـاءوا بفكـر زجـل مـن واقـع زجـل، دون أن يفكـروا بإنسـانية الزوجـة التـي مـن حقهـا أن ترتـع بالحيـاة التـي لا تتكرر..

مـا شـغل فكـري فـي تجمـع تلـك النسـوة، الفتنـة المختمـرة فـي ملامـح وجـه سـهى والرقـة والأناقـة والجاذبيـة الملتاعـة فـي بشـرة خديجـة، كنـت أشـبهنَّ بفاكهـة النسـوة، كنـت أنعـت سـهى بالفراشـة لخفـة دمهـا وحـلاوة لسـانها ورشـاقة طولهـا، كاملـة الأوصـاف، تتمتـع بعذوبـة ذائبـة فـي طـراوة البشـرة، لبقـة اللسـان، رزينـة الطلة، عكس زوجها الممراج، الذي لا يتحكم بأمور نفسه.

لهـا فتنـة مغمـورة فـي ملامـح الوجـه والقـوام. شـفيفة، حـرة، مجنـة، فيهـا مواصـفات زوجتـي بالتمـام والكمـال، وأن لـم تتطـابق معهـا فـي تفاصـيل ملامـح الوجـه والجسـد؛ إلا أنهـا تطابقهـا فـي الرقـة والجاذبيـة والحضـور. وفـي والشـعوذة والطرافـة والجـرأة، وحـب العمـل الجمـاعي ودعـم الآراء والحـث علـى التعـاون، بالـذات فيمـا خـص طقـوس الشـعائر الدينيـة خـلال رمضـان والأعيـاد، بـدعم الفطـور الجمـاعي والصـلاة المشـتركة.. الـخ مـن ميـزات وصـفات حلـوة وجـدتها فـي حبيبتنـي.. لهـا أنفـة وكبريـاء، ولهـا رهافـة كرهافـة أنـف زوجتـي، فمـن وجهـة نظـري أرى لشـكل الأنـف سلطان على ملامح الوجه، لذا اتسمت بالجاذبية.

حين تجلس أمامي أستهام بتفاصيل الوجه والجسد، أغير عليها، أنغمس برقة مفاتنها، أشرع برسم القبل على جمر الشفاه حتى تتقد في الخيال في واحة ظني، أبحر في شواطئ العينين والجسد بقصص من الخرافة والشعوذة لأكون البطل فيها وتكون البطلة أمامي، حتى أنغمس بمغامرة في التهام اللذة المجنة الكامنة بها. أخلق من اللحظة المارقة سعادة آنية تجمعني بها، أصحبها معي لميادين أرقي وسهادي، أسرج مفاتنها بخيالي، اجعلها وسادة احلامي.

لانشغالي وولعي بها؛ صرت لا أشعر بالراحة إلا وهي تضيء مرافئ صمتي بنور شمعتها، لأغرق باستمناءة أغسل بها ضعفي وهواني، أشكي لها غربتي ووحدتي وعنائي. دائما ما أحاول الاقتراب منها، أجالسها، أحاورها، أتحدث معها، أحيانا أنحدر لمغازلتها بشيء من الطرافة، أجعلها تنحرف بفكرها صوب الحرشة والفحش، أجعلها تبتهج بنفسها وألقها. في أحدى المرات قلت لها:...

- أنت جميلة يا سهى، أهجس بك توئم زوجتي، فهي تشبهك بخفة دمك ورقتك وطولك وجمالك وصفاتك. لها أنف جميل يضيء وجهها كأنفك.

كانت تبتسم وتفرح، تشكرني على إطرائي، ما كان يمنعني من تجاوز حدود اللياقة؛ علاقتي الطيبة بزوجها، حيث هي جارتي في الكامب الذي أجلس به.

- أود أن أرى الابتسامة على وجهك، فهيَّ جميلة وجذابة، تريح أعصابي...

تلتفت إليَّ بخجل وفي عينها فيض سحر يغشي ابتسامتها الشفافة، قالت وعلامات الخجل شطت في وجنتيها بشيء من الريبة كشهب حرق احساسي:....

- عن جد تتكلم، هذا هو رأيك أم...؟
- هل عندك شك، أنت أجمل إمرأة تذكرني بزوجتي..
- أنت تتغزل بي.
- أنه مجرد اعتراف، ليتني استطيع تجاوز حدودي..
- صرت أرتاب من نظراتك، فيها نية خطيرة.
- حتى وهي بريئة؟
- حتى وهي بريئة، لأني أرى خلف براءتك قطة شرسة وحشية ترعبني.
- هههههههههه، استمعي لما أقول(وددت ان أغير الموضوع): ستكون لنا رحلة جماعية للغابة، وأنا أطلب منك أن تطبخي أكلة تخصنا كعرب بعيدا عن الذي سيجلبونه لنا من سندويشات، أودك أن تطبخي الدولمة (الملفوف) كما تسموها، علي أن أجلب لك ما تطلبينه من مواد...ما رأيك؟
- طلبك أوامر مستجابة، سأجعلها مشتركة بيني وبينك، سأشتري المطلوب بنفسي، وعليك دفع نصف المبلغ،

لألا تـدخل الريبــة فــي قلبــي وقلــب زوجــي، فهــو أشــبه بالثور دون مشاعر.

- وهـو كـذلك، ولـن أنسـى معروفـك. ولكـن أن كـان هـو كمـا تصفيه، لم تزوجته؟...
- أنهـا قصــة طويلــة وقسـمة وظـرف أعـور، أرجـو أن لا تذكرني بها.

بعـد تلـك الجلسـة القصـيرة تركتهـا تـداعب طفلتهـا حنـين، كـان زوجهـا قـد قـدم مـن المطعـم، يشـعر بنزلـة بـرد. عنـدها لسـعتني ذبابـة الغيـرة علـى زوجتـي، تـرى لـو كانـت معـي فـي الغربـة، هـل سـتطلب الطـلاق اسـوة بالنسـاء السـوريات؟ ذلـك مـا حـز فـي نفسـي لعشقي الكبير لها.

فـي القريـة المجـاورة كانـت تقطـن امـرأة نشـطة، جميلـة فـي الشـكل والطبـاع، رشـيقة القـوام، مرحـة. تلـك المـرأة لشـغفها بنـا ومحبتهـا لنـا، دعمتنـا بعملهـا الإنسـاني وبكـل الوسـائل. دائمـا مـا كانـت تحــاول أن تجمــع المهــاجرين حــول فكــرة معينــة، بهــا ترســم البهجـة علـى وجوهنـا. أحبهـا الجميـع لصـفة الوداعـة واللطافـة والمسـؤولية التـي تحملهـا. حفـزتْ الجمـع علـى ممارسـة الرياضـة الماراثونيــة والمشــاركة بأنشــطة ثقافيــة وترفيهيــة وتعليميــة، لكسـر الـروتين ومقاومـة الأجـواء البـاردة التـي تصـل لدرجـة حـرارة (20 ـ) تحـت الصـفر، الثلـوج تغمـر الأرض بارتفـاع قـدم وتزيد....

تلك المرأة كانت تصرف جل وقتها في اسعادنا، أعدت لنا أنشطة أسبوعية، اشركت معها زوجها وأبنها وأبنتها الجميلة لونا، وأحيانا ينطوي تحت لوائها أخوها. هذه المرأة والتي أسمها (شاشتين) تعمل مدرسة في مدينة جنيستا القريبة منا، وهي عضوة برلمانية.

جمعتنا ذات مساء في صالة البهو، للاحتفال بتجمعنا والتشاور معنا بمنهاج عملها الترفيهي والرياضي والتعليمي، كانت قد جلبت لنا هدايا بسيطة من علب الحلويات والكيك والمشروبات الغازية وما شابه ذلك، لتفتح أمامنا باب الاندماج بالمجتمع السويدي.

كما اطرقت آذاننا بصخب الموسيقى مع تلك الفرقة التي جلبتها معها، رافق العزف رقص عربي وسويدي وارتيري، كانت قد أبدعت سهى برقصها إلى جانب ماسة وخديجة، فشكلا نموذجا مبهرا في إطلالتهن، سرحنا بمفاتنهن، لجاذبية خديجة واناقة حركات ماسة ورقة سهى..

اتفقت السيدة شاشتين معنا على تفعيل ركضة المارثون في صباح كل سبت، ندور بها حول محيط الغابة المغنجة بالجليد، والتي تقع مقابل ملعب الجولف القريبة عنا، كما حددت لنا يوما لجولة التزحلق على الجليد في ملعب الجولف، إضافة لرحلات شهرية ترفيهية إلى الغابة نتناول فيها الغداء المشترك تحت ظلال الاشجار الصنوبرية.

أستمتعنا بمنهجها وبذلك اليوم، جلدنا الفراغ الذي كان يجلدنا، ما أن نتمكن منه في ساعات النهار؛ حتى يحكم قبضته علينا في فترة الغروب، يقحمنا في غيه وإذعانه، يجلدنا ببهتانه وقرفه وجلفه وظلاله ووجله، يقتص منا بِغلْ سلطانه وبلادته. ينغص حياتنا بمجرد أن نركن ذواتنا إلى باحة الصمت والسكون حين نأوي إلى الفراش.

دائما ما نبتهج بزيارة السيدة **شاشتين**، أشعر وجودها بمثابة العصا التي تلين جلد الكسل وغشاء يزح عنا ظلال الغربة والوحدة..

التحدي

بعد أسبوع من لقائي به، وفي فترة الفطور الصباحي وقف أبو وسيم يتأمل أبو عبدو رفيق دربه الطويل، عسى أن يعينه على ولادة الفكرة التي يبحث عنها، دخل معه في نقاش لم يفض لشيء، أنما زرع في داخله تحدٍ صريحٍ لمواصلة سعيه. حيث دار الحديث بينهما كالآتي:....

- يا ترى؛ يا أبو عبدو، هل لك فكرة ما تنقذني بها من الصراع الدائر في ذهني، والذي بات قريبا يهزمني؟
- ما بك يا أبو وسيم!.. هل جننت؟ أنت أفضلنا حالا.
- هههههه، وائل يقول لي جننت وأنت تقول لي جننت، وهل معقول أني جننت ولا أدري بحالي؟ هههههه، الحقيقة أني أعاني من ولادة فكرة، لكنها باتت عصية عليَّ.
- هههههههه، راجع مستشفى الولادة.
- لا تكن سخيفا، أنا جاد معك..
- ألمْ تقل أعاني من ولادة؟ هههههه. هل لك أن تفهمني أنت ذكر أم أنثى.هههههه..أنا لم أفهم عليك...ألم تجد غيري تتفلسف عليه ؟
- ركز معي يا أخي. ، فكر معي، أبحث عن البصمة الضائعة، أريد أن أصل إليها دون أن تعينني قدراتي.. أود أن أجعل من هذا الموقع وجهة سياحية، ما رأيك؟

- بسيطة جدا.. لا يوجد أبسط منها.
- هيا يا عبقري أرفدني بما يجول في خاطرك، قل لي بماذا تفكر يا مجنون؟
- ممكن تحوير شكل البحيرة الطولي لشكل دائري.. ثم نأتي بتلة مخروطية نثبتها في وسطها.
- لا تكن لتوتا، فكر معي في حل يسعفني، أنا لست فاضي لترهاتك يا رجل، فلا توتن أفكارك بأفكار غيرك.
- أنت مجنون؟ المنطقة سياحية من أصلها، ماذا تريد أن تفعل بها... هل أنت إله لتقول للطبيعة كن فيكون؟ بذلك تغير من شكلها كما تريد.
- أنت الذي مخك ترللي، لا تستوعب حالة الصدع الماثلة في مخي، هههههههه.... فكرك محدود، لا تود أن تخرج عن إطار نطاقك الضيق، دعك متقوقع في سجنك...
- أتريد أن تجننني؟
- يا حبيبي! يا رفيق دربي! أصغي إليَّ.. أنا أود أن أضع لهذه اللوحة الجميلة التي تراها بعينك إطارا، بحيث أجعلها مميزة عن الأماكن الأخرى لتكن مزارا.
- إذا أعمل فيها مطاراً! آن ذاك تجبر الركاب على النزول بها، أن يمروا عليها مرور الكرام، ليروا البحيرة وهذه الأشجار الباسقة من صفصاف وصنوبر وأثل وزيزفون وقرم والتي تغطي بقع واسعة من الأرض. علما هنا الأنسان نادرا ما يرى الشمس حتى لو كانت مشرقة، فأنها لن تستطيع أن تتخلل كثافة الأشجار الباسقة بكامل خيوطها.

- والله فكرة، بدأ مخك يشتغل.... لكن بدل المطار أفكر بأن أنزل القمر من جوف السماء، أثبته بخيوط في قمم هذه الأشجار الباسقة، ليبقى مطلا فوق هذه المنطقة الوسطية بالذات، بحيث يكون ليلها نهارٌ دائم...ها.. ما رايك؟ يكون القمر معلقا فوق رؤوسنا بشكل دائم.
- الم أقل لك أنت مجنون!
- أنا عند وعدي، حين ابدأ بالعمل عليك أن لا تتقاعس، عليك أن تبدأ معي، حينها نرى من هو المجنون أنا أم أنت؟

بعد هذا النقاش الذي استمعت له، ولجنا إلى المطعم والذي كنا قد جزعنا من أكله المكرر الذي لا يواكب رغباتنا، أهجس بمعدتي أصبحت مزرعة بطاطا ومكرونة، لتكرارها علينا، كنا نأكلها مجبرين، فالمكرونة التي كنت أأكلها في السنة مرة، صارت من الوجبات رئيسية في الطبق الأسبوعي.

بقي في خلده يفكر دون هوادة، تراءى للغير بوضوح تام، خاصة لأم وسيم! التي بات فكرها يشذ بعيدا، تنشغل به أكثر من انشغاله بنفسه وبالفكرة الدائرة في رأسه.... هي أقرب الناس إليه، تعرفه جيدا، تعرف طباعه ومدى تفكيره وهوسه وجنونه..... تعرف إذا ما شغل ذاته بأمر ما، لن يتركه حتى يصل مبتغاه...

إذا هنالك هم ما يشغل باله، أرهق فكره، ترى ما هو ذلك الشيء؟ ما هو السر الحقيقي وراء صمته وسرحانه الطويل؟

علمـا أنهـا لماحـة، فاتنـة، جذابـة، صـارت تشـك بـه وتهـادن نفسها:..

- يا ترى؛ أيمكن أن يكون قد جنَّ وأغرم بغيري؟..

صار قلقها يشغلها كثيرا.. باتت تكلم نفسها بجنون..

- لالا مستحيل، لـن يفعلهـا، أنـا واثقـة مـن شـغفه بـي.. لكـن يجـب أن أحـرص وأتأكـد، يجـب أن أعـرف بمـاذا يفكـر وماذا يدور في خلده.

وهـي جالسـة علـى دكـة أمـام واجهـة المطعـم وعينيهـا منصـبة علـى واجهـة البحيـرة برفقـة رفيقتهـا منـال، راودتهـا فكـرة شـيطانية للحظـة، فكـرة نقلتهـا لعلـم الخيـال والعبـث، دلقتهـا فـي ذلـك الفـراغ الـذي أعـاني منـه، هفـت بهـا الـريح لعـالم الشـك كريشـة حمـام، كـش وجههـا، غـدت أشـبه بـالورس الاصـفر يختنـق بوجههـا الابتسـام، تـود أن تكسـر قفـل مخـه لتتأكـد بِمَ ينشـغل بعيـدا عنها.

فلم تصبر على جلدها حتى هاجمته بعاطفتها قائلة له:....

- ما بك يا حبيبي بم أنت مشغول؟
- ألا تـرين مـا نحـن عليـه؟... لا بـد مـن عمـل أبـين بـه حقيقـة مـن نحـن، الأعـلام الخـارجي كبيـر وقـوي، تحركـه أيـادي خفيـة معاديـة لنـا، يـا تـرى كيـف نواجـهُ هـذا المـد الكاسـر أن لم نقدم عملا يعضدنا؟

- ولـــم تشـــغل بالـــك؟...أأنـــت المعنـــي أم هـــؤلاء الـــدواعش والمليشيات الوقحة العابثة بأرواح الأبرياء.
- العمـل الإرهـابي الـذي وقـع فـي فرنسـا قبـل أيـام، أسـتغله الأعـداء فألصـقوه بنـا وبـديننا الحنيـف، علـى الـرغم مـن أن شـعبنا هنـاك يتعـرض لإبـادة جماعيـة، بلادنـا تنتهـك وتغتصـب بأيـاديهم القـذرة، هـم مـن أوصـلونا لهنـا، هـم أول مـن بـادر بـدعم تلـك العصـابات لتثبيـت أقـدامهم... ألـم تـدعم فرنسـا عصـابات الإرهـاب بالسـلاح لتحـرق سـوريا ولبنـان وليبيـا، وقبلهـا دمـرت تـونس والجزائـر؟ الـم يزرعـوا الكيـان الصـهيون فـي قلـب الـوطن ليبتـزوا الشـعوب العربيـة؟ مـن أعطـاهم الحـق مـن أن يسـتبيحوا دمـاء الفلسـطينيين متـى شـاءوا؟ أوربـا أحرقـت اليهـود، والفلسـطينيين والعـرب يـدفعوا الـثمن. مـن أحتـل العـراق وشـرد شـعبه وقـوض قدراتـه؟ مـن لـه مصـلحة فـي دعـم هـذه العصـابات والميليشـيات التـي تجـوب بلـداننا كـدبيب النمـل بالأسـلحة والعتـاد والمـال؟ مـن شـردنا مـن ديارنا وأوصلنا إلى هنا؟....

ألا تـرين لـم يكـن لنـا دخـل فـي كـل تلـك المصـائب، ألا يجـب أن نـرد علـى الكـلاب المسـعورة التـي تلاحقنـا بعمـل يحفـظ كرامتنا.

- مـــاذا بيـــدك أن تفعـــل؟.... أنـــت بنفســـك تقـــول هجرونـــا، شردونا، قتلونا... فما باليد من حيلة.
- حتـى لـو شـردنا وتهجرنـا... هنـاك مـا لـن يسـتطيعوا السـيطرة عليـه أبـدا، نحـن نمتلـك قلوبنـا وعقولنـا، قلوبنـا مليئـة بالمحبـة

والإخلاص والصدق لكافة البشر، وعقولنا حالة خارجة عن نطاق السيطرة، هذا هو السلاح الأقوى الباقي في أيادينا، أقوى من كل ما يصنعون ويبدعون... نحن نفكر عكس ما هم يفكرون، نمضي في تيار معاكس لتيارهم تماما. تفكيرنا نابع من سمة الدين الحنيف، ومن عمق حضاراتنا، من الأخلاق الحسنة والقيم الأصيلة التي تشربنا بها، يعجزوا أن يدركوا شواطئها.

- إلا تتعظ وتنهي ما يأزم العشرة بيني وبينك؟
- لا يا حبيبتي أنت مكانك في الروح والقلب. عليك أن تآزرين. تشدي عضدي، دعيني أصل لغايتي..
- سأقف إلى جانبك حين تبدأ، أظن العمل مجرد خيال فقط.
- وأنا أظن كذلك، المهم أنا أفكر، أريد أن أترك بين هؤلاء ذكرى، ليقولوا هاهنا كانوا يقطنون من الصِقَ بهم تهم الارهاب جزافا... بالله؛ أيوجد إرهاب أكثر من إرهابهم لنا؟

كنت قد جلبت كاسين من الشاي له ولزوجته وجلست بجانبهم أستمع لنقاشهم على هوادة، وقلت له وانا في سري أطرب على إصراره على خوض تجربة غريبة، حيث المشاهير لن يكونوا مشاهيرا في الأعمال العادية التي ممكن أن ينجزها الغير، أنما في عمل مميز يفوق طاقة العقل. لذا قلت له:....

- أين وصلت يا أبو وسيم؟ هل أتقدت شعلة الجنون في ذهنك؟

- تعال وأستمع لما أفكر به...

أخذ ورقة وقلم من أبنته لانا التي كانت تقف إلى جانبه وهي تحاول مذاكرة دروسها في اللغة السويدية. صار يرسم ويخطط شكل المنطقة على الورق، ربما الورقة تعينه على إيجاد شكل البصمة التي يبحث عنها، ربما تقرب إليه الفكرة أكثر مما هي على الأرض، لصغر حجمها وسعة الأرض.

- أنظر يا وائل، وأنتِ يا أم وسيم وأنتِ يا دب (مشيرا إلى أخته منال) شاركونا الراي؛ هنا ملعب الكولف، هنا بناية اوستربو، اسكولان، فاستربو، رسبشن أو المطعم، نوريبو، اوليمبن. هذه خريطة المنطقة التي نقطن بها..
- واضحة المعالم لنا ما بها؟
- إلا ترين يا أم وسيم بأن شكل المنطقة شبه بيضوية، شبه دائرة القطع الناقص، البحيرة تحدها من الجنوب، والغابات من أطرافها الأخرى.
- والشارع واصل لوسط الأبنية.
- أحسنت. هذا يعني المنطقة بحاجة لعلامة مضيئة وبارزة في الوسط، لتشع نورها على بقية الأمكنة.

أشرت له بأن المنطقة المحصورة تعتبر صغيرة الحجم لا تفي بالحجة التي يفكر بها، فقلت له:....

- المنطقة ضيقة، لا تصلح لمشروع تجاري كبير، كمركز ألعاب الكترونية أو كازينو، كما أن الأرض ليست مستوية.
- لالالالا... أنا لا أفكر بهذه الطريقة، أنا أود أن تترك بصمة هنا قبل الرحيل والمغادرة.

ظل ذلك الهاجس يشغل باله، كيف السبيل للوصول إلى البصمة، وكيف سيكون شكلها ولونها؟ ترى هل سأصل إليها، أم سأبقى قابع في جحر الأحلام؟ أهي نجمة في جوف السماء أم هي أقرب من حبل الوريد؟.

صار يكلم نفسه ويجيب:....

- لو سعى الأنسان فلا شيء يقف أمام سعيه؛ إذا لا مجال للمستحيل، طالما أنا أفكر إذا أنا موجود، وطالما أنا موجود إذا سأصل للهدف، نحن نعمل بجد ونفكر بإمعان، إذا لابد من كسر قيد الهوان حسب القاعدة التي نراها.

وهو في خضم تفكيره الغير منقطع؛ باغتته رغدة أبنت صديقه أبو عبدو بسؤال عفوي بريء، فهي طفلة في ربيعها العاشر.

- عمو أبو وسيم، عمو. كيف يكون **العَلَمُ نورٌ** ؟ أنا لم أفهم العبارة، ممكن توضح لي ذلك؟

- **العَلَـمُ نـور**..... لا لا يـا حلـوة، لـيس **العَلَـمُ نـورٌ**، إنمـا **العِلْـمُ نورٌ**....

العَلَـمُ... العَلَـم، صـار يـردد تلـك الكلمـة فـي ذهنـه.... إذا هـو، هـو العَلَمُ... نعم وجدتها.. العلمُ هو البصمة التي أبحث عنها.

قفـز مـن مكانـه محتضـنا رغـدة ليقبلهـا مـن جبينهـا، ثـم أحتضـن أم وسيم والفرح يملأ شغاف قلبه، صار يصرخ بحضنها:...

- وجـدتها... وجـدتها... لقـد حُلـتْ العقـدة التـي أبحـث عنهـا، اسـتلهمتها مـن عـابرة أخطـأت بلفظهـا طفلـة. نعـم -- كـل شـيء مسـخر لنـا فـي هـذه الطبيعـة، الحيـوان والنبـات والشـمس والقمـر والأرض والسـماء.. كـل شـيء مسـخر لخدمـة البشـر. ألـم يـتعلم قابيـل دفـن أخـوه هابيـل مـن طـائر الغـراب؟ إذا علينـا أن نسـتلهم أفكارنـا مـن المحـيط الـذي نعيش فيه، من تجارب الآخرين حتى لو كانت بسيطة.

بعـد أن أسـتلهم الفكـرة صـار يفكـر بطريقـة تنفيـذ مشـروع العَلَـمْ، ود أشـراك جميـع مـن يعـيش معـه فـي الكامـب بتنفيـذ أكبـر علـم فـي السـويد، كـي تكـون للبصـمة طـابع جمـاعي، يخـص المهاجرين.

وهـو فـي تلـك النشـوة وجـد خديجـة وزوجهـا الـدو وربيـع ومحمـد وترامـب وصـلاح مـن الجاليـة السـورية جالسـين فـي شـرفة المطعم المطلة على البحيرة، أقترب منهم وقال لهم :....

- لنـــا عمـــل مشـــترك ســـأطلعكم علـــى تفاصـــيله، أودكـــم أن تأزروني وتشاركوني جميعا به...
- حتى النساء ... (قالت خديجة).
- حتـى النسـاء، أنـه عمـل جبـار، سـنترك هنـا بصـمة قبـل أن نغادرها.
- كلنا معك.... (ردد الجمع بذلك).
- سنعمل أكبر عَلَمْ في السويد!!!!!

*****

فـي مسـاء اليـوم التـالي الأثنـين 30/ 11/ 2015 أجتمـع لفيـف مـن المهـاجرين بفسـحة فـي باحـة الجلـوس المُشْـرِفَة علـى واجهـة البحيـرة مـن أمـام المطعـم، كـان مـن ضـمن المتواجـدين أبـو وسـيم إلـى جانـب، كـل مـن لـورانس والـدكتور عبـد العزيـز وأبـو عبـدو وأحـد السـويديين وأبـو مـرق وترامـب ومزعـل وربيـع وغيـرهم... بالإضافة لتواجدي إلى جانبهم.

كنـا نتجـاذب الحـديث ونحتسـي الشـاي.. وقـد طـرح علـيهم أبـو وسيم فكرة أنشاء أكبر علم في السويد، قائلا لهم:....

- يـــا جماعـــة؛ أنـــي بحاجـــة لآرائكـــم، عنـــدي فكـــرة أود تطبيقهـا، وهـي أنشـاء أكبـر علـم فـي السـويد.. هـل لكـم أن تسـاعدونني بـــ كيفيـــة تنفيـذ هـذا العمـل؟ مـــاهي المـــواد

الممكن استخدامها؟ وما تكاليف إنشائه؟.. ما رأيك يا دكتور؟ ماذا تقول في الفكرة؟..

- فكرة لطيفة جداً، عليك تحديد المكان والتفكير بحجم العَلَمْ كم سيكون عرضه وطوله، وكم يأخذ من المواد المطلوبة لمعرفة التكلفة...ترى؛ هل ينفع القماش؟..
- أنا فكرت بأن نجعله على الأرض من الحجر، نرتبه على مساحة مائتي متر مربع، ثم نصبغ البقعة بلوني العلم الأزرق والأصفر؟... ماذا تقول يا ترامب. هههههههه، كان المفروض أن أأخذ رأيك أولا. هههههههههههه.
- هههههه. أنا رأي الحجر صعب تجميعه في هذه المنطقة، ثم أنه يلم الغبرة، وإذا ما وددت أن تجعله من الحصى أو الحجر يجب عليك أن تصفف الحجر على أرض مبلطة، لأن الحشائش ستنمو بوسطها وتتداخل بينها فتخفي معالم العلم مع مرور الزمن. دعنا نرى رأي السويدي، هم أصحاب البلد الأصليين حتما لهم فكرة أجدر من أفكارنا....
- السويدي: أنا أظن لو جعلناه من صفائح البلاستك الملونة يكون أجدى، يكون أقل تكلفة وأكثر حيوية، وممكن أن تغسل بالماء ويتجدد رونقها، ثم لا تخترقها الحشائش. ماذا تقول يا لورانس؟
- والله فكرة لطيفة، مع ذلك أظن أن البلاستك لا ينفع، لأن الطقس هنا متقلب، ففي اليوم الواحد نشاهد أربعة

فصول. العواصف، الأمطار، الثلوج، مع مرور الزمن تتأثر بالتعرية، فيبهت لونها ويخف رونقها، إضافة لاستقطابها للغبرة بشكل سريع، حيث تصبح مع الزمن أشبه بالغراء الذي لا يمكن جليه.. ما رأيك يا أبو مرق؟

- فكرة الحجر هي الأفضل، أو نجعلها من قوارير المشروبات الغازية بعد أن نملئها بالمياه الملونة الأزرق والأصفر، أكيد أبو عبدو يوافقنِ رأيي....
- لالا أكيد لا، هههههه، أوافقه.... أولا الحصى تجمع الأوساخ، والقوارير ممكن أن تتكسر، ألا ترى فصل الخريف وكمية تساقط أوراق الشجر التي لا يمكن السيطرة عليها. أنا أفضل رسمه على جدران أحدى البنايات الكبيرة.
- لورانس :ما رأيكم لو نشرك السيدة رندا، وهي مهندسة شاطرة، لربما نجد عندها حل أفضل من الذي نفكر به. ها هيَّ قادمة.

رندا سيدة مرموقة بعقد الخامس من العمر، قادمة من ثكنتها على وقع خطى الصمت تمشي الهوينا، أكاد لا أهجس بوقع حفيف قدميها على الأرض، لهدوئها واستقامة قدها المياس، أهجس بها تمشي الهوينا على عزف ترنيمة القلب، دائما ما تراها منفردة بذهابها وإيابها لموقع بناية اوستربوا التي تقطن بها.

أستأذنها لورانس لتنظم للمجموعة، وقد لبت النداء مسرورة. باشرها أبو وسيم بطلبه..

- يا أم أحمد! أنا أفكر في عمل كبير يشرف أهل الكامب، أود أن أعمل أكبر علم في السويد، محتار في نوع المادة الممكن استخدامها، لم نتوصل إلى فكرة ترضينا. كونك لك خبرة في مجال عملك، ماهي المادة المفضلة لذلك؟ هل ممكن أن ترفدينا بفكرة ما؟
- أظن أن السويد مشهورة بالغابات، فمسألة الخشب متوفر ورخيص جدا قياسا للمواد الأخرى، أضف إلى ذلك بأنه لا يتأثر بالمناخ.
- يسلم ثمك، فكرة صائبة، الله عليك كيف غابت عنا تلك الفكرة، الآن الفكرة اكتملت، أدركنا الغاية المنشودة، فعلا الخشب هو أفضل مادة مقاومة وأرخصها ثمنا.

كان قد ازلف الوقت وأزفت فترة العشاء، كلٍ منا أنزوى في غرفته نتيجة الصقيع المستمر، لقصر نهار شهر تشرين وكانون الثاني قياسا لطول ليله، الشمس التي نادرا ما نراها تغيب بعد الثالثة مساء. ذاك ذهب لحُضنِ زوجته وذاك ذهب لحَضنْ مخدته...

المقارنة صعبة جدا أن تجد من يكشط هم اليوم وعناءه بقبلة دافئة، ومن يدفنها في مخدته ككوابيس وأحلام مزعجة. هذا هو الفرق بين العازب والمتزوج في الغربة. بت أهجس بها عربة الحلم ما عادت تتقدم بنا بسبب عجرفة دائرة الهجرة.

مع أني تمنيت أن تكون زوجتي معي في تلك الساعة، لكني شكرت ربي بأن زوجتي ليست معي، لربما أخذت العدوى منهن. صرت أكره النساء إلى ما ذهبن إليه من انحراف فكري وسلوك واهن، ألوم رباب على سخف سلوكها وانحرافها، الوم خديجة على جرأتها وخوائها، وحميدة على ضعفها وهوانها، وسهى على صلافتها وغرورها.

" وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا [النور:31]" صدق الله العظيم.

لابد ان تكون قدسية العلاقة بين الزوج والزوجة لها مكانة فوق كل شيء، وإلا لا تعتبر العلاقة توافقية مطلقا، وقد وصى الله بذلك..

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } صدق الله العظيم

لابد هناك من درجة توافق، ليتربى الأولاد على قائمة الاحترام والتوافق كأبو وسيم وأم وسيم للاتزان الوضح في علاقاتهما. فالإفراط في تخطي الزوج حدود العلاقة الزوجية يؤدي إلى تدمير هيكل الأسرة. فعلى كل امرأة أن تجعل من ذاتها آية في نظر الرجل، حيث المرء ينظر إلى فتنة المرأة

بنصف عين وإلى فكرها وثقافتها ودرايتها بالنصف الثانية. وعلى الرجل أن يحترم الزوجة ومتطلباتها..

في الحقيقة الرجل كالحشرة، ما أن يشاهد زهرة حتى يفتتن بها، كل النساء يجذبن الرجل، ولكن قلة من النساء اللاتي ينظر لهنَّ بعين عفيفة، فلا صداقة بين الرجل والمرأة قط إلا ما ندر.

ذلك ما يجعلني أن أخاطب حبيبتي بين فترة وأخرى لأطيب خاطرها وتطيب خواطري الملتاعة، نجبر خواطر البعض، نصبرها، وأن كانت تحتمس فوق جمر نار الفراق. لذلك صرت أرفع الهاتف وأنا أعلم قد كلّ الصبر وشتَ الفكر، صرنا نقرف الحياة وهي منكبة على رصيف الطريق:...

- الو....
- هلا بالغالي. كيف الحال..
- الحمد لله الصحة جيدة ولكن الفكر مشغول فيك، تائه، أدور في دوامة الفراغ، حيث لا استقرار في مجال الفكر ولا راحة تسكن الجسد إطلاقا.
- أصبر أن الله مع الصابرين، اليوم ذهبت لمعرض السيارات مع صديقتي ناديا، وقد أعجبتني عجلة رف 4 تويوتا جميلة، قمت باستبدال عجلتي بها من باب التغيير، لأنها صارت ترتع بالعطلات وتكثر من توقفاتها في الطرق. لقد دفعت فوق سيارتي خمسة آلاف دولار واستبدلتها بعجلة جديدة، أنها موديل السنة الماضية.

- ممتـــاز مبـــروك عليـــك ذلـــك، حســـنا فعلـــت، لأن عجلتـــك تجـاوزت الـــ 160 الـف كيلـومتر، لـذا اسـتهلك محركهـا مـن الداخل.
- ثـم ذهبنـا لشـاطئ البحـر، جلسـنا فـي مقهـى علـى الشـاطئ، ثـم رجعنـا لأبـوظبي، وبـذلك كسـرنا روتـين الحيـاة الـذي يطـوق اعناقنـا. نحـن فـي إجـازة مفتوحـة بسـبب احتفـالات رأس السـنة الميلاديـة، سـيبدأ الـدوام فـي **1\5** مـن السـنة الجديـدة. أي نحـن في إجازة لمدة خمسة عشرة يوم.
- أهـا....ممتـاز.. وهـل مدرسـتك الجديـدة اقـرب أم أبعـد عمـا كانت.
- لا أنهـا أبعـد بحـدود عشـرة كيلـومترات، أنهـا علـى جهـة بنـي ياس.
- بـالتوفيق يـا حبيبتـي وأنـي مجـرد أن أسـمع صـوتك أشـعر براحـة، حـافظي علـى صـحتك ولا تسـيرِ بسـرعة فـي الشـوارع الخارجيـة، دائمـا مـا تتخلـل الطـرق المفاجئـات. الله يحفظـك من كل مكروه.
- شـكرا لـك وأنـت أعتنـي بنفسـك، وأنـا أدعـو الله أن نجتمـع قريبا.
- أن شاء الله... مع السلامة
- مع السلامة

شاشتين

في صباح يوم السبت الثاني من كانون الأول، وأثناء فطورنا الصباحي، زارتنا السيدة شاشتين تحمل كرتونة من الأحذية الرياضية المستعملة، جاءت بها لتوزعها على من يرغب في مشاركتها ركضة الماراثون حول الغابة. وجدتُ في هذه المبادرة فرصة لتغيير روتين الحياة، ولو بشكل بسيط، يكفل لنا كسر رتابة الروتين وغطرسة البرد، ويبدد ذلك الفراغ اللعين الذي نهش أفكارنا وعلس أجسادنا، باتت شناطته لا تنفك عن رقابنا.

رغم قسوة الجو، جاءت السيدة شاشتين بحيوية تكسر بها عدسة البرد، وقد بلغت درجة الحرارة في ذلك اليوم سالب 15 مئوية. على الإنسان أن يتحرك، السكون يؤدي إلى الموت البطيء، الحركة تجلي الخيبة وتصقل الأمل وتبدد الملل. فعليه أن يوقظ في ذاته تعبير التغيير، أن يستغل الفرص المتاحة، ليبدل الصبغة الكسل بأخرى تتقبلها النفس وتنسجم مع نمط الحياة الجديدة. بتلك الطريقة يضفي على حياته جاذبية تشد حبه للطبيعة. عليه أن يغير مكانه وسلوكه وتفكيره، ولو بانحراف بسيط عن مساره المعتاد، ليحتفظ بالزهو والمكانة في نفسه وروحه، على الأقل تكون بلسم لحالة القلق والأمراض النفسية بسبب ضغوطات الحياة..

مـع التغييـر، تتغيـر بوصـلة الأمـل، فينشـط الحلـم ويزيـد صـبره ويقـوّى مقاومتـه للمعضـلات والمعوقـات غيـر المتوقعـة، التغييـر يمنح الشخص راحة تعينه على الاحتمالات والاعتلالات.

حـين أقـول "نقتـل الوقـت"، أعنـي ذلـك البعبـع الكـامن خلـف المـدى، الفـراغ المجحـف الـدائر فـي عقولنـا، والسـاعي لتجريـدنا مـن أهوائنـا وهويتنـا وصـفاتنا. كمهـاجر، بقيـت ملفـاتي عالقـة علـى رفـوف دائـرة الهجـرة، تسـتقطب غبـرة الأيـام والسـنين دون اهتمـام، تنتظـر مـن يرفـأ بهـا وينتشـلها مـن النسـيان. هـؤلاء عـديمو الإنسـانية جردونـا مـن أحلامنـا، همشـوا وجودنـا وسـفوا نظرتنـا للغـد، وكـأنهم لـم يدرسـوا علـم الناسـوت ليكرمونـا ولا آمنـوا بقـدرة اللاهـوت ليقـدرونا، فتحجـرت قلـوبهم قبـل أفكـارهم، بسـبب أنـزيم العنصـرية السـاري بـدمائهم، صـاروا لا ينظـروا لرغباتنـا ولا يحلوا الغاز ملفاتنا التي تكدست في سلال المهملات.

تجمعنـا قرابـة عشـرين شخصًـا، بـين شـاب وشـابة، وبـدأنا نتبـع السـيدة شاشـتين وابنهـا وابنتهـا البتـول فـي هرولـة خفيفـة حـول الغابـة الوسـطية، التـي تقـدر مسـاحتها مسـاحة ملعـب كـرة القـدم. كـان علينـا أن نـدور حـول المكـان ثـلاث إلـى خمـس دورات، رغـم أن أرض الغابـة كانـت مغطـاة بجليـد، أرض غيـر مسـتوية تتخللهـا حفـر ونقـر وأحجـار وعـروق أشـجار وأغصـان اسـقطتها الريـاح لتعتـرض الطريـق. كـان خطـر الانـزلاق والسـقوط فـي البحيـرة وارد، لمـرور خـط الهرولـة بمحاذاتهـا المتجمـدة، التـي تعـد أخطـر المنـاطق، إذ يمتـد المسـار الطينـي لأكثـر مـن مئـة متـر

وهـو يحـد البحيـرة بارتفـاع ثلاثـة أمتـار، ممـا يربـك المتسـابق فيزيد من اضطراب القلب خلال تجاوز تلك المسافة.

كـان صـراع التحـدي دائـرًا بـين الإرادة وقسـوة الطقـس، بـين دفـق الرغبـة ومجهـود البـدن، وبـين لسـعة البـرد التـي تـأزز الجلـد ونسـائم الصـبح الجلـدة، سـماء صـافية، شـمس خجولـة، تبتسـم كطفلة تائهة في الأفق البعيد.

بـدأت أتحسـس لسـعة البـرد فـي وجهـي كلسـعات الـدبابير، خاصـة فـي مفصـل الأنـف الـذي فقـدت الإحسـاس بـه. وكـأن الشـمس تبـرأت مـن جفـوة الطقـس فنزعـت ثوبهـا، فاسـتحت مـن نظراتنـا، فاختبـأت خلـف الأشـجار الباسـقة. لـم تمنحنـا دفئهـا، وكأنهـا هـي الأخـرى استسـلمت للصـقيع، صـارت تبحـث لهـا عـن ملجـئ تختبئ به.

أثنـاء الجـري، أرهقتنـي عمليـة الشـهيق والزفيـر، شـعرت كـأنني أتـنفس ثلجًـا، ممـا سـبب حساسـية شـديدة فـي الحنجـرة ومجـرى الأنـف. خشـيت أن أصـاب بالزكـام، فغطيـت أنفـي وفمـي بـورق الشـفاف الكلينكس، لكنـه كـان يتمـزق نتيجـة تشـبعه برطوبـة أنفاسـي، فاسـتبدلته مـرارًا حتـى تمكنـت مـن إنهـاء دورتـين حـول الغابة بصعوبة بالغة.

رغـم كـل ذلـك، وجـدت فـي البـرد دافعًـا للهرولـة، رغـم تجمـد أصـابع القـدم. توقفـت عـدة مـرات بسـبب الإجهـاد، كمـا أن التـنفس

عبر الفم أرهق الحنجرة، فانسحبت من المراثون خوفًا من الإصابة الزكام.

كانت السيدة شاشتين تكرر نشاطها كل صباح سبت، فصرت من أوائل المشاركين معها، حتى أني أشعر بالضيق إذا تأخرت أو غابت. كانت أنشطتها الرياضية والثقافية والترفيهية تشغلنا عن محنة دائرة الهجرة والفراغ العائق.

خلال الهرولة، كانت تجري إلى جانبي الآنسة لونا، أو ربما كنت أتبع خطواتها دون شعور، تلك المزدانة بالفتنة والألق، بطولها الفارع ووجهها المشرق وقوامها الرشيق. وجدت في مصاحبتها فرصة لأستنشق رحيق أنوثة تقيني شر الملل، فهي بكيانها تبدو وردة نادرة في أول تفتّحها، لم يلامسها دبور وعبيرها شذي. كانت لها رقة وجسد مشبع بالأنوثة، مرحة، سلسة، عذبة، طرية، بريئة... حتى أني كدت أن ألوث براءتها بزفرات طيشي، حين راودتني رغبة في احتضانها وتقبيل خدها التفح، بعد أن اقتربت مني لتساعدني على مواصلة الجري.

نظرت إليّ نظرة بريئة، تملكتني بها، فبت أهجس السحر ينساب مع العرق على أسيل خدها، يترقرق تحت وهج الصباح المراق فوق البشرة الجذابة، سحر يوائم طراوة شعرها الذهبي المنساب كخيوط حرير على جانب وجهها. بدت كزهرة عباد الشمس، تبحث عن شمس تبهج مفاتنها،

ومـرآة تعكـس سـحرها. خلتهـا زوجتـي فـي لحظـة ضـعف اسرتني، فتقربت منها دون أن أعي.

خـلال هرولتـي كنـت اسـعى الـى مجاراتهـا. كانـت فـي ريعـان شـبابها، فـي قمـة لياقتهـا، ابنـة العشـرين عامًـا، بينمـا كنـت فـي منتصـف العقـد الثالـث مـن عمـري. شـعرت بسـعادة غـامرة حـين مدت إليَّ يدها لأواكب هرولتها في نهاية الدورة الثانية.

مـا أن لامـس كتفـي كتفهـا، ومـا أن لاح عطرهـا خياشـيمي؛ حتـى دنـوت منهـا راجيًـا احتضـانها، لـولا أن لاحـت إشـارة مـن والـدتها شاشـتين، تحثهـا علـى اللحـاق بهـا، وكأنهـا شـكت بنيتـي السـوداء، فكانـت اشـارتها كافيـة لأعـادتني إلـى رشـدي، وانتشـلها مـن شرودي.

كانـت حـرارة أجسـادنا قـد ارتفعـت مـع إتمـام الـدورة الأولـى، وصـار يتفصّـد الجبـين بـالعرق رغـم شـدة البـرد. شـعرت بالنسـيم وكأنـه شـفاطة تسـحب الحـرارة مـن الجسـد، وتحـول النـدى إلـى برد.

مـا أعـاق سـعي اسـتمراري فـي الهرولـة هـو ضـعف ليـاقتي البدنيـة، وطبيعـة الأرض غيـر المسـتوية، والأغصـان السـاقطة، والجـذور المتشـعبة، إلـى جانـب خطـورة الممـر المحـاذي للبحيـرة. خفـت أن يختـل تـوازني وأسـقط كحجـر اصـم فـي الميـاه المتجمدة.

أخيـرًا، عـدت إلـى غرفتـي، لـم أسـتطع إكمـال المشـوار. بـدلت ثيـابي، أزحـت عـن جسـدي صـنم العـرق، تحممـت، وتمـددت علـى فراشـي. لتسـرقني إغفـاءة قصـيرة، أزاحـت عـن كـاهلي كتـل الإرهـاق والتعـب والكـدر. ومـا أن فقـت؛ حتـى توجهـت إلـى المطعم، حيث أزفت ساعة الغداء.

بعـد ذلـك النشـاط الصـباحي، دبّ فـي جسـدي نشـاط زهـري، كشـط عنـي الكسـل والخمـول، انـتعش الفكـر والقلـب. أمسـكت قلمـي، وبـتّ أسـطر خـواطري علـى الـورق، فكتبـت شـيئًا بسـيطًا عن لونا، وعن فراق زوجتي.

حينَ حَلِمتْ

انفلتَ الحُلمُ منَ المَعنى

كحَمامةٍ

ماءٍ بينَ السُّهدِ والحَنينِ

تَبِعتْ خَفْقَهُ

وهوَ يَدورُ في مَدارِ الأسئلةِ

يَزحَفُ خلفَ نُواةِ فِكرةٍ

جَلَدَها الشَّكُّ

وأسكرتْها السنينُ

عَبرَ توهُّجي

ما كُنتُ يومًا قَدَرًا لأحد

ولن أكونَ

إلّا إذا اصطبغَ الشَّوقُ بالوُدِّ

وكوَّرَ الصَّمتُ باليَنِ

ذاكَ هو أنا

مِن جُنونِ الصَّبرِ خُلِقتُ

ومِن قَطرِ المَرارِ ارتويتُ

مَهْما تَجلَّدَ الزَّمنُ

في جَوفِ الزَّمنِ أتوسَّدُ اليقينَ

\\\\\

فـي عصـر ذلـك اليـوم صَـحبت أسـماعيل وفـاروق وأنـس وعلـي إلـى شـاطئ البحيـرة المتجمـدة، كنـا قـد قضـينا يـوم اسـتجمام جميـل

ونحن نتجول فوق سطح البحيرة بشيء من الرهبة والقلق، خوفا من أن تنهار قاعدة الجليد تحت أقدامنا ومن ثم نسقط في مياهها الباردة. رغم برودة الطقس، جلسنا فوقها ورقصنا وجرينا بقلوب خافقة وجلة. خاصة فينا من لا يعرف فن العوم.. وحتى العوم لا يجدي نفعا مع لسعة البرد التي لا تحتمل.

هكذا شطبنا يوما من أيام الغربة المرة، وكأنَّ تلك الأيام التي افتقدنا فيها احبتنا غير محسوب على العمر، لشدة ثقلها ونحن نطارح الهم، ننتظر أن تنفك اصفاد القيود عن أقدامنا. حتى أني صرت أقرف اليوم القادم؛ أحسب له ألف حساب، لثقل دقائقه وثوانيه السمجة.

الحَلَمْ

بعد إشارة السيدة رندا، ثار أبو وسيم على نفسه، أضحى أشبه بالذي لسعته عقربة، لا يركن إلى موضع قدم، رانت مستشعراته نحو الفكرة باندفاع شديد، صار يبحث في جوف المستحيل عن صيغة ما لإكمال الفكرة.

لابد من تطبيق فكرة المشروع على أرض الواقع. أحيانا الفكرة لا تطابق المنهج المراد، أو استحالة توافقها مع طبيعة الارض مع قيمة التكلفة وبداءة الخبرة. لذا صار يستعين بهذا وذاك باحثا عن صيغة توافقية للبدء بعمل مشترك....

يا ترى؛... كيف يبدأ؟

من أين آتي بالأخشاب؟

كم ستكون التكلفة؟

كم من الأخشاب سيستخدم لمساحة 600 م^2 ؟

سيل من الأسئلة صبت في ذهنه، بات يبحث لها عن أجوبة في عيون الجميع ليهدأ باله، أضحى أشبه بالطير المهاجر بين المدن من أجل جلب مستلزمات العمل، ومن أجل إيجاد ظل يأويه.

في الصباح اليوم التالي كان قد طرح الفكرة على إدارة الكامب وبالذات على السيد بار مشرف الكامب، وجد اندفاعا وتأييدا من قبل الإدارة والمهاجرين، حينها طلب أبو وسيم من السيد لورانس أن يجسد له نموذجا ببرنامج الفوتوشوب.

كنت قد وجدت في مشروع أبو وسيم فرصة جيدة لتجديد حيويتي، لأشغل ذاتي وأروض حالي. لأهرب من قيد الفراغ الذي صار يدخل إلينا من جيوب أفكارنا كالريح الباردة، يزكم عقولنا ويعطب مستشعرات أعصابنا. وجدت في العمل معهم تسلية وراحة بال ومتعة، لأدعس الفراغ القاتل الذي أستتب خموله ودجنه في العقول، كما أن المشاركة منحتنا فرصة التعرف على آخرين، أبدلت الجفوة بالمخالطة، اذابت شمع العقد من على الذهن.

بفكرته كأن قد أنجد الكل من وحشة الغربة والفراغ الجانح بعقولهم، لأن الكل كان يعيش ذات اللحظة الطافحة في الوسط بالمرار عبر ثلب الفراغ العائمة.

كلٌ منا كان محتفظا بشيء من الصمت والتهكم في داخله؛ بسبب فراق الوطن والأهل والأحبة، وكأنَّ الفراغ دق أسافين العناء في ألوح أحلامنا، فبات يجرجرنا خلفة كعربة الحصن، متحملين عفسه ونغصه وتكالب الاحزان. كنا قد وضعنا أنفسنا داخل قوس التسديد بين الفرضة والشعيرة، هاربين من واقعنا المر وعقد دائرة الهجرة، لننجدها بالحكمة متى ما سنحت لنا الفرصة..

في المساء تجمع الجمع قرب المطعم، طلب أبو وسيم من الجمع التجمع صباح اليوم التالي بالورشة للمباشرة بالعمل. الجميع آزر أبو وسيم، ساندوه، عقدوا العزم على مواصلة التحدي. ما أن طرح الفكرة حتى هب الجمع كعصبة للمشاركة بتنفيذ فكرة المشروع، وجد دعما قويا وتأييد منقطع النظير من أغلب المتواجدين وأهل المنطقة. كان لشطارة السائق مزعل دور في لملمة الأمور، حيث بذل جهدا مضنيا في استتباب الأمر بجمع عددا من الشبان لحمل تلك المقتنيات وإيصالها للورشة.

وفي اليوم التالي جلسنا في الورشة نتداول أمر أنشاء العلم.. ما كان يشغل باله هو طريقة بناء العلم وأسلوب إنشائه...يا ترى؛ أيمد مساطر خشب على طولها، ثم يثبت أطرافها في الأرض؟ أم يفرش الأرض بقطع من خشب الإبلوك المضغوط بحيث يجعلها كمسامير مدقوقة بالأرض؟.. ظل في حيرة من امره في كيفية إنشائه.....

لم أتوانَ في إسعافه؛ حيث خطرت في بالي فكرة بناء العلم من البداية، لابد أن نجتث الحشائش من عروقها، أن نحفر الأرض بعمق شبر على الأقل لتكون القاعدة خالية من عروق الحشائش، ثم يجب فرش البقعة المحفورة بقماش ثقيل من الكتان أو من بلوك النايلون الأبيض، أو من نسيج الخيش، كي تمنع تدفق الحشائش بعد نموها مرة أخرى. ثم نثبت الخشب

فـــي الأرض كتثبيـــت المســـامير فـــي اللـــوح. علينـــا أن نـــزرع عرانيس الخشب زراعة على مساحة العلم..

نعـم نـزرع الخشـب، نُقَطِـع المسـاطر إلـى أجـزاء طـول الجـزء ثلاثـين سـنتمتر، نـدبب أحـد الـرؤوس لغرسـه بـالأرض بطـول عشـرة إلـى خمسـة عشـرة سـنتمترا، ونطلـي الطـرف الأخـر بـالوان العلـم، وبـذلك لـن يتـأثر بالتعريـة ولا تتغلـب عليـه الأعشـاب والحشـائش مهمـا طـال الـزمن، كمـا يمكـن إعـادة طلـي الأخشاب بين فترات متباعدة من الزمن.

كنـت قـد أخـذت الفكـرة مـن بطـون الـذاكرة حـين رجعـت بـي لكرسـي الدراسـة، لمرحلـة الطفولـة، حـين شـاهدت اسـتاذ الرسـم يرسـم وجـه الـرئيس مجسـما بالمسـامير علـى لوحـة خشـبية، بعـد أن حدد ملامحه وشعره بقلم الرصاص...

حينها قال لي:...

- فكـرة جميلـة أن نـزرع سـتمئة متـر مربـع بعـرانيس أخشـاب الملونـة، أنهـا فكـرة صـائبة، شـكرا لـك يـا عبقـري، أنقذتني.

يقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس ..

"مـا يبحـث عنـه الرجـل المتفـوق فـي نفسـه، يبحـث عنـه الرجـل العادي في الآخرين".

استقرينا على تلكم الأفكار، جمعنا الأخشاب، هيئنا المهاجرين الذين زاد عددهم عن خمسين شخصا في نهاية الأمر، قررنا العمل في الورشة الكائنة في بناية استربو، توافدوا الفتية وهم في فورة شبابهم على العمل.

حدد الموقع مثلما أخبر زوجته في قلب القطعة، وفي وسط العيون. وكما أخبر أبو عبدو في بقعة تعليق القمر ليشع نوره.

كنا نعمل في الورشة على فترتين، صباحية ومسائية ولمدة اسبوعين، بحيث مجموعة صارت تقطع الخشب وأخرى تصنفره وتنعمه بألة الجز والتنعيم، وثالثة تدهنه بصبغ البويا الأصفر والأزرق، على أن ندهن كل ثلاثة عرانيس بلون أزرق مقابل عرنوس يدهن بلون أصفر لتحديد النسبة.

مشاركة الفتيات ولد لنا اندفاعا للعمل وزرع في نفوس الشباب حافز، بحيث تضاعف العدد مع مرور الايام، هكذا بدأ المشروع يُجهَزْ بأسرع من الوقت المتوقع له.

كنت أجد في مجموعة النسوة اللاتي تطوعن للعمل فرصة نسيان الهم والوحدة في العمل معهن، عملت بمرافقة تلك النسوة الجانحات في فتنهن، المشاكسات والمسافحات في عقولهن وافكارهن ونظراتهن، المارقات في جداول خيالنا كأنهار من الزبد بحسن معانيهن وهن يتطوحنَّ بين بسطة الشباب بالضحكة والمرح، يسهلن الحياة، يزحن العقد، خاصة ونحن كعصبة وجدنا الألفة التي كنا عليها كباقة ورد منوعة.

بتواجدهن سُهل العمل، سلست العقد، نخلنا الذهن من اشواك الهم والغم، نسيانا ذلك الفراغ وسقم الوحدة.

النسوة وهن يعملن، كنَّ أشبه بخرز المسبحة في أيدي الشباب، يسبحون بمفاتن أجسادهن وبفتن ملاحة وجوههن وبشرتهن، بحيث بنظرة إلى صدر تلك ولهفة إلى شفاه تلك وعيون تلك، وإلى دبر وسيقان تلك وإلى بابتسامة تلك...الخ ندعك الصعوبات بالجهد والعمل، حيث نبهج أجواءنا بالطرافة والنكتة والمزاح الخفيف وأحيانا الثقيل الذي فرض وجوده حسب الحالة، هكذا شطفنا العقد.

تهتُ في فسيفساء تلك المفاتن؛ جلدتُ الفراغ بوهج تلك الصدور والمفاتن، شغلت بالي بسحرهن لأنسى مشقة الغربة والفراق، بذلت جهدا مضنيا، حيث فاضت الهواجس بين الطرفين بمحض الصدف والرغبة المتبادلة.

ما كانت تشدني إلى الألفة؛ هي الفاتنة سهى والجميلة خديجة بالإضافة إلى خفة منال وسقطة حميدة، اللاتي كن أول من تطوعن للعمل، اللاتي أشتركن في ذات العمل الذي كنت أقوم به، حيث أنيط لي عمل صبغ العرانيس، كنا نغطسها في سطل البوية، ثم نتركها جانبا لليوم التالي حتى يجف. عاونتني سهى في سبك العرانيس، فيما انشغلت خديجة في تصفيفها وترتيبها.

وهي تعمل معي كانت تكف بنطلونها لحد الركب كي تتجنب تأثير الصبغ، فتظهر سيقانها البضة وكأنهن مصابيح مطلية بماء الفضة، للسحر المنتبذ بهنَّ.

حين تنحني إلى السطل؛ تكشف لي عن الجواهر المكنونة تحت قميصها الزيتوني، كانت أزرار قميصها مفلجة، لذا كنت أزاور تلك المفاتن عن قصد. لأجد في البرتقال الناضج المتدلي فتنة الألق والتكور، هجستُ فيهن عذوبة تصعق الروح وعناء يشغل الفكر. تغزلت بها قائلا:...

- برتقالاتك فيهن فتنة برتقالات زوجتي، آه كم اشتقت لهن.

حينها تغير لون وجهها، تلون باحمرار واصفرار، غشي وجنتاها حيرة، اصابها خجلا مغل شط بين عينيها، قالت وهي مغنوجة بابتسامة:...

- أه منك يا إبليس، تود تطليقي من زوجي، كل يوم أتعرى أمامه ولمْ أسمع منه إطراء أو ردة فعل ككلماتك الرنانة، بالله لا تزدني هما وشجنا.

بتُ أتبع هواهن وأهوائهن بحجة أو دون حجة، كنت قد سرقت من وجنات سهى قبلة خاطفة، فاجأتها بها، حينها تسمرت في وجهي وهيَّ مغشية بخوف مُقَنّعْ من المحيط الدائر، فأشرتْ برجاء لأكف عن مغامراتي.

لقد زرعتُ في ظن سهى مسمار الشك، صرتُ أتقرب منها كثيرا لألاطفها، كما جنحت لبراءة خديجة التي وجدتها كلوحة الموناليزا أتأمل معانيها، أتمعن بابتسامتها الجذابة وصفاء عينيها، وأنغمس في الحزن الشفيف القابع في وجنتيها؛ كدت أحتضنها في زاوية الورشة، لولا عصا الضمير وعصا سهير التي أوهطتنِ، فتجنبتها، هكذا قضيت أيام العمل بينهن بين حيرة ورغبة.

هكذا تكلل جهدنا برسم لوحة جميلة، الفكرة كانت سحرية، أجبرت الجميع على الاشتراك بتنفيذها. هناك من قطع الخشب، وهناك من صبغ الخشب، وهناك من نقل الخشب، ومن غرس الخشب بالمطارق حتى شُمعتْ الثياب على الأجساد بالعرق، نتيجة الجهد المبذل رغم البرد.....

هناك من أوصل التيار الكهربائي في جو قارص زمهريري كلل بالثلوج، الأنامل تكاد لا تتحسس الأسلاك لتصلبها وارتعاشها. الكل أجتهد وعمل حسب اختصاصه، كنا كخلية نحل متماسكة.

الفكرة جعلت للجهد المبذل ديناميكية سحرية، بحيث تناغمت الفكرة مع الجهد المبذل وسرعة التنفيذ. غدت الفكرة تتراءى للعيان كمصباح نير، يستلهم طاقته من الجهد واليقين الذي فرض ذاته.. رسمنا شكل القمر وسط كامب (صول بكا) بعد أن أحيط العلم بأضواء فلورنسية من البلوجكتر. بانت البصمة واضحة على حلتها الأخيرة كصرح يبتهج به الجميع، بحيث

جعلت السويد بأكملها تبتسم لهذا الصرح، بعد أن تتبع إعلام الدولة المقروءة والمرئية والسمعية العمل عن كثب. ربما سيخلد العلم لعشرات السنين.

كان من الضروري بعد أن أنجز العمل أن يوضع في إطار يحيط العلم من جوانبه بعرض متر، أضيف لهذا الإطار شبكة من الحصى الناعم المطلي بالإسمنت الأبيض، ليبرز شكل العلم بالشكل الأنيق اللائق. كما أحيط بهالة من أشعة الإنارة الساطعة ليلا، وذلك بنصب عددا من أضوية البلوجكتور في زواياه، فبان يسطع بوضوح في ساعات الليل كبدرٍ الدجى، يفيض سطوعا وألقا على المنطقة المحيطة به.

بعد انتهاء العمل وقف ابو وسيم (عماد) إلى جانب رفيقه أبو عبدو يتأمل مشروعه مبتسما، جذلا، فخورا بنفسه وبرفاقه الذين شاركوه وشدوا على أزره.. قال له ممازحا:...

- ما رأيك يا أبو عبدو؟ كيف يبدو لك المنظر البديع بعد أن أكتمل العمل؟
- ألم أقل لك أنت مجنون؟ والله عمل كهذا لن يخرج إلا من رأس مجنون مثلك.

حينها تأبط أبو وسيم ثم دخلوا لباحة المطعم ليرتشفوا القهوة ابتهاجا بإنجاز العلم وبحلول أعياد راس السنة الميلادية 2018/1/1.

رياضة التزلج

قبل أن ينقضي فصل الجليد، وعدتنا السيدة شاشتين برحلة تزلج على الجليد، وكانت عند وعدها. تلك الرحلة كانت آخر عهد لنا بكامب صولبكا في السويد، حيث تركنا خلفنا ذكريات ممزوجة بالفرح والمعاناة.

في صباح مشرق، جاءت ومعها معدات التزلج: عصي، مساطر، وأحذية. بفضل مكانتها في المجتمع السويدي، استطاعت أن توفر هذه الأدوات لتشرك أكبر عدد من المهاجرين في نشاط جماعي ترفيهي، يعكس حسن النية والدعم من أهل المنطقة.

اجتمعنا في بهو المطعم، ثم تبعناها إلى ملعب الجولف المغطى بالثلج، وكأنه يوم عرس لارتداء الأرض ثوباً ناصع البياض تحت شمس آذار الغاربة في الأفق. بلغ ارتفاع الثلج قدم، والبرد كان قارساً، لكن بالحماس غلبنا الطقس.

بدأنا نتزلج، مستندين إلى العصي، نحاول التوازن فوق الثلج. كانت التجربة صعبة، خاصة للكبار وأصحاب القامات الطويلة، بينما الأطفال أبدعوا فيها، وكأنهم ولدوا للتزلج. أدركنا أن هذه الرياضة، كحال السباحة، يجب أن تُمارس منذ الصغر.

سقطنا مراراً، ضحكنا، تعثرنا، لكننا استمتعنا. أبو عبدو وزوجته تبادلا الضحك بعد سقوطهما، وترامب، لضخامة جسده، اكتفى بالمشاهدة. أما أنا، فقد حاولت اللحاق بسهى، التي كانت ترافق فاطمة الإريترية، لكنني فقدت توازني مرتين وسقطت على ظهري، حتى كسرت شاشة هاتفي. أيقنت حينها لن أتقن هذه اللعبة، وأن أعمارنا تجاوزت مرونة الجسد المطلوبة. لكن رغم ذلك، قضينا وقتاً جميلاً، ضحكنا، تنزهنا، وشكرنا السيدة شاشتين على مبادرتها.

في نهاية اليوم، وزعت علينا ساندويشات الهمبرجر والعصائر، جلسنا نتبادل الأحاديث. شغلت بالي سهى بشكلها وجسدها وهي تلف رأسها بشال أصفر، تقف بجانب خديجة، التي كانت تبتسم ابتسامة عريضة وكأنها تبعث إشارة لأتبعها. شعرت وكأنَّ شيطاناً يوسوس لي، أغرقني في تأمل نظراتها حين قدمت لي قارورة ماء، قالت لي جهز نفسك لبكرى سنطبخ أنا وسهى الدولمة، شكرتها وكأني شكرت حبيبتي. عندها شغلني ترامب بشراهته للأكل وهو يلتهم الساندويشات واحدة تلو الأخرى دون أن يفكر بغيره.

بعد التزلج عدت إلى سريري مثقلاً بالهم، أدخل غرفة الشجن والمحاسبة، أحاسب نفسي على كل هفوة، كل لهفة، كل نظرة. ثم أعود إلى ذكر حبيبتي، إلى واحة الأمان، حيث لا واحة ولا راحة حقيقية إلا بوجودها.

اتصلت بها:

– ألو...

– مساء الخير.

– مســـاء النـــور والســـرور... أشـــعر أن وزنـــي خـــس خمســـة كيلوغرامات خلال الأشهر الستة الماضية.

– هههههـه، أحسـن، دع كرشـك يـذوب. الغربـة أدبتـك، وجعلتـك تعرف مكانتي.

ضـحكنا، تبادلنـا المـزاح، ثـم أخبرتنـي أنهـا تشـعر بـألم فـي صـدرها، وأنهـا تنتظـر نتـائج فحوصـات قـد تكشـف عـن مـرض خبيـث. حاولـت أن أهـدئ مـن روعهـا، أن أزرع فيهـا الأمـل، أن أذكرها بأن الفرح والنسيان هما العلاج الحقيقي.

لكـن خبرهـا زادنـي ألمـاً، جعلنـي أنـدم علـى فراقهـا، وأشـعر بـأن المـرأة دون زوجهـا تهجـس بـذاتها عاريـة، لا تسـتطيع مواجهـة الحيـاة وحـدها. صـارت الكـوابيس ترهقنـي، أتـابع أخبارهـا يوميـاً، أواسيها، وأحاول أن أكون لها سنداً من بعيد

13- الفراغ

مع مرور الزمن، بات الفراغ يتدفق لهواجسنا كطوفان من العقد، كعين تفيض بالنكد، غمرني بالشجن، اثقلني بالخرف والقرف. جعلني أسعى خلف بصيص الأمل دون أن أدركه، صار كظل يتبعني، جنيٌ تلبسني، يحاول أن ينغص حياتي بشواخص العقد لتعيدني إلى الماضي، يذكرني بوجودي من عدمه مع كل يوم غادٍ.

انحدرنا عميقًا نحو وهدة الوهم، حتى لاحت لنا لحظة القطيعة تتجول في خواطرنا، جعلتنا ننام على رصيف الشوق دون أن يمر بنا ظله. انكمشنا حول ذواتنا، اصبحنا عاجزين على التواصل فيما بيننا، شغلنا في وحله وعقده. فلم أجني من رحلتي سوى الكدر والهوان، والإسفاف والشجن.

كنا نبحث عن صيغة توافقية تخرجنا من دوامة الحياة المريبة في أوطاننا، لكن المجاز الذي سلكناه لم يمنحنا عقيقًا ولا فيروزًا، ولا لآلئ الصبر أغنتنا. ضاعت الأحلام، واشتد التحدي، وتفوق الألم على رجاء الظن. عبثا جاولنا أن نستدرج الأيام إلى واحة الفرص. سلكنا خط الوهم ونحن نعلم أنه لا يسمن ولا يغني من جوع، لكنه كان ملاذنا الوحيد نحو ذاك الأمل المعلق بالرجاء. لم نملك مفاتيح التغيير، ولا طريقًا نحو الجنة سوى الصبر الذي وشل نداه والصمت الذي غرق في غيبه.

كـان الحلـم خيـالًا طافحًـا علـى سـطح الظـن، نقطـة زيـت طفحـت فـي بحـر اليـأس، تبعناهـا دون يقـين لنغـرق فـي ذلـك البحـر. لـم نجـد مخرجًـا سـوى ارتـداء بدلـة المجازفـة، كأبطـال أفـلام الخيـال، سـرطنا أقـراص الصـبر والهـم، وانتظرنـا تحسـن الأحـوال دون جدوى.

اختلطـت أفكارنـا بطيـف الألـوان، حتـى فقـدنا التمييـز بـين الأبـيض والأسـود، وتلاشـى الـزمن مـن حسـاباتنا. الأيـام باتـت مجـرد أرقـام، لا فـرق بـين نقصـانها وزيادتهـا، فهـي فارغـة فـي جـدواها. كنـا علـى بعـد خطـوة مـن الحلـم فـي توقعنـا، لكنـه تلاشـى فـي لحظـة غفلـة، اختفـى فـي أدراج دائـرة الهجـرة، ومنـذ ذلـك اليـوم ونحـن ندور في فلك الفراغ، كفئران تتبع القطط لتفترسها.

تـداخل الظـن والعقـد والمبـالات مـن عدمـه والخـواء فـي نسـيج حياتنـا، حتـى صـرنا نحيـك بسـاطه بأيـدينا، بفعـل منغصـات الحيـاة التـي سـلبتنا البهجـة. أضـحت الـدقائق المارقـة جـزءًا مـن روتـين حياتنـا، بـل أضـحى المصـير مقيـد باليـأس، خاصـة ونحـن محرومون من العمل ودون إقامة.

صـرنا نرقـد فـي فرشـنا حتـى تتقـرح أجسـادنا، فالشـاي والتـدخين لا يزيـدنا إلا سـخطًا ونـدمًا، تحولـت اللحظـات العـابرة إلـى جمـرات تكـوي مضـاجعنا، ونحـن نعـيش فـي عزلـة الوحـدة. نتيجـة زخـم الهمـوم، صـفرت صـفائح الـذاكرة، لـم أعـد أسـمع سـوى صـفير يـأس ونـدم يتـردد فـي أذنـي، كقطـرات حـزن تتسـاقط

من صنبور صدئ فوق رأسي وأنا قابع في زنزانتي الفردية، تكتكتها تولد خلخلة في العقل تودي بي إلى الجنون.

منذ أن انكسرت جرة الوطن، ضاعت هيبته، تشردنا بين الدول. عندها بدأت أحلم بالظفر بالذات، أن أعيش صباحًا مختلفًا عن صباح الوطن. كانت أحلامًا هشّة، بعثرتها رياح الغربة بين أشواك الزمن، كأوراق الشجر اليابسة، بلا روح.

كانت أحلامي بسيطة، ضمن رقعة قدميّ، لم تتجاوز السكينة والاستقرار، تخيلتها هالات مدفونة خلف سحب الظلام، دعست عليها أقدام السفهاء الذين باعوا الوطن. هؤلاء الذين جعلونا نتبع الظن في مجاز طويل، عندها وجدت في الفراغ متسعًا للغاية. سعيت خلف الحلم، لكن الحلم كان هباءً لا يُمسك إلا بمجازفة حية. فجازفت، آملاً أن أحقق شيئًا مما يجول في خاطري وذاكرتي.

الفراغ نعمة في حالة الاستقرار، ونقمة في حالة التزعزع. إذ يفقد الإنسان تحكمه بنفسه، فيغدو كمن يبحث عن حياة وسط كومة من ثعابين وعقارب. لا أدري لماذا أشعر بهذا الشعور المقيت، رغم أني أؤمن بأن الإنسان مسيّر أكثر مما هو مخيّر، كما قالت لي أمي حين سألتها: لماذا جارنا غني ونحن فقراء؟ فأجابت: الأرزاق بيد الله.

لكن تلك الإجابة لم أقنع بها، ظلت تدور كذبابة على رأسي، حتى أدركت أن الرزق يتبع صفات الشخص. الله وهبنا العقل،

وتـرك لنـا حريـة القـرار، ومـا يصـيبنا هـو نتيجـة سـوء تـدبيرنا وتراكم أخطائنا. الله لا يعذب مخلوقًا تافهًا أمام عظمته.

اسـتغلال الوقـت يزيـد الثقـة بـالنفس، فاللحظـة المحترقـة تحـرق جـزءًا مـن العمـر، ولـن تعوضـها لحظـة أخـرى. الوقـت كالسـيف، ومـن لـم يحسـن اسـتغلاله خسـر فرصًـا لا تعـوض. وقـت الفـراغ يحتـاج إلـى ذهـن وموهبـة، كأنـه مصـفوفة رياضـية تحتـاج ترتيبًـا وتفعـيلًا. الـبعض يقتـل وقتـه بالمسلسـلات، والـبعض ينمـي مواهبه، وفي النهاية، كلٌ يُجازى بما فعل.

آه، مـا أصـعب أن يعـيش الإنسـان فـي بالونـة مـن الفـراغ، فـي فضـاء مـن العتمـة، حالـة مـن الدوشـة والصـمت فـي العيـون الحـائرة. نبحـر بـين صـحف اليـوم واحتمـالات الغـد بقـوارب بالكاد تقاوم موج العصف.

زوجتـي تركـت فـي حيـاتي فراغًـا أراه ككـأس نبيـذ، مـا إن أرتشـفه حتـى يـذلني، كـأس مثقـوب، خـالٍ مـن الحلـم والرجـاء، ينضـح بالصـمت والعنـاء. ذات مـرة، حاولـت أن أمـلأ فراغـي برغـاء الخمـرة، فـذهبت إلـى بـار، جلسـت أراقـب الـداخلين والخـارجين، حتـى شـعرت بـالقرف مـن نفسـي، حـين قارنتهـا بأولئـك الشـواذ، الذين جمعتهم عناصر الضياع كما جمعني الفراغ.

قلـت لنفسـي: دعنـي أجـرب حيـاتهم، أغيـر نمـط سـلوكي، علّـي أن أجـد شـيئًا يلهينـي عـن الهـم والوجـل. طلبـت كـأس فودكـا وقـوارير بيرة، شربت دون وعي، فقط لأهرب من الوهم الذي يرافقني.

فـي غيـي، أردت أن أسـبق الـزمن، لكنـي وجـدت نفسـي أتسـكع خلـف الجميـع. عـدت إلـى الله، أتممـت الفـروض، دعـوت، عسـى أن يحل عقدة كربي. صرت أتأرجح بين الإيمان والزلل.

يـا تـرى؛ لـمَ لا أجـدها حالـة مرضـية، وإلا مـا ذلـك الشـبح الـذي لا يغـادر ذهنـي منـذ أن فارقـت زوجتـي، جعلنـي أتحـول إلـى فاسـق، مجنـون، عابـث، فقـط لأنسـى ذاتـي والقـدر. ولهـذا، كلمـا اشـتد الشـوق، اتصـلت بهـا، عسـى أن أخفـف وطـأة العـذاب. وقبـل أن أرفع الهاتف، رنّ على عجل...الو

- هـلا بالحبيبـة، مسـاء الـورد والياسـمين كيـف حالـك يـا غالية، قبل أن أطرق على رقمك رن الهاتف.
- القلوب عند بعضها، كيف حالك وصحتك؟
- بخير والحمد لله... أخبريني عن الفحوصات.
- فعـلا أود أن أخبـرك بـأن الفحوصـات التـي أجريتهـا بشـأن الأورام التـي انتشـرت فـي الثـدي أورام حميـدة، عبـارة عـن تكتلات مائية، لا تقلق بهذا الشأن.
- الحمد لله على سلامتك، ألم تعرفي سبب ذلك؟
- يحـدث هـذا بسـبب توقـف الأنجـاب وجفـاف الحليـب، هـذا والله أعلم حسب ما قاله الطبيب.
- المهـم أن تأخـذي الأدويـة بانتظـام وأن تـدخلي صـالات الرياضـة حيـث الكسـل يولـد خمـولا فـي الجسـم ممـا يـؤدي إلى أنتشار تلك الأشياء الغريبة، غير الطبيعية.

- هـل تعلـم أن الطبيـب نصـحني بـذلك! أنشـاء الله تسـتتب الأمـور خـلال شـهر أو شـهرين. قلـي مـا أخبـاركم، هـل مـن جديد.
- لازلنـا نـراوح فـي أماكننـا وكـأنَّ دائـرة الهجـرة لا تـأبى مفارقتنـا. ركنـت ملفاتنـا فـوق الرفـوف أو رمتهـا فـي سـلة المهملات.
- الله كريم أصبر، عسى أن تفرج علينا...
- لـيس بأيـدنا عصـا موسـى لنغيـر الوضـع، علينـا ان نتكـأ علـى الصـبر. الله يقـول فـي كتابـه الكـريم" يـا أيهـا الـذين امنـوا اسـتعينوا بالصـبر والصـلاة وأن الله مـع الصـابرين" صدق الله العظيم، نصبر وننتظر.
- وهو كذلك.. هيا.. نراكم على خير...
- مع السلامة..

الخبـر الـذي أخبرتنـي بـه أزال همـا ثقيلا مـن علـى القلـب، كـان قـد شـغلني طـوال الفتـرة السـابقة، لـذا رحـت أنعـم بشـيء مـن الراحـة بعد أن كان القلق قد أفقدني التركيز.

المانيا

2020 /09 /01

الثلاثاء

14- جائحة كرونا

بعد أن فقدنا مأربنا وآمالنا في السويد؛ اتجهت لألمانيا على أمل أن أجد فرصة استقرار فيها أعوض بها سنوات الضياع التي ذهبت سدى في مستنقعات وبحيرات السويد، عسى أن نظفر بالحلم ونعيد ترتيب أمورنا ونلملم شملنا ونعيش براحة بال، كان ذلك في 01/ 09/ 2020.

غادرت السويد بعد المكوث فيها قرابة خمس سنوات من المرار مع مجموعة من هم على شاكلتي، كنا قد نفذنا من منفذ مدينة تلبوري السويدية إلى مدينة ترافموندا الألمانية بواسطة الباخرة، ليستقر بنا المطاف في مدينة كيمنتس في مقاطعة سكسونيا.

في كيمنتس تجددت العقد علينا بسبب تعقيدات الإجراءات التي تتعامل بها المانيا مع القادمين إليها، وخاصة مع تفاقم جائحة مرض كرونا الخبيث كانت الأمور قد استتبت على حافتها، حيث أجريت لنا عملية فحص وحجر صحي دام أسبوعين في ظل طقس سيء للغاية، حيث الرياح والأمطار والثلوج لم تهدأ وتيرها بعد أن بدأت تتسقط مع بداية الشهر العاشر.

ما أن دخلنا مدينة كيمنتس الألمانية؛ حتى حجرونا ليومين في ثكنة عسكرية صغير تمهيدا لنقلنا لموضع آخر بعد الانتهاء من إجراءات فحص كرونا وبيان نتائجها.

كنا قد تجمعنا في الثكنة من عدة جنسيات مختلفة، وقد بلغ عددنا بحدود ثلاثين شخصا بين امرأة ورجل وطفل. في اليوم التالي بدأت إجراءات الفحص والفرز تمضي على قدم وساق. كانت إجراءات سريعة جدا قياسا لما يجري في المناطق الأخرى، ولكن لكثرة أعدادنا، يضطر البعض منا إكمال ما بدأ إتمامه في اليوم التالي.

ما أن دقت الساعة السابعة صباحا؛ حتى صرنا نسمع طرقا مدوشا على ابواب الغرف من قبل مشرف الكامب وهو يحث المهاجرين على الاستيقاظ واستنباط العزيمة لغرض تجهيزهم لدائرة الفحص المفروض بدء عملها في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحا، والتي مقرها لا يبعد عن الثكنة سوى مسافة 200 م فقط.

كان المشرف يطرق الأبواب وهو ينادي بأعلى صوته:...

- هيا – هيا أصحوا - أجلسوا، صار وقت الإفطار، جهزوا أنفسكم لفحص جائحة كرونا، هيا أجلسوا. وكأننا في معسكر للجيش.

كنا قد وصلنا لذلك الكامب قادمين من مختلف أنحاء المانيا، قاطعين في رحلاتنا مسافات طويلة من غربها لشرقها، هناك

من قدم من الشمال وآخرون قدموا من الجنوب والغرب، كنت قد قطعت مسافة تجاوزت خمس ساعات من المسير بالقطار مدينة بريمن وكيمنتس.

النقطة التي تجمعنا فيها أشبه بثكنة عسكرية مكونة من عشرين غرفة متقابلة، بينهما ممر ضيق بعرض مترين. الغرف مجهزة من الخشب، مطلية بصبغة البويا الأصفر، المكان يستخدم بشكل مؤقت لغرض الفحص ولتجهيز أوراق المهاجرين القادمين حديثا، ليتم توزيعهم إلى أماكن أخرى دائمة.

كان تجمعنا أشبه بباقة ورد مثلت جنسيات مختلفة، كل منا جاء من ناحية نائية لم يأخذ كفايته من النوم والراحة. الثكنة فرشها قذرة، أسرتها بالية، حماماتها يشع منها رائحة النشادر لكثرة استخدامها، لذا كنا في دواخلنا نقرف الحالة ومن طريقة المعاملة الجافة. كنا مضطرين لقبول الواقع على اعتبارها فترة تجهيز. تجد أحدنا أشبه بالمسطول، لا يستطيع حمل وزره.

بعد أن فطرنا وقفنا في طابور طويل، تقدمنا مشرف الكامب متوجهين لغرفة الفحص الكائنة في المبنى المخصص للإدارة الأمنية والفحص الطبي، المكان مسيج بسياج حديدي مرتفع بعلو ثلاثة أمتار، محكم، أشبه بسجن المجرمين.

دخنا المبنى وتوزعنا على الصالة المقسمة لقسمين متقابلين، ارتمينا على كراس خشبية كالمرضى الذين أجهدهم العياء. كانت قد سبقتنا وجبة من المهاجرين لغرض الفحص.

كانت مسألة الانتظار مسألة عقيمة، جدلية، تعد غاية في الصعوبة وبالذات للشخص المرهق الذي لم يتنفس الصعداء ولم يستكين لراحة بعد أن بذل جهدا مضنيا في سفر شاق.

في تلك الصالة، وبين جدران الانتظار الباردة، وجدت نفسي أراقب الوجوه كمن يبحث عن قصة يتسلى بها أو مسرحية يرسم شخوصها لقضاء الوقت. كنت أتمعن في الملامح، في الحركات، في الصمت الذي يصرخ أكثر من الكلام. أردت أن أهرب من غربتي وشقائي إلى خيالٍ ينسيني قسوة اللحظة، فبدأت أدوّن في ذهني ملاحظات عن كل من شدّ انتباهي.

جلست قبالتي فتاة ألبانية، رقيقة القسمات، لا يتجاوز عمرها العشرين. كانت ترتدي بجامة وردية من قماش القديفة، تنساب على جسدها بنعومة، وملامحها تنطق بجمال هادئ فيه شيء من الجمود. شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها كضوء خافت، لكن شيئًا ما في حضورها كان باهتًا، برود دمها غطّى على ملامح حسنها، فلم أشعر تجاهها بأي جاذبية، وكأن جمالها كان صورة بلا روح.

إلى جوارها جلست فتاة أخرى، من الكونغو، ببشرة داكنة تتوهج كجمرة مشتعلة. كانت ملامحها حادة، وجسدها قوي،

لكن في عينيها لمعانٌ من الألم، وفي قسماتها صلابةٌ تشي بمشقة الطريق. رغم شراسة ملامحها الظاهرة، إلا أنها تحمل جاذبية فتاكة، كأنها جمعت بين النار والندى، بين القسوة واللطف، بين التعب والأمل.

بدا عليها الإرهاق، فاستسلم جسدها المنهك على الكرسي، ساقاها ممدودتان في تراخٍ مرهق، كأنها تذوب في لحظة من السكون. كانت ملامحها تنطق بالحيوية، جسد ثري، مبهج، ريان، مغنج بالعذوبة. لرشاقة الساقين والبريق المخفي في ثأدة الفخذين والفتنة في بروز الثديين المنتبذين ببهاء البشرة، جسدها يعكس طاقة دفينة مغنوجة بالسمرة، لا تُقارن ببرود الألبانية التي جاورتها. في حضورها شيء من السحر، من الجاذبية التي لا تُفسر، كأنها تنتمي لعالم آخر، أكثر دفئًا وأقل قسوة.

كانت في عمر الورد، لم تكمل دراستها، وانحدرت خلف حلم الهجرة، باحثة عن فرصة تعيد ترتيب حياتها، عن راحة لم تجدها في وطنها. لكن الرياح التي عصفت بأمنياتها في ساكسونيا لم تهدأ، وظلت تصفر في وجهها، تذرو أحلامها في متاهات الإجراءات المعقدة والقرارات الجافة التي يتعامل بها الألمان، وكأنهم آلات لا تعرف الرحمة والإنسانية.

جاءت تبحث عن بصيص أمل وسط أشواك متقدة بالعنصرية، عن حياة تليق بكرامتها، عن سقف يقئها قسوة الواقع. وفي لحظة تأمل، وجدت نفسي مشدودًا لحضورها، ليس لجمالها

الظاهري، بل لما يشع منها من طاقة انسيابية، من نور داخلي يلامس الروح. كانت كأنها ضوء خافت في عتمة الانتظار، يرقص على أطراف الذاكرة، يوقظ في النفس شيئًا من الحنين، من الطفولة، من البراءة التي افتقدناها في زحمة الغربة.

تلك الفتاة جاءت تبحث عن الكمأة في صحراء العقد وأحكام القيد وفتائل الإذلال والعنصرية، لترفع سقف المعيشة لدرجة المقبولية، قياسا إلى ما كانت هي عليه في بلدها..

لجاذبيتها، صرت أتبع فتنتها بشيء من البلاهة فهي مفعمة بالحيوية والأنوثة. أهجس في جسدها ضوء يتحرك مع شفق الحدق، يحرك مستشعرات الرغبة خلف أفتنان الجسد، يداعب أوتار الوله على قيثارة الفكر، يشعرني بلسعة النار المستكينة فوق طراوة الفخذين وتنهد الثديين. ضوء قد لا يراه غيري، ينفذ من فتنة الشفاه والبشرة، يرق في الجسد كرجراج القمر وهو يتمادى بنوره في أمواج البحيرة...

ذلك ما دعاني أن أسهك عواطفي برغبة مكفولة في تلك المباهج، بت اتلذذ بقطف ثمارها الدانيه، لذا تمادت عينيَّ بزيغها عن قصد في تلك المباهج، وجدتْ في قوامها الرشيق بهاء غصن غض، يوافق عمق الشهوة في قياس نظرتي إليها، لاستقامة القد.... ما شدني إليها هو تلك النكهة الذائبة من الشكولاتة في بشرتها، نكهة القهوة المرة عند السهاد، لحظة

تأمل البحر عند المساء. أهجس بأكثر من ذلك، للغنج الرائب في طراوة البشرة وقوام الجسد.

تلك اللدانة والجاذبية واضحة في القد وطراوة الساقين، في الخيزران الممتد من الكاحل لعنجرة الأرداف. لذا صرت أتحيل الفرص لأستكشف ما في صرة الفتنة من سحر وجاذبية تشد حيويتي وتطفئ نار ولعي بسمرة البشرة.

كانت أكثر خشونة ورقة من الفتاة الالبانية، تلك التي لم أشعر بها أنثى، لضمور الصدر وصفرة الوجه، وانحباس الشفة وفقدانها الحيوية. لم أجد فتنة واضحة في بدنها وبصدرها، الخمول الذي يركبها جزل كل شيء وكذلك بجامتها الشتوية ضمرت مفاتنها.

لوحتان تجريديتان مختلفتان في التشكيل، أحداها جامدة عبثية وأخرى حيوية رومانسية. كانت ترتدي تنورة بيج قصيرة فوق الركبة بشبر، وقميص شيفون أبيض منقط بلون البنفسج، مفلج الياقة، تخترقه خطوط مائلة من لون تنورتها، معلقة على كتفها حقيبة نسائية صغيرة صفراء.

كان يجاورها رجل أربعيني من البانيا، ناشف الملامح، أملط، كجبل أجرد، منهك، مصفر الوجه، كان هو الآخر قد شاقه السفر فعانى ما عانى حتى أدرك مرامه..

من جانبي كان يجلس إلى يميني كل من أنس، وحاتم وعمر من الذين صحبتهم معي، وإلى يساري رجل لبناني أربعيني.

فـي البدايـة ظننتـه البـاني الجنسـية، لتقـارب ملامـح وجهـه مـع الألباني الذي يجلس قبالتي.

الكـل كـان مجهـدا، الكـل لـم يأخـذ كفايتـه مـن النـوم، الكـل يشـعر بـالجوع وارتخـاء عضـلات جسـده، النعـاس غالـب علـيهم، مترنحون، كأنهم مخمورون، السُّكْرُ يغشيهم.

كانـت مطروحـة فـي الصـالة طاولـة مكتـب كبيـرة، اسـتغل وجودهـا شـاب جزائـري، فـأرتمى فوقهـا لإراحـة جسـده حتـى صـار يشـخر مـن التعـب. فيمـا كانـت الالبانيـة مكسـورة الرقبـة تميـل علـى كتـف زميلتهـا الكونغوليـة، بينمـا الكونغوليـة منحنيـة الرقبـة إلـى الامـام، مفلجـه سـاقيها، وبـين فتـرة وأخـرى كـأنَّ شـوكة الحيـاء تغزهـا فترتـد لوعيهـا، فـتلم تلـك السـاقين لتسـتعيد ذاتهـا.... ثـم بعـد هنيهـة فقـط تعـود لأدراجهـا، فاقـدة تركيزهـا وركيزتها، لتكسر رقبتها وتفلج ساقيها، لشدة الأرق والنعاس.

كنـت لا أجـد مانعـا مـن أسـترق نظـرة مـن تلـك الأفخـاذ الملتهبـة لأنهـا تجلـس قبـالتي بالضـبط وبينـي وبينهـا مسـافة ثلاثـة أمتـار فقـط، كنـت مجبـورا فـي تبجحـي فالقاعـة مزدحمـة جـدا ولا توجـد فيهـا كرسـي غيـر مشـغول، كنـت أهجـس بالفتنـة اللاذعـة هـي التـي تتبعنـي، ترشـدني إلـى الحمامـة اللائـذة فـي أيكهـا وهـي تخفـق بـين الأفخـاذ كركـة علـى بيضـها، للجاذبيـة المـراءة، المنبثقـة منهـا كشعلة جمر تتقد في سمارها.

مع كل نظرة أهجس بها تلسع ذاتي كعقربة، أحيانا أخجل من ذاتي، فاغض الطرف عنها، ثم أجد نفسي لهجة تتبع فتنتها، لا أقاوم ضعفي، فأعود أبحث عن تلك الحمامة في ديجور ذلك السقم والعذاب، منشده بسر اللمعة المدفونة في جوهرة البشرة..

لم أستطع أن أغض الطرف عنها، لذا تجدني شارد الذهن، مهووس بتلك السيقان الملهمة. كلما قارنتها بالجمود القابع في وجه الألبانية؛ أرتد إلى نفسي، فأحرق زغب شرودي في اللهبة اللافحة من صدرها وافخاذها. لقد جعلتني أشذ عن طبعي، فأميل ميل المراهقين، بعيدا عن فكر الزمرة المحيطة بي. جاذبية بشرتها توائم ما في بشرة زوجتي.

كانوا يشرفون علينا أربعة رجال من الشرطة الالمانية كبار السن، تجاوزوا الستين من العمر أحدهم قصير القامة، ذات كرش واضح ووجه طفولي دائم الابتسامة. كانت مهمته نقل من يتمم فحصه للمشفى، لغرض تكملة إجراءات الفحص بتصوير أشعة إكسترا للصدر، ثم يعود بهم لكامب الحجر الصحي. وآخر كان متزنا بعمله خلف أجهزة الكومبيوتر لتجهيز هويات الأوسفايزر للمهاجرين، فيما الثالث كان يرتل برجله اليمنى، نحيف الجسد، ناشف الوجه، شاحب اللون، ذات أنف طويل كمنقار اللقلق وشارب مشظ في الوجه كأشواك الصبير المنتبذة، تخفق في عينيه الزرقاوين لمعة

غـيض وحقـد إزاء المهـاجرين. تكفـل بواجـب نقـل ملفـات المهاجرين بين الإدارة ومكتب تجهيز هويات الأوسفايزر.

فيمـا كـان الرابـع مسـكينا، محتـارا بنفسـه لفـرط سـمنه وشـذوذ طولـه، ربمـا محـيط بطنـه وعنجـرة عجيـزه تتجـاوز محـيط دائـرة بقطـر متـرين، إذا مـا أخـذنا طولـه الفـارع الـذي يتجـاوز المتـرين بعشـرين سـنتمتر. كنـت قـد مثلتـه بخـزان نفايـات، وهـو يتحـرك فـي الممـر أشـبه بغـول غابـات أفريقيـا. أنـه أضـخم الجميـع، تشـعر بكـل فـردة مـن بنطلونـه بحجـم كـيس نفايـات البراميـل، لفـرط سمنه.

كانـت فتـرة الانتظـار مملـة جـدا، تجـاوزت حـدود السـاعتين دون ان يـدخل شخصـا مـن مجموعتنـا لغرفـة الفحـص، بسـبب انشـغالهم فـي فحـص المجموعـة التـي سـبقتنا. بعـد تلـك الفتـرة العسـيرة نـودي علـى الألبـاني وأثنـين مـن الافغـان ليـدخلا غرفـة الفحص.

خـلال فتـرة الفحـص كـانوا قـد تـأخروا كثيـرا، حينهـا سـألني الـذي يجلـس يسـاري، كـان كلامـه بطـيء جـدا، وكـأنَّ شـحن بطاريتـه قـد فضـت طاقتهـا، لـذا توقعتـه مـن أصـول ليسـت عربيـة، ثـم أنـه تكلـم معي بالفصحى، حيث قال:.....

- لـــــمـمـمـــاذاااا تأخـــرووواااا.....

كأنه لم يتقن العربية، فقلت له:.....

- ما شاء الله أنت تتكلم العربية الفصحى، أين تعلمتها؟

قال:....

- يـــــاااا أخـــــــي اانـــــــاا عـــــــربي مـــــن للبـنـــاان...هههههههه.

صـــرت أضـــحك عليـــه وأقهقـــه؛ حتـــى دمعـــت عينـــاي هههههههه، حيـث فـي المـدة التـي تكلـم بهـا الكلمـة، اسـتطيع نطق ثلاث جمل، فقلت له ضاحكا:..-

- ما بك؟ لم انت بطيء الكلام؟

قال وهو يضحك:..

- لقـد تعرضـت لحـادث، فأجريـت عمليـة فـي الحنجـرة والمريء.

كـأني حركـت الـدم فـي جسـده فصـار يضـحك ويهتـز علـى ضـحكي...هههههه. بصـراحة أسـتخطيته، لكنـي كنـت متعبـا، فلـم أعـر أهميـة لـه، كنـت أود أن أشـغل بـالي بـأي شـيء لأنسـى همـومي وهـم الهجـرة، وخاصـة تلـك السـمراء كانـت قـد شـغلت بالي بجاذبية سيقانها، فصرت أتبع فتنتها بين الفينة والفينة..

مـا أن يـداعب جفنهـا الوسـن؛ حتـى ترتخـي عضـلات جسـدها كغصـن ذاو، فـتفلج السـاقين، فتبـدوا الحمامـة نائمـة فـي عشـها. كانـت ترتـدي لبـاس بكينـي أسـود اللـون.... مـا أن يرتـد لهـا

وعيها؛ حتى تعاود لملمة ساقيها. كأنها كانت تدرك بأن هناك من يتبع مفاتنها.

بعد مدة تجاوزت النصف ساعة عاد الألباني لمقعده بوجهه المتعب، فخطرت في بالي قصة نتيجة الإرهاق الدائب في وجهه.

في البداية لم أكن منتبها على لباسه وعندما عاد لفت نظري تمزقات بنطلونه من موضع الركبة والحجل، وتراخ في لبب قميصه المفلج أزراره، تهجس به بوهيمي المنشأ، حينها قلت لعمر وحاتم وانس الجالسين يميني:..

- انظروا إلى الألباني، لقد ذهب سليما معافى، وحين عاد؛ عاد ببنطلون ممزق وبوجه شاحب وقميص مقطع أزراره، كأنه حين دخل غرفة الفحص، أحدهم بصق بوجه، وما أن التفت عليه حتى صعقه أخر بعجل على قفاه ليسقط أرضا، ثم سحله الثالث على البلاط ليدلقه خارج غرفة الفحص. هههههه.

هههههههههههه، وما أن أكملت كلامي؛ حتى ضجت القاعة بقهقهة شديدة، صارت الدموع تنهمر من العيون، صرت أضحك على ضحكهم، صار الكل مستغربا، يا ترى ماذا جرى ليغرقوا بالضحك؟ لا يوجد ما يلفت النظر...هههههه..

بعد أن هدئنا بفترة وجيزة جاء الشرطي البدين الضخم مناديا على شاب افغاني، كان الافغاني وهو يمشي إلى جانبه كأنه

صعلوك قزم، قُيِدَه من يده ثم سحبه لداخل الممر، فقلت لأنس وحاتم:...

- الظاهر هذا الشرطي لم يفطر هذا اليوم، أخذ الأفغاني يتغدى به.... هههههههههههههه.

هههههههههههههه، لم نستطع كبح جماحنا، كأنما انشقت اشداقنا بالضحك والكركرة العالية، شهقت أنفاسنا، صرنا نبكي من شدة الضحك، الوجوه تلتفت علينا، ترمقنا بنظرات استغراب، دون أن تفقه سبب ضحكنا، دون أن تعرف شيئا عن مغزى حديثنا، لأن معظمهم لا يجيدون العربية، كان الموقف يوحي إلينا المشهد دون عناء.

استمر هذا المنوال فترة قصيرة، كأنه نزل وحي الإلهام على فكري، نسينا بها أنفسنا وشزر هم الهجرة والانتظار. كانت الوجبات تذهب للفحص وتأتي متأخرة دون أن نعرف السبب، حتى فرغت القاعة ولم يبقى فيها سواي والفتاة الالبانية ورجل تركي وانا..

قبل أن أدخل غرفة الفحص جاءوا بوجبة غداء لنا، حينها كنت منهكا من الجوع، فأخذت قطعة خبز إضافية من الكيس، لكن الشرطي الحانق ذات الشوارب الشوكية سحبها من يديَّ، فوجت في سلوكه إهانة لي، واجهته بحفظ كرامتي وبذات الكيفية، دلقت صحن الأكل عليه رافضا أكله، فلم يتأسف أو يتراجع عن موقفه قط، أخذ الصحن والخبز دون أن يلتفت

إليَّ، تركني ألوب من الجوع في الصالة ببطني الخاوية حتى جاء دوري في الفحص....

حينها اقتربت الساعة من الرابعة والنصف مساءً، دخلت غرفة الإدارة، اللذين طلبوا مني التوقيع على بعض الاوراق، ثم سألوني أسئلة عابرة، أن كنت أحمل نقودا في جيبي أو جواز سفر وكيف دخلت ألمانيا ولم أخترتها....الخ من أسئلة روتينية باردة تشبه سلوكهم.

بعدها دخلت غرفة الطبيب ليأخذوا عينة دم لغرض التأكد من خلوي من مرض جائحة كرونا، كانت الطبيبة بنفسها تأخذ العينة من المراجعين...

حينها عرفت سر تأخر المراجعين في غرفة الفحص....

وجدت الطبيبة كهلة جدا، شمطاء، كان قد لصغ الجلد على العظم لشدة كهولتها، نحيفة البدن، تعاني من شلل نصفي، لأنها كانت تزحف بقدمها الشمال. أقدر سنها في التسعين من العمر. كانت بذاتها تسحب عينة الدم، لذا في محاولتين أخطأت العثور على الوريد، صارت تبتسم بوجهي لأستميحها العذر وهي تسحب الدم وتقيس ضغط الدم..

صرت أعاونها على عملها، أربط حزام ضغط الدم على الساعد، وأشد ربله على العضد لينتفخ الوريد ويبان موقعه.. جربت ثلاث وخيزات إبر في ظاهر الكف؛ حتى تمكنت من سحب الدم.. في كل مرة كانت تعتذر مني لرجفة يدها وضعف

قواهـا، فكنـتُ أبتسـم لهـا، وأقبـل اعتـذارها... بعـدها خرجـت مـن غرفتهـا قرابـة الخامسـة مسـاءً لأكمـل إجـراءات الفحـص فـي اليوم التالي.

15- شنيبرغ

بعد أن اكملتُ الفحص الطبي، نقلت لمنطقة شنيبرغ والتي تعد أشبه بالمنفى، لبعدها وقسوة تضاريسها، والتي تعني في اللغة الألمانية المرتفع الثلج، لنمكث فيها مدة ستة أشهر أخرى.

هجست الأيام اضحت أكثر ثقلا من أيام السويد، لعجرفة الألمان وجلفهم في تعاملهم وقسوة قوانينهم المشددة، حيث نادرا أن تجد من يبتسم في وجهك إلا ما ندر، وكأن الذين نتعامل معهم روبوتات، أهجس بهم أحجارا دون احاسيس ومشاعر تتحرك بأوامر، لا روح ولا فتنة في تعاملهم، هم يعيشون في واد ونحن في واد آخر. هم هكذا مسيرون بقوانين لا رحمة فيها.

تلمسنا ذلك الجفاء حتى عند سواق الباصات، تهجس بأعينهم غصة تجاه الغرباء، ربما بسبب عقد قديمة شاخصة في نفوسهم، خاصة هم اقمعوا لحقبة طويلة تحت حكم الروس، فأخذوا منهم قسوة الطباع والجفاء.

كامب شنيبرغ أشبه بسجن خال من كل بهجة ومتعة، لا تلفاز فيه يشغلنا، ولا نت ولا مطابخ ولا ملاعب رياضية، إضافة إلى موقعه البعيد جدا عن مركز المدينة، بنايات قديمة خصصت لمنام تلاميذ صنف الشرطة لتدريبهم وتهيئتهم،

ليكونوا ضباطا وقياديون في الدولة، هذا المبنى مؤجر من قبل دائرة الهجرة.

المبنى مسيج من كل جوانبه بشبكة عالية محكمة من شبك الحديد، كالذي يحجز به الحيوانات المتوحشة، الثكنة تبعد عن مركز المدينة مسافة أربعة كيلومترات، مبنية فوق قمة هضبة قريبة من حدود الجيك، فيما أبنية المدينة منتشرة على سفح الهضاب وفي منخفضات الوديان، المنطقة معرضة لتقلبات قسوة الطقس، والثكنة أشبه بمنفى معدة لتهيئة منتسبي الشرطة على الصبر والتحمل.

في هذا الكامب قضينا فترة الاعداد.. كانت وجبات الفطور والعشاء فيه مختصرة على قطعة جبن وملعقة مربى وصمونة صغيرة وعلبة حليب أو عصير صناعي.. الروتين في كل شيء، كان قد عمق فكرة الفراغ واليأس في عقولنا، وإذا ما سألت أحدا عن كيفية قضاء وقته؟ ستكون الإجابة:.... بالنوم.

تهجس بهم وكأنهم قد عُجِنَوا بغراء الكآبة والألم، دون أن يتمكنوا من تغيير شيء من منهج حياتهم، وخاصة فترة الانتظار طويلة قد تتجاوز سنة. ذلك ما ولد انفجارا لدى المتواجدين وبالذات مع الفئة الشبابية من الذكور والإناث.....

ما لفت نظري هو أنَّ أحد الحراس كان جائعا فأخذ علبة من وجبات الغداء الفائضة!! ما أن شاهده المشرف الألماني؛ حتى وبخه على فعله آخذا العلبة من يده ليرميها في سلة الزبالة،

محذرا إياه من تكرار الحالة... ما حيرني هي القسوة المستخدمة في طريقة تعاملهم فيما بينهم ومع الآخرين، حينها وجدني مستغربا من سلوكه، فقال لي الحرس:..

- لا تستغرب؛ هذا هو تطبيق منهج البيروقراطية، تطبيق اعمى للقوانين بحذافيرها دون نقاش وتفكير، دون مراعات الجوانب الأخلاقية والانسانية. أنهم يرمون المواد الفائضة من المؤن على المزابل دون أن يسمحوا لأحد ما الاستفادة منها، حتى الفقراء. لذا تجد الشخص يحاسب أذا أخذ بيضة أو شريحة خبز فوق نصيبه.

حينها تذكرت ذلك الشرطي الجلف الذي منعني من اخذ قطعة خبز إضافية والتي حجمها نصف كف. بذلك السلوك هم يقطعون دابر استغلال الفرص، وأن كانت صغيرة. حيث في ظنهم الأمور الصغيرة تكبر مع مرور الزمن، فتتحول لممارسة ولنية الجشع تشجع على ظهور الفساد، عندها لا يمكن السيطرة على الفجوة إذا ما كبر شرخها.

لذلك هم يلتزمون بهذه المبادئ بشكل أعمى دون النظر إلى حيثيات النتائج ولا يلتفتوا إلى مغزى الإنسانية التي توجب الرأفة والرحمة بين البشر.

في تلك البقعة أهجس بالفكر قد توقف عن ممارسة هواياته وغوايته تماما، بات يزحف في غيٍ خلف الذات دون أن يرتقي قدره. هكذا بتُ أبحث عن صيغة تنتشلني من الاغتمام

والاكتئاب؛ حتى أني كرهت نفسي ويوم إقرار قدومي لألمانيا. تملكني أحساس بأني معاقب من الزمن والذات والالمان ومن الله على أتخاذ قرار الهجرة.. كنت أهجس بذاتي مسجونٌ في سجن مفتوح دون أن استطيع تخطي اسواره..

ذهبت لمدينة كيمنتس لغرض الفحص والاستطلاع، خلال رجوعي ركبت باص 361 والذي لم أكن قد جربته سابقا، وهو يصل لمدينة **آوه** التي تبعد عن ناحية **شنيبرغ** خمسة كيلومترات، اكتشفت بأن الطرق التي تسلكها عجلة الباص 361 تختلف عن التي سلكناها أول مرة، حيث مرت العجلة على كل القرى المحصورة بين كيمنس ومدينة آوه، والتي تزيد عن عشرة قرى متناثرة في الوديان والمرتفعات.

في هذه الرحلة اكتشفت الطبيعة الجميلة التي مر بها الباص ومكامن ومعادن الفتن والجمال لدى الفتيات القرويات، التمست جيناتهن الخالصة، كان الباص قد أمتلأ عن بكرة أبيه بالفتيات، يتقطر منّهنَّ الشهد والجاذبية لما يحملنَّ من سحر وعذوبة خالصة. لمستُ فيهن الفتنة والطراوة الغريبة ببشرتهن والألق في شعورهن المذهبة والرفعة بزرقة الأعين وملاحة الوجه وحسن القوام وفتنة الملامح، كل شيء فيهن يشهد بالأصالة، جواهر من عقيق وماس وزمرد وتوباز، شعور من سندس واستبرق، تهجس بهن كشدة ورود عبقة، وكأنهن يحتفظن بغر تلك السلالة الرقيقة المصفاة من

الشـوائب، ربمـا لأنهـن بطبـاع العـرف والتقاليـد احـتفظن بغـرة الأصل، هن قرويات لم يختلطن بأجناس أُخَرْ.

المهم جلستا قربـي فتـاتين تشـعان فتنـة وجمـالا، كقمـرين دارا فـي فلـك ظنـي، لشـدة مـا يحملـن مـن سـحر يعصـف بطـراوة الجسـد، أحـداهن نحيفـة كغصـن بـان تتصـف بالسـكينة والهـدوء، والأخـرى ريانـة، مربوبـه، ثرثـارة.... التنـاقض واضـح بيـنهن تمامـا فـي الشـكل والهيئـة والطبـاع لا أعـرف كيـف اتفقـن علـى الصـداقة... فتنـتُ بجسـد البدينـة الريانـة وعشـقت طبـاع وملاحـة ملامـح النحيفـة، لأنـي وجـدت فـي فتنتيهمـا شـيء مـن فتنـة وألـق زوجتـي، بـل وجـدتهما تضـاهينها حسـنا وجاذبيـة، فصـرت أسـترق النظـر إليهمـا كلمـا لاحـت لـي فرصـة الحـدج بيننـا. تأملـت هـدوء النحيفـة التـي نقلتنـي إلـى وهـدت الرجـاء، وغـررت فـي عصـف البدينـة المزدانـة سـحرا وجاذبيـة، سـحرتني رقـة إذنيهـا وإطلالـة قُرطهـا الفضـي المتـدلي علـى العنـق، فيمـا تُحلِـقْ رقبتهـا قـلادة فضـية، كأنهـا أضـفت علـى القـلادة فتنـة مـن سـحر عنقهـا، فزادت جاذبية ورفعة.

فيمـا كانـت رفيقتهـا وكأنهـا جزلـت ذلـك السـحر المكنـون فـي فتنـة الجسـد والوجـه بشـفاطة ثرثرتهـا، وكـأنَّ السـمنة قـد أكلـت شـيئا مـن قـوام حسـنها، حيـث بثرثرتهـا أحرقـت جـلَّ مفاتنهـا، أخفـت معلـم الأنوثـة والألـق والحُسـن مـن الوجـه والجسـد بوشـاح مـن قـبح الصـوت الملعلـع.. مـا أن جلسـنَّ بقربـي؛ حتـى صـرت أسـمع دوشـة خرشـت طبلـة أذنـي، كصـوت محـراث التركتـور لـم يبطـل

لمدة ساعة ونصف من الزمن مدة المسير، فلم يهدأ الباص حتى نزلت في قريتها قبل أن نصل مدينة **آوى** بعشرة دقائق. نزلت وبقي طنين ثرثرتها يدور في صوان أذنيَّ، وخاصة لم أفهم ماذا تقول لجهلي لغتها. خلال الرحلة تلقفت مواضيع بالجملة الواحدة تلو الأخرى دون أن تتوقف لحظة واحدة، كأنها شريط مسجل، أظنها كانت لا تتنفس خلال الطريق وهي تقدح تلك المواضيع بوجه زميلتها التي كانت عكسها تماما لهدوئها التام، أكاد لا أسمع صوتها إلا همسا. ظلت ترطن أذنيه بلغتها دون أن أفقه شيء مما تقول، زميلتها زميلتها منطوية إلى جانبها أشبه بورقة ذابلة، لخجلها من الدوشة التي صعقت بها ركاب العجلة، كانت تجاملها على استيحاءً، تهادنها بابتسامة أو بهز الراس، وأحيانا تسمعها كلمة أو كلمتين، وأحيانا تجاملها بالهمس؛ حتى أني لم أسمع لها صوت يَقدح.... تلك البدينة كانت كصنبور الوسخ تفجر في الطريق، عثنت فمها بقبح الصوت لتصيب ذاكرة رفيقتها والركاب بغل الكلم.. لم تغلق فمها قط، ولم أهجس بالهدوء وراحة البال حتى نزلت في قريتها. لقد ارهقت الجميع بثرثرتها، حتى حين غيرت مقعدي لم أنجي مخي من لعلعة الصوت.

كأنها لافت طيبة صديقتها والطريق الطويل والركاب بخيش سَمّج ثرثرتها، جعلتني أكره جنس النساء قاطبة، ظل نزق صوتها يخق في طبلة أذني كارتداد صوت صفيح بعد الطرق، لصدا صوتها الناشز وهو يدور في فلك الباص حتى بعد نزولها..

مـــا أن نزلـــت حتـــى تتبعـــت خطواتهـــا وهـــي تســـير بمحـــاذاة الرصـــيف، هجســـت بجســـدها البهـــي، كأنـــه شـــعلة تســـتنطق الرصـيف تحـت غشـاء الغسـق، لسـحره ولجميـل القـوام والبشـرة. كانـت ترتـدي بنطلـون جـنس أزرق مـع قمـيص فضـفاض أبـيض. وأظـن بطابعهـا الثرثـار لـن يحتملهـا رجـل إطلاقـا. حمـدت الله بـأن زوجتـي لـيس فيهـا مـن صـفاتها شـيء سـوى جمـال البشـرة وقـوام الجسـد، بـل بـالعكس فهـي تحمـل سـمات تلـك النحيفـة مـن هـدوء وكياسة ورقي، ذاك ما يشع في صفاتها ويزيدها ألقا وفتنة.

بـدا الفـراغ فـي المانيـا أكثـر عمقـا وخطـورة مـن ذلـك الـذي واجهتـه فـي أجـواء السـويد المتجلـدة، المـوت البطـيء صـار يزحـف علـى الجسـد أشـبه بالغرغرينـا، تزاحمـت العقـد فـي جـوف الأحـلام، جردتنـي مـن النشـاط والتأمـل، كـأنَّ حـوض الفكـر شـف مـاءه، تغيـرت صـفاته، صـار تعامـل الفـرد مـع محيطـه كتـأثير الشـوكة فـي البالونـة، لا يـود أن يغـوص بـأي منفـذ، همـه فقـط الـتخلص مـن فيض الجنون المحيط به، وهو قابع في ركنه كالحجر.

ذلـك مـا دعـاني اتصـل بزوجتـي كلمـا سـنحت لـي الفرصـة، لأبعـد عـن الـذات صـفة التجلـد، لأنـي أهجـس بهـا كحبـل الغسـيل أنشـر همـومي علـى عاتقهـا، لتحمـل عنـي بعـض أرقـي وشـتاتي... كانـت هـــي الأخـــرى منشـــغلة فـــي مجـــال المدرســـة ومشـــاكلها وعقـــد التلاميـــذ التـــي لا تنتهـــي مـــن درجـــات ومســـتويات ولقـــاءات وتخـاطر وسـفريات ...الـخ. اتصـلت بهـا مسـاء متـأملا أن تكـون بأتم الصحة:....

- ألو
- هلا يا عمري..
- اشتقت اليك ووددت إزعاجك قليلا....
- أجمل إزعاج الحبيب لحبيبته.....
- الفراغ هجم عليَّ وجعلني مجنونا في غي لا استطيع التخلص منه امثله كذئب الغابة لن يترك فريسته إلا مستسلمة، أجد ذاتي في سجن الكامب كالفريسة، تجردنا من كل شيء ربما سنجرد من العقل الذي بات يُسَفْ مع تواتر الأيام، ولا أدري كيف تقضين فراغك؟؟؟
- أي فراغ، أنا في رأيي الفراغ هو من بُدع الإنسان، فليس هناك شيء أسمه فراغ، تراني أشغل ذاتي بأمور البيت والمدرسة والأطفال، وعندما اشتاق لك، أضع اشتياقي في فريز النسيان...
- الفراغ موجود، ربما عندك ذائب بالعمل، هو من صناعة الظرف، خذي ظرفنا مثلا كنموذج، نحن نعيش في غرفة فوق الجبل دون نت وتلفاز وعمل، كأنهم بذلك عزلونا عن العالم، وضعونا في سجن داخل سجن. الكامب مسيج بسور حديدي، والثلوج من حولنا بارتفاع قدم، تمنعنا من الحركة والنزول للمدينة. تصوري؛ أقرب بقالة تبعد عنا ثلاثة كيلومترات. لذا بعد استيقاظنا نعود نحتضن الوسادة مرة أخرى، صارت الوسادة حبيبتنا، والسرير شريك حياتنا.....

- هههههه، تأدبوا..... أما أنا؛ أن وجت فراغا في حياتي أكشه بالأشغال، أكنس البيت، أرتب البيت، أتصفح النت، أشاهد فلما ما، أصبغ أحذيتي وشعري، أمسح نوافذ الغرف، وبتلك الأعمال أشغل نفسي حتى يغلبني النعاس. لا تعتقدْ لا أفكر فيك، لكني أعتبر الحالة طارئة وأن طالت مدتها.
- جميل جدا، أبقي على هذه الشاكلة لأن الفراغ قاتل، وكوني على أتصال دائم معي، لتشغليني وتشغلي ذاتي بك وذاتك بي..
- وهو كذلك يا حبيبي، مع السلامة.

16- مراجعة طبيب

كان الخامس والعشرين من آذار عام 2021 يوماً مشمساً، دافئاً، يحمل في طياته فتنة نقيض ما كنت أشعر به داخلياً. ذلك اليوم صادف موعد زيارتي للطبيب، لمراجعة حالتي الصحية التي بدأت تتفاقم، لا لخطورتها، بل لما تثيره من قلقٍ ورتابةٍ تنغص حياتي، وتُحيل فراغي إلى هاوية من الهواجس. لم تكن الحالة مخيفة، لكنها تحولت إلى عبءٍ ثقيل، يتغذى من وحدتي بعد فراق زوجتي الحبيبة، فيشتد وطأه كلما مرّ الزمن.

صار ضغط الدم يشتط في ارتفاعاته، اختلت لديّ حالات التبول، غدت لا إرادية، تداهمني على حين غفلة، خصوصاً في فصل الشتاء. عزوت ذلك للقلق، للهوس، للتفكير المستمر بها. قلّ نومي، ذبل جسدي، فقررت أخيراً أن أضع حداً لتلك المعاناة، وأن أزور الطبيب في مدينة كيمنتس، التي تبعد عن بلدتي شنيبرغ نحو أربعين كيلومتراً.

ركبت الحافلة في العاشرة صباحاً، وكان علينا المرور بمدينة آوى. هناك، صعدت فتاة رشيقة، لماحة، ذات أناقة آسرة ووجهٍ يفيض بالجاذبية. ما إن رأيتها حتى شعرت بذهول، إذ بدت لي نسخة طبق الأصل من زوجتي، في ملامحها وطولها

واناقتها وفي طلتها وبدنها. جلست قبالتي، لا يفصلنا سوى مقعد واحد، شغلته امرأة مسنة.

لم يكن الشبه في تقاسيم الملامح فقط، بل في الحركات، في البسمة، في النظرة، في العفوية. خُيّل إليّ أنها زوجتي متنكرة، بشعرٍ مستعار، وعدسات عيون ملونة، وبشرة مختلفة. لكن تلك الشامة على حنكها الأيمن، كانت الدليل الذي لا يُخطئ. كيف يمكن أن تكون كل هذا التناسق مصادفة؟! لا، لا وألف لا... إنها هي!

غلبني الشك، وتاه عقلي بين اليقين والحدس. صرت أتمعن في تفاصيل وجهها، في شفتيها، في وجنتيها، في أنفها الشامخ، في كل ما يذكرني بزوجتي. النساء اليوم يصنعن المعجزات في صالونات التجميل، يغيرن كل شيء، حتى أن الرجل قد لا يعرف زوجته إن خرجت من هناك.

انغمست في خيال، تخيلت نفسي أحتضنها، أقبلها، أذوب في فتنتها بعد ذاك الشوق والفراق، حتى نسيت كل من حولي، نسيت الطريق، نسيت المرض، نسيت الزمان والمكان. كنت أبحر في وجهها، كأنني فراشة تمتص رحيق زهرة التوليب، أرتعش في حضورها، أصطلي بنار جمالها، حتى امتدت شفتاي نحوها دون إرادة، كمطاط تجاوزت مقعد الوسط، لتطبع قبلة الحياة على وجهها... عندها أفقت.

مـا أن دخلـت فـي أتـون السـهو والسـهاد، وقبـل أن تطبـق شـفاهي علـى تلـك الشـفاه؛ فـي تلـك اللحظـة الحرجـة والمراقـة مـن الحلـم وأنـا اتبـع الشـغف اللاعـج فـي قلبـي ومخيلتـي... أقـول فـي تلـك اللحظـة السـعيدة والعسـيرة فـي نفـس الوقـت وأنـا متأمـل مـن تلـك القبلـة أن تجلـد حزنـي وأرقـي؛ فـي تلـك اللحظـة التـي انـدمجت الشـرائع مـع الأقـدار لصـناعة فبلـة الحيـاة؛ كانـت قـد لسـعتني بعوضـة مـن سـاعدي الأيسـر، جعلتنـي أجفـل لشـدة الالـم الـذي أراقتـه فـي موضـع اللسـعة.. ودون شـعور منـي صـفعتُ سـاعدي الأيسـر بكفـي الأيمـن بقـوة، مـا أدى إلـى أنتبـاه الجميـع علـى صـوت الصـفعة. مـا أن رفعـت رأسـي؛ حتـى وجـدت فـي حـدقاتها نظـرة تأسـف، لا أدري أن كانـت قصـدت سـوء تصـرفي وانحـداري إلـى عالمهـا الثـاني، أم رأفـت بهـا علـى حـالي لشـدة اللسعة.

تلـك البعوضـة الصـغيرة، كأنهـا جـاءت مـن عـالمٍ آخـر، سـرقتني مـن خيـالي، مـن تلـك السـكرة التـي كنـت أسـبح فيهـا، أعـادتني دفعـة واحـدة إلـى عـالمي الحقيقـي، إلـى وضـعي الطبيعـي، بعـد أن اختطفتنـي نشـوة الخيـال إلـى وهـدة سـعادةٍ مرجـوة، كنـت أبحـث عنهـا بشـغف فـي ظـل الفـراغ الـذي نهـش عقلـي. كأنهـا أبـت أن ألـوك شـفاهي بتلـك الشـفاه الوارفـة، فغرسـت غلهـا فـي جلـدي، جعلتنـي أحـك موضـع اللسـعة بشـدة، حتـى كـاد الـدم أن ينـزف مـن فرط الألم.

لا حكم لي على تلك البعوضة، لمَ اختارت تلك اللحظة بالذات؟ لحظة اندماج الروح بالسر الإلهي المراق على شفتين من نور، كأنها وحيٌ مرسل، جاء ليقول لي: "كف عن تطفلك يا مراهق، تحلَّ بالاتزان، لا تتهكم، ولا تتصرم في سلوك عبثي". فعدت إلى طبيعتي، متلفتًا يمينًا وشمالًا، أبحث في وجوه الركاب عن أثرٍ لما جرى، لكن وجدت الجميع مشغولا بهمه، غارقًا في عقده وهواه، لا أحد انتبه، لا أحد رأى.

وبعد هنيهة، عدت إلى شرودي اتبع ذلك الشيطان الذي اغواني، إلى خيالي، إلى تلك اللعبة التي بدأت أزاولها مع نفسي، لعبة التحدي مع تلك الفتاة التي تشبه زوجتي حد التطابق، والتي أيقظت نار أشواقي، وأعادتني إلى زمنٍ كانت فيه زوجتي ركناً من أركان حياتي، لا تغيب عن الذاكرة ولا عن القلب.

تبع الفكر نظرات العين إلى حقولها الخضراء، إلى ملامحها التي لا تخطئها عين، إنها حقًا ملامح زوجتي، وهل أغفل عنها؟ غير أنها أرشق قليلاً، أكاد أقبض على خصرها بكف واحدة. حين تبتسم، تكاد شفتها تغطي وجهها لنحافته وضمور الخد، لكنها تملك عيون زوجتي، أنفها، شامتها، شفتها... تلك الشفة التي طالما أغرتني، فحسبتها هي، ربما نحفت بفعل الفراق، أو شدة التفكير بي، أو عجاف العزوبية.

عدت للفضول، لأنغمس من جديد في بحر الخيال، لأغور في عالم سحرها، لأغوص في متاهة تلك الشفاه الندية، المغنجة

بالجاذبيـة، بلونهـا القرمـزي المقتضـب، كأنهـا فـص عقيـق مشـبع باللدانـة والرقـة. صـرت كالمسـتجدي، أتأمـل أن أنـال قبلـة، ولـو خيالاً، من تلك العناقيد المتدلية من كروم الفتنة.

مضـيت علـى شـاكلتي الأولـى، أبحـر فـي شـواطئ بحرهـا، هجست أن تلـك الشـفاه لا تنفك عن عـالمي، بـل تـدعوني لعالمهـا، تقتـرب منـي بقـدر اقترابـي منهـا، وكـأنَّ بيننـا حنًّـا كهرومغناطيسـيًا، انجـذبنا نحـو بعضـنا، صـرنا قطبـين متجـاذبين، مختلفين في الشكل، متشابهين في اللهفة.

تكـوّرت الفكـرة فـي ذهنـي، تلفـظ نـار الوجـد فـي صـدري، وددت أن أقتلـع تلـك الشـفاه مـن وجههـا لأضـمها إلـى فمـي، صـرنا ننحنـي تجـاه الرغبـة والغـنج، صـارت شـفتي تبحـر كموجـة نحـو شـاطئ شـفتها، تتهـادى فـي صـبابة نحـو الموقـد المتقـد، تـود أن تـتحطم علـى شـاطئها. تمطـت بهـا الرغبـة إلـى جوفهـا، هجسـت بعطـب فـي اللهفـة، بـدا دخانهـا يتـراقص أمـام عينـي كثعبـان الكـوبرا، يميل مع شطط الآهات النافذة من حشا الفؤاد.

ومـا أن دنـت لحظـة الانـدماج بـين المشـاعر والهـواجس والشـفتين لحـدود شـعرة الخيـال، حتـى صـعقتني العجلـة بزعيـق زمارهـا المـوحش- طـــــــــاط - دعســة مفاجئــة مــن الســائق علــى المنبـه، أيقظتنـي مـن نشـوتي، اعـادتني لـواقعي المـريض، وذلـك حـين اجتـاز سـائق عجلـة ثانيـة إلـى جانـب عجلتنـا منعطفًـا ضـيقًا بسـرعة ورعونـة، كـاد أن يـودي بنـا إلـى وادٍ سـحيق، لـولا رحمـة الله.

هجست به كأنه كان يراقبني من خلال المرآة العاكسة، دعس على الزمار وكأنه وجه لي تحذيرًا، يقول لي: "كف عن التبجح يا أهبل، لا تتجاوز حدودك، لا تقتحم حرية الآخرين". كأنه توجس نية سلوكي الجانحة، المراهقة، فصعقني بصوتٍ مدوٍّ، أعادني إلى الواقع.

صرت أسأل نفسي: هل هي فعلاً ساحرة؟ هل هي بشر؟ ففي المرة الأولى غلبتني بعوضة، وفي الثانية أقلعني زمار العجلة. أكاد أشك أنها ليست من هذا العالم...

أهجس بها، تحمل بين كتفيها آية من الرحمن، تحميها من الوحوش الكاسرة، حتى في لحظات السهو والخيال. تيقنت أنها مُسيَّرة ومأمورة، فإما أن تكون ملاكًا طاهرًا، أو تكون زوجتي متنكرة، أو شيطانًا في هيئة بشر. وإلا، فما سر تلك الحوادث التي تمنعني من تخطي حدود الأدب معها حتى في خيالي؟ هل لأني أخالف حدود الشرع؟ أم لأن سلوكي المنحرف يغيض المجتمع؟

كنت وحيدًا، أتخور في عالم الغياهب، أبحر بقارب من هوس الجنون، من نسيج الحب والخيال، هدوئها وسحرها ساعدني على تخطي عجزي لأصل شواطئ عينيها وضفة شفتيها، بشغفي وهيامي بها.

ترى، هل اقترب أحدهم من عالمها كما فعلت؟ هل أحد الركاب أخبر السائق بما يجول في خاطري ليحميها؟ ربما

الكل تخيلها زوجته، الكل شاركني رغبتي، الكل حاول الوصول إلى شواطئها بذات السرعة التي عبرت بها مفازة عجزي وقفار أشواقي، فما كان منها إلا أن تنبهت، فأوقف السائق همجيتنا.

بقيت أفسر سر التشابه الكبير بينها وبين زوجتي دون جدوى. هل فعلاً خلق الله من الشبه أربعين؟ إذاً، من الإنصاف أن أتزوج الأربعين المتشابهات، لأني أغار على زوجتي، ولن يختزل حبي لها قيد شعرة، ولن أسمح لأحد بالعبث بها ولو بنظرة.

هكذا أردتها، وهكذا تعلقت بها، رغم الفراق الذي حال بيننا دون إرادتنا. شعرت أني أحق بها من الجميع، أحق بتلك الفاتنة التي تجلس قبالتي. ما الذي دفعها إلى ذلك المقعد؟ لا بد من سر خفي، سر يجمعنا، جعلها تركب ذات الباص، تجلس وجهاً لوجه أمامي، حتى تقيدتُ بمحاسن فتنتها.

أنا لا أؤمن بالمصادفة، فحين أكون بكامل قواي العقلية، لا تكون المصادفة إلا خيطًا من خيوط الأسرار الغائرة في ما وراء الطبيعة. جعلت عجلة الحياة تسحبها من واقعها الرزين لترميها في حوض واقعي العبثي، لتحملني رزء تلك الفتاة أو تكشف لها سري.

قررت، إذا ما توقفت العجلة، أن أتقدم لها وأصارحها بكل ما اختلج الفؤاد به من لاعج وعاطفة. ترى، هل لمحت إعجابي

بهـا؟ أهجـس بهـا تعـيش فـي عـالم آخـر، عـالم يفـيض بالأشـواق والحنـان، بعيـد عـن عـالمي الرمـادي. لـذلك، كـان علـي أن أبقـى بعيدًا عـن المحيطـين بـي، لأنغمـس فـي أتـون عالمهـا مـرة أخـرى، متمسـكًا بخـيط الخيـال الـذي يرشـدني لشـواطئ شـفتيها، لأتبـع ضـوء الفتنـة عـن قـرب، لأركـب صـهوة جـواد القلـب، متبعًـا صهيله الذي سيوصلني إلى قلعتها بشيء من الحذر والتبصر.

قطعنـا شـوطًا طـويلًا مـن الطريـق، دون أن أهجـس بالوقـت المهـدور بيننـا. التفت يمينًـا وشـمالًا، لأنسـل مـن قبضـة المحيطـين بـي، لأرجـع باشـتهاء لعـالم الخيـال الواسـع. وجـدت الكـل منشـغلًا بذاتـه، ربمـا غصـوا بفتنتهـا، أو بعـالم أزواجهـم، أو بكـأس النبيـذ المتخمر في وجوههم.

لشـدة ولعـي بهـا، صـرت لا أعيـر أهميـة لمحيطـي، كـأني تجـاوزت حـدود الأدب والمنطـق، لأنهـا فـي نظـري زوجتـي، ولـي الحـق فـي مغازلتهـا. لمحـت فـي وجنتيهـا شـعلة تضـيء جـدران الخيـال، أحاطـت الشـفاه بومضـة خافتـة مـن ضـوء قنـديلها، أضـحت كثمـرة ناضـجة تخفـق فـي الغصـن، كقمـر يسـطع في الليل.

هـي لا تختلـف عـن زوجتـي سـوى بلـون البشـرة ونحافـة البـدن، فلـو وضـعت شـيئًا مـن الأسـاس علـى سـمارها، لتكـون هـي بعينهـا. أشك بلون عينيها، وأظنها عدسات موضة.

عاد بي الخيال لواحة الغزل، لحالة التسامي والانصهار، للملاحة في ذلك الوجه المنبسط، متأملًا تلك الشفاه الغضة. حاولت أن أغمض عيني لأكون قريبًا منها، لأتحسس جلد الجاذبية، لأشعر برقة تلك الشفاه، لأغوص بفج الفتنة وحيدًا، كما تفعل النعامة حين تدفن رأسها في الرمل هربًا من العدو.

تخيلتها زوجتي، تتحرك أمامي، تبتسم لي، تضحك على قدري، على شدة ولعي بها، كأنها أدركت نجواي وهيامي بها. حتى أني شككت بأنها زوجتي الحقيقية، تتلاعب بمشاعري.

فتحت عيني للحظة، فوجدت وجلي وهوسي يسيح كرغاء زبد البحر على شواطئ شفتيها. ومع أني فتحت عيني، إلا أني لم أغادر سقف الخيال، بقيت أتأرجح بين وجه الفتاة ووجه حبيبتي كبندول الزمن، طارقا ذاتها بناقوس أشواقي، أغمض عيني تارة وأفتحها تارة أخرى، لأتأرجح بين الحقيقة والخيال، أغتني بسعادة آنية وأنا ألتقي زوجتي عبر مجسات التخاطر.

هجست بالذي يجلس بجانبي وقد انغمس بوحل الوسن، أسمع شخيره يطرق مسمعي، بينما كنت أهرب من عالم الوهم لعالم الثبات. أرى الذي يشدني إليها هو خيط نور يخترق سدم الفراغ، يرسم قبلة حياة على تلك الشفاه.

ومع درجات التأني، كدت أصل شواطئ قلبها، صار الضوء المشع في شفتيها يجذبني اليه كفنار السفن، يزهق أرقي وهواني بلهفة. أضحت تلك الصورة تلتصق على صفائح

الظـن كجمـرة عابثـة، تلسـع يقينـي. انغمسـت بأنفاسـها وبلـون فتنتها، هجست بها تشاطرني الرأي والرغبة.

مـا أن ولجـت ذاتـي بعالمهـا، حتـى أدركـت لحظـة قطـف درتهـا، تلاشـت المسـافات، صـارت تقتـرب مـن الصـفر، صـرت أتحسـس أنفاسـها وطـراوة بشـرتها بقـدر، أتشـوق لهـا، ألهـث خلـف محاسـنها، هجسـت بروحـي ترتـع بأسـاس بشـرتها كحبـات المطر، تغدق بمفاتنها وتسهو بلدانتها كالنظر...

وقبـل أن تمـيس شـفتي زبـد شـفتها وأنهـي فصـل تلـك الـدراما، دعـس السـائق علـى نـابض الوقـوف علـى حـين غفلـة، اهتـزت العجلـة، وكـدت أن اصـطدم بـالعجوز القابعـة أمـامي، لـيعلن انتهـاء مشـوار الرحالـة. ارتجـت أعصـابي مـع ارتجـاج العجلـة، وهي تقف في محطتها الأخيرة لتغلق رتاج فكري...

صـحوت مـن غفـوتي، مشـدوه البـال، مشـتت الفكـر، عينـي تـدور في أروقة الفتاة، أيقنت أنها محمية بسر إلهي.

غـادرت العجلـة، تبعتهـا، كـل أملـي أن أفضـي لهـا مشـاعري. وقبـل أن أربـت علـى كتفهـا، أرتمـت فـي حضـن شـاب وسـيم كـان ينتظرها في موقف الباص...

عنـدها توقفـت عـن شـرودي، عـدت خائبًـا إلـى عـالمي الحقيقـي، أجـر خطـى المـرارة، متجهًـا إلـى عيـادة الطبيـب. أمشـي، وتلـك الصـور تتقلـب فـي ذهنـي، بشـيء مـن الحسـرة والألـم، كشاشـة تلفـاز تعيـد تسلسـل الأحـداث، مـن لحظـة ركوبهـا العجلـة، إلـى

لقائهـا بـذلك الشـاب الوسـيم. أعـيش أدوار اللحظـات وأنـا مأسـور، عائد إلى ساحة الفراغ التي وددت أن أهرب منها دون جدوى.

17- البار

بعد مراجعة الطبيب في 2021/6/3 ، لم يجد في تقريره المفصل ما يفضي إلى القلق، وكأنَّ العلاج الذي أخذته سابقا كان شافيا بما يكفي. لذا خرجت من العيادة كمن نجا من مأزق كاد أن يودي به، رغم شفائي إلا أني لم أعد بذات الفتنة والإرادة حين هاجرت، وكأنَّ الحالة لم تكن سوى بداية تيهٍ جديد، دلق بي الظرف لوسط الفراغ، مع كم وافر من النصائح التي ارشدني بها الطبيب: حثني على تغيير نمط الحياة، على التحرّك، السفر، القراءة، العمل، وشرب الماء. نصحني بممارسة الرياضة لتنشيط الدورة الدموية، والتي بها ممكن أتخلى عن التفكير السلبي الذي يلازمني.. لكنني كنت مرهق في داخلي، كمن يجرّ جسده في الشوارع متسكعا بها، لا أملك من أمري شيئًا سوى ذاكرة مثقوبة، وأفكار تتناسل من بعضها كأشباح الليل تدور حول الغربة وغياب زوجتي عني.

أخذت بنصحه ووجدت ذاتي تتطوح في الشوارع دون هدف، الكسل متنمل في خلايا المخ. مع أن الشمس ساطعة، والناس تجوب الأسواق كأنهم يعرفون وجهتهم إلا أنا، كنت أجرّ خطواتي كمن يسير داخل حلمٍ ثقيل، لا يدري إلى أين يذهب، ولا لماذا هو موجود في تلك المنطقة، الأفكار تتقلب في الذهن كبركان لا يهدأ، كنت في حيرة من أمري، حيث هواجسي لا ترتقي إلى ذلك الطقس الجميل.

فجأة، طفت على سطح الذاكرة صورة حبيبتي، وميضٍ خاطف طفح فوق ذاكرة الأحداث، كضوءٍ مارق تسلل من نافذة القلب، فاض بي الشوق، تبعثرت نظراتي في ملامح كل امرأة تمر بجانبي، بات ينقلني بين حيرتي وصمتي من مجهول لمجهول. ذلك الإرهاق فضح عجزي وشرودي لكل من يدقق في ملامح وجهي، كأنَّ دخان الحنين تصاعد من أنفاسي ووشى بي إلى واحة الجنون.

أضحى العناء على أشده وأنا مشدوه البال لعناق زوجتي، تلك التي شطحت بها ذاكرتي لحدود السحر والألق القابع في ثناياها. لم اتمالك نفسي، و في لحظة ضعف لم أجدا ملاذا يأويني ويشفق على ذاتي؛ سوى باب بارٍ صغير صدفة وجدته في طريقي، لا يحمل من الفخامة شيئًا، لكنه بدا لي كملاذٍ مؤقت، ككهفٍ أختبئ فيه من ضجيج الذاكرة. دخلت وأنا أجرّ خيبتي. دخلت وأنا لا أبحث عن نشوة، بل عن نسيان اشطف به ذاكرتي. اعتبرت ذلك جزء من باب التغيير الذي نصح به الطبيب.

على أية حال دخلت البار كصائع مجون لا يعرف أن يبدأ مشواره، لا أعرف تقاليد المكان والشرب والسكر، ولا لي خبرة بطبيعة الخمارة والمتسكعين في النوادي الليلية، كل ما لديّ هي مشاهد حفظتها من أفلامٍ قديمة وتجربة يتيمة لا تصلح أن تكون مرشدًا.

جلست في ركنٍ قصيّ، على كرسي خشبي ومنضدة زجاجية، تحت أضواء فلورسنتيه خافتة تشهق في ضيائها داخل العتمة، في ظل هدوء عام كان صفير الصمت يعم أجواء البار المكسوة جدرانه بأقمشة قطيفة حمراء توحي بأجواء مسائية رومانسية، كأنها تحاول أن تخلق وهمًا من الألفة، في ظل وحشة تشل الذاكرة بشعور مليء بالضياع.

بقيت مترنحا في مقعدي حتى أتاني النادل والذي لم أفقه من لغته شيء، لكنني لفظت كلمتين: "ويسكي" و"بيرة". فهم المغزى، فالألم له لغة عالمية موحدة. عاد بعد دقائق، يحمل صينية صغيرة، عليها كأسٌ من الويسكي وقارورتي بيرة. وضعت يدي على الكأس، كمن يضع يده على جرحٍ قديم اود وقف النزف، بثُ ارتشف الكأس دون أن أبالي بمحيطي، بل صرت أقلدهم في الشرب وتناول حبات النقل. ارتشفت أول قطرة، لا لأجل الطعم، بل لأجل أن أزيح عن كاهلي عناء اليوم، لأغسل بالسكر ما علق بالروح من أرق وتعب.

في تلك اللحظة، لم أكن سوى ظلٍّ يتسكع في دروب الأشواق، يبحث عن ذاته في زجاجة الخمر، عن خلاصٍ مؤقت، عن نسيانٍ لا يدوم. كنت أظن أنني أغيّر نمط حياتي كما نصح الطبيب، لكنني كنت أمارس نوعًا آخر من التغيير... تغيير عبثي، وهو الوحيد الذي استطعت أن أحتمله.

كأس من الويسكي وقارورتي بيرة وصحن من النقل، كان كافيا لنقلي من واقعي لواقع لم أجربه، لينقلني لمصاف هؤلاء

المتسكعين المحيطين بي، الذين يدورون حول أنفسهم بحثا عن ذواتهم الضائعة في متاهات الشك والخيبة.

صرت أحتسي الشراب دون أن أبالي بمن حولي، كأنني أخلع عن نفسي عباءة شخصيتي لأرتدي قناع اللامبالاة. في تقليد أعمى للجالسين حولي في ارتشاف الكأس، كأنني أتعلم طقوسهم المقدسة في كيفية التوحد مع الكأس، في الانفصال عن العالم ودخول جنتهم القابعة خلف فقدان الذاكرة.... ومع اندماجي في الشرب، هجستُ بوجود شرطي أو حارس للبار يراقبني، خُيّل إليَّ أنه واقف أمامي عند المدخل، يحدّق في سلوكي وتصرفاتي بقصدٍ مريب، كأنما يشك بأمر ما، ربما لأنني غريب، وربما لأنني أول مرة أدخل هذا المكان.

تسللت إلى ذهني فكرة أنه جاء ليراقب عبثي، يبحث عن أسراري كمخبرٍ متخفٍ واجب حفاظ الأمن، ما أزعجني كان يراقبني دون الآخرين. في وجهه علامات فارقة، كوجه مجرمٍ مشفّرٍ بمطواة، وجهٌ جهم، ناشف، خالٍ من الرحمة والمغفرة، فيه مجانة وعنف وصلافة... بقي واقفًا في مكانه كمسمار صلب، كعمود النورٍ دون أن يبرق، لطوله الفارع وضخامته، كشيطان أخرس يفسر الأمور بنظرات عينيه الشزرة، يبحلق في وجهي كانه وضع يده على كنز وأنا أحتسي الخمرة.

بتُّ أحاول تجنب نظراته فأنظر إليه بين الفينة والأخرى بوجس، أهجس بشعلة غضبٍ تنفر من منافذ وجهه، لا أدري لماذا يراقبني، ربما كان موجهًا من قبل صاحب البار،

فالسكيورتي هو عاملٌ يعمل بأجر لاستتباب الأمن داخل البار، لكن بصراحة، انزعجت كثيرًا من وجوده، من تتبعه لتصرفاتي في مكانٍ يفترض أن أمارس فيه حريتي المطلقة، فما بالك إذا كان رجل أمن؟ أنا ما دخلت البار إلا لأزيل هالة الكآبة من على الفكر والقلب، لأريح ذاتي، وأستلطف نفسيتي بكأسٍ من الجعة.

وقوفه في الظل يبعث شكوكا في النفس، تنعكس على وجهه أشعة خافتة، متذبذبة، هجستُ به كلوحة جدارية ترتع بقبح الصفات من تبجحٍ وجسارةٍ وغثاثة. ومن خلال ملاحظتي، بدا لي أنني الوحيد الذي يهتم بشأنه، صرت أراه بضني وضميري وخيالي، تراءى لي يتحرك في مكانه مع موجات فكري المضطرب، يراقب حركاتي، يسجل ملاحظاته، ربما لكوني جديدًا على المكان، وربما لأني غريب، فظن أنني لص أو مجرم، هكذا قرأت فكره.

هكذا خُيّل إليَّ ذلك الشرطي، دخل مع دخولي البار، ليقف في زاوية المدخل يتجسس على سلوكي ومجانتي. في البداية شعرت بضيقٍ نفسي شديد، ثم مع الوقت تناسيت وجوده، وأقحمت ذاتي في تجربة التغيير التي وددت بها أن أفك كربي، فلم أجد طريقة أنجد بها نفسي المريضة من مخمصة التفكير السلبي الذي لازمني وماحقني، سوى أن ألجأ إلى البار الذي صادف وجوده أمامي دون تخطيط. لكن وجود ذلك الشرطي نغّص رغبتي.

قررت أن أستمر في غيي، غير آبهٍ بذلك الشاخص أمامي، أهملت وجوده، وتناسيته، وصرت أحتسي الجعة دون مبالاة. كأسًا تلو كأس، حتى ثملت، حتى تراخت ساقاي، وخَلَّ الجسد تماسكه. حتى فضّ المخ شحنات الهم والغم، وتخلى عن كل شاردة وواردة دخلت صفحاته. صارت الذاكرة ككويكبٍ يدور في فراغٍ لا يحتوي سوى صور زوجتي، وهي تبعث بإشارة استغاثة من بعيد.

أضحى فضاء مخيلتي معرضًا لصورها، كتلفاز يتقلب بصورها؛ خلتها تمشي معي، تضحك، تمازحني، تلاعبني. أدركتُ خيط الجنون، كأنه أرشدني إليها، حثني على مناداتها، لأخطفها من يد القدر. أجيلها من عبث تلك الوجوه العابسة من حولي، الذين لا أفقه لغتهم ولا أطيق سقمهم وشعوذتهم.

تماهت صورها بسدم الفراغ، بتُّ أبحث عنها في صحف الأمس. كنت أدرك أنني أبحث عن المستحيل، حيث غارت الأمور في لجم العقد، بسبب شساعة الفراغ المحيط بي. فراغ يؤطر فراغًا، داخلي وخارجي، والذهن مشتت في ذلك الوسط، لا يطمر الذاكرة سوى اسمها، تلك التي تركت ندبًا من الشك في قدرتي على تخطي عجزي ونيل مرامي.

هكذا صرت أدور في متاهة من العبث والجنون، في ظل مراقبة الشرطي الماثل أمامي دون هوادة. أدور في معمعة لا أعرف كيف أخرج منها، لأقطع الشك باليقين، وأعيد ذاتي لأجواء ما قبل الهجرة، أو ما قبل السكر.

انهمكتُ بشيء لا أعرف له اسمًا، صورة غامضة لا أستطيع تحديد ملامحها، كضوءٍ يتراقص أمامي، كطائرٍ الستل العملاقٍ ينهش وجودي وتأريخي. صورة مختلقة من ألوان العبث، لا تبرز فيها سوى خطوط شك داكنة، جعلت فكري يضمحل في طياتها، نقلتني من عمقٍ إلى عمقٍ أظل، بحثًا عن يقين، عن عالمٍ حرٍّ يأويني.

تشبثت بذلك الوهم مضطرًا، راغبًا في الخروج من قوس الشك المعتم، للعودة إلى عالمي الحقيقي. حسبت نفسي عائمًا في مدٍّ من الفراغ، كطائرة ورقية تهفو بي عاصفة، لا أدرك حقيقة قدري، ماضيًا بصمتٍ في سدم السكون، لا أسمع سوى همسٍ يأتي من خلف حاجزٍ خفي، يدعوني لاتبعه.

خرجت من البار متأبطًا صبري، متبعًا ظني خلف هاجس حبيبتي. اصطدمت بذلك الشرطي الذي كان يراقبني، تحسست جسده، فلم يكن سوى ستارة جانبية يعتليها مصباح فلورنسي خافت، تحركها ريح المروحة، بدت لي كشبحٍ تحت الأضواء المتداخلة.

خرجت دون وعي، دون أن أدفع قيمة المشروبات. ما إن مسكت ذيل الشارع حتى تبعني النادل، يناديني بأعلى صوته، دون أن ألتفت إليه. لحق بي على أول الرصيف، صار يكلمني بلغة لا أفقهها، للغيلان الذي ركب أدراج مخي، ولعدم فهمي لغته.

كنت قد تركت عالمي الواقعي مبحرا في عالم مجون، مبتسمًا في وجهه، فاقدًا للوعي، لا أفقه ما يدور حولي. تحسست يده حين دسها في جيبي، أخرج محفظتي، سلت منها ما سلت، ثم أعادها الى سترتي، ثم دلقني بيده. لا أعرف كم كان معي من نقود، وكم سلب مقابل مستحقاته.

هم هكذا بائعو الجور والذمم، يستغلون الفرص ومن هم على شاكلتي، يسرقون ما تطاله أيديهم. لم أدرك ذاتي إلا بعد عودتي للمنزل، لا أدري كيف عدت، وجدت المحفظة تصفر، خالية إلا من هويتي وبعض اليوروهات. ربما أخذ أضعاف القيمة، فهم يستغلون المتعاطين، ومن حقهم ذلك، فمن الذي أجبرهم على صرف تلك المبالغ في المباغي والبارات؟.... أيكون الإنسان إنسانًا وهو يبحث عمّا يجعله حيوانًا؟ أيكون ذا عقلٍ وهو يشتري وجع رأسه ودوخته بالمادة التي يعيش بها؟ وما جدوى أن يسكر الفرد ويرمي مصروفه في قنانٍ تفقده كرامته وشخصيته ومذهبه؟

تراخت أعضاء جسدي، صرت أمشي في الشارع دون يقين، أهجس بساقي تطير فوق الرصيف كغزالة تهزع بحقول خضراء. الأرض تهتز تحت قدمي، شعرت بنشوة مطلية بالسخط، وهوانٍ يركبني بشيء من الحسرة.

وأنا ماضٍ في طريقي خلف هاجس صوتٍ يطنب أذني، وجدت ذاتي تنحدر خلف فتاة آية في الجمال، وكأنّ الصوت آتٍ من لدنها. كان اليأس يدفعني لاحتضان حبيبتي قبل أن

أحتضر، فتبعتُ خطواتها ولا أعرف ذلك الرصيف إلى أين يودي بي، هجست بذاتي مأمورة من جنيٍ تلبسني وأغواني.

بدت لي بألق زوجتي، ترتدي قميصًا مقورًا من الظهر، كاشفة فتنة المتن. ظننتها حبيبتي، ميزتها من الخال على كتفها، ومن طراوة قدّها. تبعتها وهي تشد أزري لألتحق بها، ففاض بي الشبق لمعانقتها.

تبعتها لمسافة لا أعلم مداها، كانت تمشي بخطوات أسرع من المعقول، كأنها تهرب مني إلى ذاتها. تخيلتها هكذا، كأنها هجست بريبة من ملاحقتي لها، لذا ودت أن تحصن ذاتها بالبعد عني. كنت أمشي بساقين وكأنني أمشي بعشرة، أهجس بذاتي تطير في الهواء، رغم ذلك تمكنت من سبقي بخطوات فقط.

لم أتمكن من اللحاق بها، حتى أوقفها عارض عبور الشارع. انتظرت سماح الإشارة لها بالعبور، عندها أدركتها وأنا مجهد، العرق يتفصد من جبيني، ترطب تلبيب القميص، ربت على كتفها وقلت:

- ما بك يا صدف؟ لِمَ تهربين مني؟ ألستُ زوجك؟

عندها شنفتني بعينٍ شزرة، ثم صفعتني بكفها وقالت بكبرياء:..

- ألا تكف رعونة أيها المراهق؟ امشِ من هنا يا لغوب، يا مجنون، يا سكران، يا تافه...

بقيت صاغرًا، أتمعن في ملامحها بعينين غضنتين، دون أن أنبس بشفة. صفعتها أزاحت غشاء الوهم عن عيني، أعادتني إلى عالمي الواقعي. اكتشفت أنها ليست زوجتي، ولا تشبهها، تبخر الخيال، تماها كدخان في مهب الريح.

صفعتها أعادتني إلى رشدي، صرت أرى الأمور على حقيقتها، صورة التلفاز توقفت على حقيقتها. اختفى الغواش من الصورة لتتضح رويدًا رويدًا، كعدسة الكاميرا حين يختل زومها. تبينت لي أنها عجوز، شمطاء، تتشابك خطوط السن في وجهها، ساقاها كعكازتين، ترتدي معطفًا وشالًا بدا لي قميصًا مقورًا.

ما أزعجني عباراتها: مراهق، لغوب، مجنون، سكران، تافه... كانت تفقه العربية، ربما من أصول عربية. لا أدري لِمَ نعتتني بذلك، هل لأني كنت ثمِلًا؟ أم فعلاً كنت مجنونًا وتافهًا في نظر الآخرين؟

أحيانًا لا يدرك الإنسان درجة انحداره إلا حين يصدم بموقفٍ مغاير لما يبغي، عندها يرتد إليه وعيه، يلتمس الحقيقة التي لا يراها. أحسب نفسي كانت تائهة في المسافة، فلم أتحسس الموقف إلا لحظة الصفعة.

بـثُ اتبـع ذاتـي بشـيء مـن النـدم، وقفـت علـى دكـة الصـمت، أدقـق فـي وجههـا بعـد أن توقـف غيـي. رغـم أن يـدها كانـت ترتجـف، إلا أن صـفعتها كانـت ثقيلـة، أوقفـت نـزف شـرودي، نقلتنـي مـن عـالم الخيال إلى الواقع.

أخـذت زمنًـا وأنـا شـارد الـذهن أنتظـر علـى الرصـيف أن يعـود الظـن بـي إلـى واقعـي الحقيقـي، حيـث تاهـت علـيَّ الحسـابات، لا الـتمس كرامتـي حتـى بعـد مغادرتهـا الموضـع. بقيـت متسـمرا فـي الموقـع أعيـد جدولـة الحسـابات، عنـدها أدركـت لـمَ هـؤلاء الصـيعان يمكثـون فـي البـارات/ وهـم يـدركون بـأن الخمـرة لا تعيد إليهم كرامتهم وشخصياتهم...

غـادرت وبقـي طيفهـا يـراود ذاكرتـي، لكنهـا تركـت فـي نفسـي أنفتهـا وكبريائهـا، لأعيـد إلـيَّ شخصـيتي وكبريـائي. ذلـك الفـراغ جردنـي مـن عـالمي الـواقعي، نقلنـي علـى بسـاط الـريح بـين فواصـل الشـوق، اشـعرني بـأن المسـافة بينـي وبـين حبيبتـي شسـعت وكبـرت، فتماهـا الحـب بـين أجزائهـا ولابـد مـن إعـادة النظر في كل قراراتي وتوجهاتي.

2021 /09/10

الجمعة

18- فكرة عمياء

لم أهجس بالاستقرار قط طوال سنين الهجرة. كانت فكرة الهجرة عمياء تلك التي تمسكت بها، صماء، بلا مرونة حتى أغشتني بصفاتها، جعلتني أتركُ المساء خلفي وأدخلُ في عنق الزجاجة، في منطقة دجنة، كمجنون تائه، أسير، أخرس، أتبع ومضة حلم غائر في عمق البحر، في ذلك السكون الممتد بين العين والبصر حتى هجست بي عتاهة، باحثًا عن لغز الاستقرار الذي لم أكتشف أسراره، ذلك الذي خفا ومضه وتماهى في سدم الزمن؛ حتى لم أعد أذكر شيء من تفاصيل الحلم الذي تبعته.

سرحت كثيرًا خلال هوسي وخيالي، كأنني أرببتُ الفكرة وأدخلت في حلمي. ومع مرور الأيام، كبر مخزونها، صارت حقبة لا تنضب، شغلت فكري وظني. حينها اعتقدتُ بأني مهما عبثتُ بها، فلن يشف مخزونها، حتمًا ستنقذني من مأزقي وستوصلني إلى بر الأمان، ستمنحني استقرارًا أتأمله بعيدا عن أعباء الشك والقدر.

حملتها على كتفي كطفلة، درت بها الأروقة والأزقة والطرق التي شاقتنا، اعتنيت بها، حافظت عليها من عين الشر والحسد ومما الباري خلق. جعلتها شريكة حياتي وسر سعادتي ونبض فؤادي، وضوء الحدق في مواجهة شرودي. شبهتها بصحن القمر في ليلة الزبرقان، زبرج يلمع في عين الحالم الولهان.

أودعتها مكانًا آمنًا داخل كتبي وخزانة ذاكرتي، جعلتها طوع إرادتي، طوع غايتي ومرادي. طاوعتني، هادنتني، دخلت في ظني ويقيني؛ حتى استقرت كجوهرة في حقيبتي.

كبرت الفكرة، أضحت عديمة اللون، شفافة، لماحة، أشبه بفتاة عشرينية بتول، مغنجة بالألق والفتن، لما رق بها من سحر ووضوح، لما رغ بعرفها من حس وخيال. كبرت مع سرعة الأحداث، طاوعت ظرف الوطن. كان لا بد من الأخذ بها قبل أن تشيخ وتتلف. شعرت بها في مقتبل العمر كفكرة مكتملة، جاهزة، تشكلت ملامح وجهها بخبرة عجوز وقورة تتقن لعبة المستقبل.

وهنا بت أسأل نفسي والقارئ العزيز:....

يا ترى، إلى أين سأصل بتلك الفكرة اللعينة التي شغلتني، وحرفتني، وأبعدتني عن حبيبتي طوال سنوات من الشد والجذب والصبر والعناء؟ هل أفلح في الوصول إلى نتيجة مع ذوبان جليد الصبر بعد أن غربت شمس الحقيقة؟ ما القرار الذي كنت ستتخذه لو كنت أنت المعني في هذه الرواية؟

في البداية، تمسكت بالفكرة، التمست فيها البهاء. ما أن أبتسم، تتحول إلى فسيفساء من أطياف وأمل. وما أن أحزن، يكش جلدها؛ يغشيها الأرق والعناء، فتتلون بألوان الشك والريبة. أحيانًا أهجس بها طفلة، وأحيانًا عجوز شمطاء، وأحيانًا فكرة مجنونة متمردة هجينة تتلون مع الأعماق. لا أستطيع تفسير

شرودها وجنونها، فتصبح قتيمة، رمادية، بلون السقم. وأحيانًا تزهو مع طلوع الفجر بألوان الورد والياسمين وولادة السحر.

صارت تلك الفكرة رفيقة حياتي لما فيها من فتن. أركبها كيفما أشاء، ألعب بها، أدور حولها وتدور حولي بشيء من الألفة والرجاء. لذا، عندما قررت السفر، أخذتها معي لتعينني على ضعفي وغشمي، وضعتها تحت وسادتي كي لا تشغلني أفكار أخرى، جعلتها شريكتي وعشيقتي، أُداعبها، أتغزل بها، أتسلى بها.

ما أن ركبت راحلتي واتخذت من موضع النجوم دليلا لي، حتى صرت استغلها في تتبع الحلم، ذلك الذي أودعته في فؤادي وأقفلت عليه باليقين.....

عندها قررت أن أركب قطار الحلم، فقطعت الفيافي والبراري دون توقف، بعيدًا عن مقررات الزمن، كأنه دار بي دورة كاملة وأعادني إلى موضعي الأول الذي تحركت منه، بعد أن قطعت شوطًا وأنا أعاني من تلك السنين العجاف. تركني مهزوزًا، ضعيفًا، مهزومًا، بعد أن كلّ العمر وساف القدم.

في رحلتي، شعرت بأني كنت أتنقل من منفى لمنفى. لذا وجدت من الحكمة أن أستعين بالفكرة، علها تقلني إلى الغاية، تأملت أن تجود عليّ من جودها، من خير أألفه. عندها وددت تصريفها، تحويلها إلى واقع حتمي يحميني، يعيد إليّ توازني.

درت بهـا فـي الأسـواق وبـين العمـلاء، رغبـتُ ببيعهـا علـى العـازفين والنخاسـين وأصـحاب التـراث والبنـوك والمتـاحف والتجـار وثلـة المحـامين الـدجالين الـذين دقـوا مسـامير خبـثهم فـي نعـوش أجسـادنا. جلـت بهـا الـدروب دون أن يلتفـت إليهـا أحـد، وصـفوها بـالفكرة العميـاء التافهـة الغبيـة. كـأنني خُـدعت بهـا وبـذا خُدعت ذاتي.

حاولـت تسـليك أمـري دون جـدوى، دون أن أجـد مـن بقائهـا حكمـة. فـي آخـر المطـاف، قـررت بقرهـا واستكشـاف معـدنها. ومـا أن بقرتهـا، حتـى وجـدتها فكـرة خاويـة، لـيس فيهـا سـوى فـراغ كبيـر سـلبني ذاتـي، تلـبّس ظنـي ويقينـي، جعلتنـي أصـير جـزءًا مـن ذلـك الفـراغ، أو بـالأحرى صـار ذلـك الفـراغ هـو عالمي الذي تلاعب بي.

هجسـت بـذلك الفـراغ وقـد ركـب ظنـي، أحـاطني بجهـل، نخـر عظـامي، نهـش صـبري، لـم أعـد أميـز بـين لـوني ولـون القـدر المكتـوب فـي أسـفاري. ذلـك العبـث دفعنـي إلـى أخـذ المبـادرة والمجازفة بترك زوجتي وحيدة، صبرها وعنائها.

كبـر الفـراغ يومًـا بعـد يـوم، زادت غمقتـه وعتمتـه، وسّـع نطاقـه الكـون بأسـره، بلـع الكواكـب والمجـرات فـي جوفـه، تجـاوز محيطي وكياني، لوى فكري وذراعي.

مـع حجـم الصـخب العـائم فـي أروقـة الفكـر، صـرت أشـبه بلوحـة باهتـة لا تبـرز فيهـا فكـرة. حاولـت أن أسـرع بخطـاي، لأتجـاوز

الهنة التي جزلت صفاتي دون مقاومة. حاولت أن أشغل بالي بأمور ثانوية لأدرك ذاتي، لأداري حالتي النفسية المرهقة. ذاتي التي برحت تسوف ذاك العصف بمحجر العين، أصفرت وذبلت أوراقها، أغشاها الخريف، انجذبت نحو العدم، نحو الثقب الأسود بعد أن فضّت مخزونها من الألق.

هكذا ركبت مركب المجازفات، فقدت ميزة الصبر والتحدي، تبخر الحلم على عجل، صار دخانًا ينفث من كوة الصبر، وأنا أجر عربة الخيبة في دروب الضياع خلف خيط أمل ماهٍ في الفراغ.

صار الفراغ في جوفي يولد من فراغ، بدا الأمر في تناسخ مستمر، حلقات تركب بعضها. أحاطتني وكبلتني بدوائر متداخلة، ما أن أفتك من إحداها حتى أسقط بقبضة أخرى، ما أن أجتاز فراغًا؛ حتى أسقط في كوة أكثر سعة وشساعة، كصيغة دهمة، دغمة، لا أستطيع تفسير وجودها. هجست بذاتي كحجر سقط في بحيرة ساكنة تلتف عليها الدوائر.

ما انفك الفراغ يتكور حولي من ذرات الصمت والسكون، بل صار يتكاثر كالحشرات، بالانقسام والانشطار والتسافد باللحظة، بات يدور فوق رأسي كهوام الصيف. حاولت أن أمسك بالقلم محاولًا أن أرسم له صورة تعيدني إلى موضعي الأول، أو أن أرسم لذاتي سهمًا أو جنونًا أو قيودًا ألهي بها فكري، أود ملء ذلك الفراغ بنشوز ونشور من أفكاري دون

أن أجد لذاتي منفذ خلاص أو حكمة اجتياز بها تلك المفازة التي أوهنتني.

منذ لحظة وداع زوجتي، وجدت ذاتي حبيسة الوهم، هميمة، وهي تجول في مهاوي البحث عن استقرار بين براثن القدر. منذ تلك اللحظة، التفت خيوط الفراق على عنقي، جعلتني أفتقد مبدأ الخطوة، صارت الحالة تحتاج إلى فطنة ودهاء في ترتيب الأوراق. لقد تكبلت في متاهة واسعة من الصمت المخيف، دون أن أستطيع تجاوز شبكة العقد التي ازدحمت في كثيرًا في دروبي.

خلال غربتي بقيت أخاصم القدر وأنا جالس على اثاف موقد الوحدة، استوت المبالاة باللامبالاة، والشعور باللاشعور، والإدراك بالجهل، حتى هجست بطفح التوحد ينتشر في عقلي. هذا ما آلت إليه نفسي دون أن أتمكن من اجتثاثها من ذلك المستنقع.

لقد تركت ذاتي كحمل تسرح في مربع الحلم، تحت أنظار الذئاب البرية، فصرت أهرب والذئب يتبعني، حتى شعرت بأن الموت أضحى قاب قوسين أو أدنى مني، غاف في دفتر المفاجآت دون أن استطيع تحاشي خطره.

في آخر المطاف أدركت لحظة اليأس، أنهكت قواي، تلاعبت بي الأهواء كقشة وسط ريح. ادركت بأني لن أصل غايتي ومبتغاي، لن أتجاوز خط المستحيل. وشل الكأس، بت أعاني

مـن الغايـة وتلـك الفكـرة المزيفـة التـي خـدعت بهـا، هجسـت بهـا آخر القطرات التي خرت من ضلوعي.

أنــه الشـيطان، فنتازيـا غبيـة، عـالم سـكون أجـرد، يختنـق بشـكل مـن أشـكال المشـقة والاستسـلام، أعتـى مـن فـج السـقم وأعمـق مـن العنــاء والظلــم، أينمــا أذهــب أراه شاخصــا أمــامي كقــدر، كلوحــة فـراغ لا شــيء فيهـا سـوى وجـوم وخطـوط وهميـة ليسـت لهـا نهاية.

أحسسـت بحـالي كأنهـا تخلـت عـن أصـل وجـودي، مستسـلم لـذلك الشـيطان، متلفـع بعبـاءة بوهيميـة، بحيـث لا أصـغي لمـن حـولي ولا اتبـع كيـاني ومتطلبـات ذاتـي، كـأني شـاخص بـلا هويـة مرتـديا طاقية الإخفاء أقف وسط العراء.

كنـت مرتبكـا وأنـا أبحـث عـن فصـوص الحلـم بـين أنقـاض الـزمن، اليـأس يكبلنــي والنـدم يحاسـبني، والـذكريات أضـحت قصاصــات ورق فـي مهـب الـريح، تـذكرني بمـا كنـت عليـه وبمـا أصـبحت عليـه. أضـحى عـالمي عـالم ورق، أسـطر الأحـداث عليـه بتجـنن، بســلطان الفضــول والزنقــة، فلــم اســتطع تحريــك مقعــدي عــن مكانه قيد شعرة، وكأنه ثبت بمسمار القدر.

كـأنَّ الخطـوط المركبـة براحـة اليـد تبـدلت أوتارهـا، الغـت الحلـم مـن قائمـة الحـظ والوجـود. الغـت الجـدل والصـبر والصـمت بـين الغايــة المســاقة والفكــرة المتبعــة. تلــك التــي انبجســت كعقــد فــي

الطريـق، تحولـت لبالونـات حـزن تتفجـر مـع تعاقـب المواقـف اللئيمة.

أشـعر بـذاتي أصـبحت هيوليـة المنشـأ، لـيس لهـا شـكل ولا صـورة تخصـها، طـين اصـطناعي تعـددت صـورها. صـارت لعبـة بيـد القـدر، جسـدت شـكل الفـراغ بعـد أن تحولـت لصـيغة عبثيـة بيـد القدر.

الدمعـة التـي أريقـت علـى خـدي أعـادتني إلـى واقعـي، إلـى يقينـي وصـوابي الأخيـر. عنـدها قـررت أن أطـوي ملـف السـفر، أن ألغـي شـكل الفـراغ مـن منهجـي، قـررت أن أعـود لحضـن زوجتـي كيفمـا يشـاء القـدر. شـطبت مـن عـالمي صـور الغربـة البائسـة، وتلـك المعمعـة التـي جزلـت الفكـر عـن العقـل، لأعـود لمسـطبة الألفـة والمحبـة والعاطفـة والأمـان والتنـاغم الروحـي، تلك الأزاهير التي ذبلت حين تغير مكانها.

الفـراغ الواسـع لا يمكـن شـطبه مـن عـالمي دون العـودة لأحضـان زوجتـي. تلـك التـي ملكـت يمينـي ومحبتـي ويقينـي، المموهـة بلمعـة الحيـاة، الملسـنة بخيـوط الشـمس، النائمـة بالحـدق، السـاهدة ببهـاء القمـر، تميمـة الحيـاة، تحفظنـي مـن الحسـد والأرواح الشـريرة، أنهـا دنيـا الولـه، أنهـا الحيـاة بعصـفها وهـدوئها، أنهـا الزوجة الحنينة....

لـذا قـدمت طلبـا لـدائرة الهجـرة لأعـود طواعيـة إلـى حضـنها، منهيـا بـذلك معانـاة أربعـة سـنين عجـاف مـن الغربـة دون أن أشعر بها براحة تقنعني أن أبقى بعيدا عن الوطن.

انتهت

المؤلف : عباس مدحت البياتي

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- عطر خلف الستار
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- فواصل الشوق
12- حين اتقدت الرأفة
13- الرؤيا

ما انفك الفراغ يتكور حولي من ذرات الصمت والسكون، بل صار يتكاثر كالحشرات، بالانقسام والانشطار والتسافد باللحظة، يدور فوق رأسي كهوام الصيف. أمسك بالقلم محاولًا أن أرسم له صورة تعيدني إلى موضعي الأول، أو أن أرسم سهمًا أو جنونًا أو قيودًا ألهي بها فكري، أود ملء ذلك الفراغ بنشوز ونشور أفكاري دون أن أجد لذاتي منفذ خلاص أو حكمة لاجتياز تلك المفازة التي أوهنتني.

منذ لحظة وداع زوجتي، وجدت ذاتي حبيسة الوهم، هميمة، وهي تجول في مهاوي البحث عن استقرار بين براثن القدر.

منذ تلك اللحظة، التفت خيوط الفراق على عنقي، جعلتني أفتقد مبدأ الخطوة، صارت الحالة تحتاج إلى فطنة ودهاء في ترتيب الأوراق. شبكة العقد التي تمطت كثيرًا في در